Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس

بحث في الملكة العلمية العربية عن طريق
تاريخ علم واحد في بلد عربي واحد

تأليف
حسين مؤنس
ع اللغة العربية بالقاهرة
لامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
سات الإسلامية في مدريد سابقا

Bibliotheca Alexandrina
0130733

لطبعة الثانية
١ هـ ـ ١٩٨٦ م

مكتبة مدبولي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ
الجغرافية والجغرافيين
في الأندلس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الاولى
مدريد ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

●

الطبعة الثانية ١٩٨٦

جميع الحقوق فيما عدا هذه الطبعة الثانية محفوظة للمؤلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ
الجغرافية والجغرافيين
في الأندلس

تأليف

حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مدير معهد الدراسات الإسلامية في مدريد — سابقا

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقـديـــم

د . محيى الدين صابر
المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

كان فضل العلماء العرب كبيرا فى مجال علم الجغرافيا . فكانوا فيه روادا ، شانهم فى كثير من مجالات المعرفة الانسانية ؛ وقد كانوا يطلقون عليه علم « تقويم البلدان » و « المسالك والممالك » .

ولقد كان الاندلس هو الجناح الثقافى العربى الثانى ، فى تكامله مع وثبة الفكر العربى وريادته وعطائه وابداعه فى المشرق . وقد نبغ فى الاندلس من العلماء العرب ، فى كل ميادين الفنون والعلوم ، كثيرون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الميادين العلمية التى أسهم فيها الاندلسيون اسهاما واسعا، التار يخ والجغرافيا، وهما صنوان، فى تصورهما للحياة فى الزمان والمكان.

ومن أبرز الجغرافيين العرب، وطلائعهم فى الاندلس أحمد بن محمد الرازي، الذي نشأ فى قرطبة فى القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي، وهى يومئذ مركز اشعاع حضارى عالمى، وقد شارك فى ترجمة كتاب هروشيش الى العربية، وعنوانه: «كتب التوار يخ السبعة فى الرد على الوثنيين» وفيه معلومات عن تار يخ الرومان وآراء الاقدمين فى شبه الجز يرة الايبير ية، الى جانب وصفه هو لها، بحكم كونه اندلسى المولد والنشأة والوطن.

وقد ألف الرازي فى جغرافية الاندلس. فهو فى كتابه «اخبار ملوك الاندلس» يحدد موقع شبه الجز يرة الايبير ية من الاقاليم، وهيئتها، فيقول انها هيئة «مركنة ذات ثلاثة اركان» أي مثلثة، ثم يعقد فصلا لمناخ شبه الجز يرة، و يقسم الاندلس الى اقليمين متباينين من حيث المناخ «فى اختلاف هبوب ار ياحها، ومواقع امطارها، وجر يان انهارها: أندلس غر بى، واندلس شرقى، فالغر بى منها ماجرت أوديته الى البحر المحيط الغر بى، وتمطر بالر ياح الغر بية، والحوز الشرقى المعروف بالاندلس الاقصى، وتجري أوديته الى الشرق، وأمطاره بالر يح الشرقية». ثم يتحدث عن أنهار الاندلس وجباله بدقة علمية هى موضع تقدير العلماء المعاصر ين، فاذا فرغ من هذه المعلومات عن جغرافية الاندلس الطبيعية، انتقل الى القسم الاكثر أهمية وهو جغرافية الاندلس السياسية والبشر ية، فقسم الاندلس الى كور ومدن، ثم تناولها بالوصف العلمى الشامل، بحيث لا يمكن أن يضاف اليوم الى وصف جغرافى جامع مختصر للاندلس الاسلامى شىء كثير مما فعل فى كتابه.

على أن القرن الممتد من ٤٥٠ ـ ٥٥٠ هـ (١٠٥٨ ـ ١١٥٥) م يعتبر فترة متميزة من تألق الانتاج الفكري الاندلسى، يتمثل ذلك فى صورة التأليف العلمى ودقته وتخصصه، وفى وفرة انتاج اعلام الكتاب والمؤلفين والباحثين، وفى تكامل الجهود فى مختلف ضروب العلم حتى لايكاد يخلو ضرب منه، من مؤلفات مجيدة مبرزة. وتجلى ذلك بخاصة فى الرسائل المختصرة التى تعالج موضوعا بعينه، بحيث أصبحت تلك الدراسات فنا مستحدثا: منهجا وأسلو با وموضوعا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى هذه الحقبة ظهر الشريف الادريسى وهو بحق أول جغرافى متخصص فى هذا العلم، فلقد فاق فى هذا الميدان بطليموس، وزاد عليه، وأخرج فى الجغرافية مالم يخرجه عالم قبله، وبذلك رفعها الى مصاف العلوم الميدانية، منهجا وتناولا، واستيعابا...

وظهر قبل الرازي وبعد الادريسى اعلام من الجغرافيين الاندلسيين، منهم على سبيل المثال قاسم بن أصبغ البيانى، والوراق أبو عبدالله محمد بن يوسف، وايراهيم بن يعقوب الطرطوشى، وأحمد بن عمر بن أنس العذري، وأبو عبيد البكري، وعبدالله بن ابراهيم بن وزمر الحجاري، وابن بشكوال، واليسع بن عيسى بن حزم الغافقى، وأبو حامد الغرناطى وسواهم كثيرون.

وقد عكف على دراسة موضوع الجغرافيا والجغرافيين فى الاندلس المؤرخ العربى الاستاذ الدكتور حسين مؤنس، حين كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية فى مدريد، فى فترة من السنوات الستينات. وكان من حصاد بحوثه ودراساته، هذا الكتاب الذي نشره للمرة الاولى فى مدريد لسنة ١٣٨٦ هـ-١٩٦٧ م، بعنوان «تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس».

ولأهمية هذه الدراسة، وعمقها، واضافتها الجديد، فى إسهام الفكر العربى فى تاريخ العلوم، استأنست المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الاستاذ المؤلف فى اعادة طبع الكتاب، وقد وافق كريما، بعد أن أضاف الى الطبعة الاولى، ما رآه محققا لهدف الكتاب.

وإنى، اذ أقدم هذا السفر الجليل، فى طبعته الجديدة المنقحة، الى القارىء العربى فى اعتزاز، بما يمثله من منهجية علمية، ومن جهد أمين، قام عليهما قادرا المؤرخ العربى الكبير، الصديق الاستاذ الدكتور حسين مؤنس، اضافة جديدة إلى ما أسهم وأبدع و يسهم و يبدع به فى الثقافة العربية الاسلامية، فانى أتقدم اليه بالشكر المستحق على العمل النافع الذي قدمه لامته ولثقافتها.

والله يعين على الخير و يهدي اليه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداه .

أما بعد ، فقد صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب فى مدريد فى يناير سنة ١٩٦٧ ، ولقيت لأول صدورها من حسن قبول الناس ماعوضنى خير العوض عن الجهد الشاق الذى بذلته فى كتابته . وقد فتحت به بابا جديدا من ابواب البحث فى تاريخ الجانب العلمى من الحضارة الاسلامية الزاهرة ، فأن الجغرافية كانت من ابواب العلم التى أجاد المسلمون فيها بل ابدعوا ، وقد ذهب بعض الباحثين الغربيين إلى ان الاغريق والرومان سبقوا العرب فى وضع اساس هذا العلم ، وزعم بعضهم أن العرب اخذوا علم الخرائط ورسمها من الاغريق ، وان خرائطهم قامت على اساس خرائط بطلميوس ، فأثبتنا فى هذا الكتاب بالبرهان العلمى القاطع ان الخرائط التى تنسب إلى بطلميوس القلوذى Claudios Ptolemaios هى اساسا خرائط الادريسى . فأن خرائط بطلميوس ضاعت ولم يعثر عليها ، واثبتنا ان الخرائط التى نشرها ايرازموس ومن جاء بعده من الذين تولوا نشر جغرافية بطلميوس وخرائطها ابتكروا هذه الخرائط ورسموها على اساس من خرائط الادريسى ، و بهذا يكون الشريف الادريسى اول من رسم خرائط للارض والاقاليم وصلت إلينا .

وقد ادخلنا الادريسى فى زمرة الجغرافيين الاندلسيين لأنه ينحدر من شجرة الحموديين الادارسة المالقيين الاندلسيين ، وهو قمة الجغرافية الاسلامية ــ مشرقية ومغربية واندلسية ــ وخصصناه لهذا بدراسة موسعة فى كتابنا هذا ، ولهذا ايضا فقد ادخلنا بين الجغرافيين الاندلسيين محمد بن عبدالمنعم الحميرى وابنه محمد مع انهما مغربيان من سبته ، ولكنهما ينحدران من شجرة العلم الاندلسى ، وقد صنف ابن عبدالمنعم الحميرى معجمه الجغرافى المسمى « بالروض المعطار فى خبر الاقطار » شاملا العالم الاسلامى كله ، ولكن ماده الاندلسية من أوفى مالدينا عن الاندلس ، فاستحق الحميرى بهذا ان يُسْلَكَ فى نظام الجغرافيين الاندلسيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد تفضلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فتبنت إعادة طبع هذا الكتاب الذى نفدت طبعته الاولى من زمن طويل واشتدت الحاجة اليه . ولما كان صلب الكتاب سليما لم ينقصه شيء ذوبال من تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس ، فقد رأينا ان يكون الطبع بطريق التصوير (الاوفست) بعد تصحيح الاخطاء المطبعية وتعديل بعض الفقرات . وجعلنا ما طرأ لنا من الاضافات الطويلة ، وكذلك الكلام على ما أضاف الباحثون الآخرون بعدنا من ابحاث ودراسات قيمة وما تضمنته من معلومات ودراسات ظهرت بعد طبع كتابنا ، جعلنا ذلك كله فى ملاحق اضفناها ذيلا فى آخر الكتاب ، واشرنا الى كل ذيل فى الفصل الخاص به فى صفحات المتن ، ولهذا فأننا نرجو القارىء أن ينظر فى الملاحق وهو يقرأ المتن حتى لا يقع فى أذهان بعض الاخوة أننا لم نطلع على ماكتبوا أو اغفلناه ، ونحن والحمد لله أبعد مانكون عن ذلك .

ولم نستطع أن تزيد عدد الخرائط المنشورة فى ذيل الاصل ، ولكننا استكملنا ذلك فى باب « علم الخرائط الجغرافية عند المسلمين » من « اطلس التاريخ الاسلامى » الذى يظهر هذا العام إن شاء الله .

وقد نشرنا بعد ظهور الطبعة الاولى من ذلك الكتاب نص وصف الادريسى لمصر مقتبسا من الطبعة الكاملة لنزهة المشتاق التى نشرتها جمعية المستشرقين الايطاليين ، وكان لى شرف المساهمة فيها بنشر الأجزاء الخاصة بمصر ، ثم عدت بعد ذلك فنشرت ترجمة انجليزية لها مع تعليقات منا منافية عليها فى عددين متتاليين من مجلة Studi Maghibini الايطالية .

وبعد فلا يسعنى فى ختام هذا التقديم للطبعة الثانية الا أن أشكر المنظمة الغربية للتربية والثقافة والعلوم ومديرها الأخ الكريم العلامة الدكتور **محيى الدين صابر** على التفضل بأعادة نشر هذا الكتاب ، واخراجه فى ذلك الثوب القشيب بعناية السيد ابراهيم فريح ومطبعته الفنية بالقاهرة .

والحمد لله فى البداية والنهاية ، فهو سبحانه من وراء القصد والنية وهو الموفق إلى كل خير وصاحب كل نعمة ، وباسمه بدأنا وباسمه نختتم .

القاهرة ، جمادى الأولى ١٤٠٦
يناير ١٩٨٦

د . حسين مؤنس
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
الاستاذ بجامعة القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الطبعة الاولى

—

كلامنا عن العلوم عند العرب كثير ، وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر ، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صرفوا العناية إلى التأليف فى العلوم عند العرب وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال أحمد عيسى ومصطفى نظيف ومصطفى الشهابى ونفيس أحمد وركى وليدى وبهجة الأثرى وقدرى حافظ طوقان ونقولا زيادة وغيرهم من أجلاء العلماء ، وجدنا أن معظم ما نفخر به فى هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا من أمثال جيورج روشكا وهانز فون مجيك وجورج سارتون وكارلو نالينو وبول كراوس وألدو ميللى وهاينريش سوتر وماكس مايرهوف وكونراد ملر وخوان بيرنيت وغيرهم كثيرين جداً ممن انفقوا — وينفقون — العمر فى دراسة المخطوطات العربية فى العلوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذاك بالحجة البالغة والبرهان الناطق .

وهذا هو الذى حدانى إلى تجشم متاعب تأليف هذا الكتاب ، فقد رأيت أن واجبنا نحو العلم الذى نخدمه ونحو العرب الذين ننتسب إليهم أن نؤدى واجب العرفان بالجميل نحو رجال أكرمونا بجهودهم ورفعوا مقامنا بين الأمم بما وصلوا إليه من الفتوح فى ميادين العلوم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورأيت فى نفس الوقت أن أجعل هذا العمل بحثاً فى الملكة العلمية العربية وحدودها وطاقاتها وما استطاعت الوصول إليه ، فان نفراً من الناس زعموا أن دَور العرب فى ميدان العلوم دور نقـل ولا زيادة : تسلموا من اليونان والهنود والفرس وغيرهم ، ثم أسلموا ما نقلوا كما هو إلى شعوب أوربا عند النهضة ، فبدا لى أن أقطع الشك باليقين عن طريق دراسة كاملة فى تاريخ علم أملك وسائل دراسته ، ثم أعرض النتائج بعد ذلك على الناس ليروا بالدليل الواقع مبلغ ما وصلت إليه العبقرية العربية فى الميدان الأكبر لتفاضل الأمم وهو العلم كما يقول صاعد بن أحمد الطليطلى رحمه الله .

وقد اخترت الجغرافية إذ هى توأم التاريخ فى طبيعتها وتاريخها : ثم إن لى إليها مداخل وبها اتصال بحكم العمل فى التاريخ ، وقد رأيت مع هذا أن أبدأ بدراسة العلم الجغرافى نفسه وأقرأ فيه بتوسع لأعرف حقائقه ومعناه ومناهجه وأهدافه وحدوده وأبعاده وتاريخه ، فقرأت فى ذلك ما تيسر من أعمال ديمارتون وفلير وفيدال لبلاش وهمبولت ومن فى طبقتهم من أعلام الجغرافيين المحدثين ، وعلى هدى ما قرأت مضيت فى أعقاب الجغرافيين العرب ، واقتصرت منهم على أهل الأندلس ، لأننى قدَّرْتُ أن الاقتصار على بلد عربى واحد أحرى بأن يوفى بى على ما طلبت من الاتقان والشمول ، وأعان الله فوجدت المادة ذات سعة والمحصول وافراً فمضيت على بركة الله .

وقد طال البحث وامتد وتشعب ، فمضيت معه حيث تطلَّب ، وخرجت منه آخر الأمر بأن فضل العرب على العلم الجغرافى يفوق فى الحقيقة كل ما قيل إلى يومنا هذا ، فإن كل ما وصل إليه نجيك وكراتشكوفسكى وكرامرز ودوبلر لم يتعد الظاهر فى معظم الحالات ، ولا نقول هذا غمطاً لجهود أولئك الأساتذة الأجلاء ، فنحن العرب نعرف الفضل وأهله ولا ننكر لأحد يداً مهما صغرت ولكن لكل رجل حدوده ، ومن الشطط أن نطلب إلى رجل مثل كرامرز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يقرأ كل ما كتب أبو عبيد البكرى مثلا ليقدر ملكته الجغرافية تقديراً سليماً ، فقد كتب البكرى مئات الصفحات فى ذلك العلم ، ولم يكن من الممكن بداهة أن يقرأ كراسرز ذلك كله ، وهو مشكور ألف مرة على ما فعل .

أقول اننى خرجت من هذا البحث بأن دور العرب فى تاريخ العلوم أكبر وأوسع مما كنا نقول ، لأن ما وصل إليه الجغرافيون فى بلد عربى واحد — هو الأندلس — يعتبر بالفعل صفحة بيضاء تزهى بها الانسانية كلها . والجغرافية كانت فى العصور الوسطى علماً لا يدر كسباً ولا يخلع على صاحبه جاهاً أو يفتح له طريقاً فى الحياة ، وقد كنا نقول أن دافع العرب إلى الاشتغال بالجغرافية هو معرفة طرق الحج ، فثبت لنا من هذا البحث أن أدلاء القوافل ما كانوا يقرأون كتب الجغرافيين أو أوصاف الرحلات ، ولعل معظمهم لم يسمع فى حياته باسماء مثل ابن خرداذبة أو ابن رسته أو البكرى أو الإدريسى ، لأنهم — أى الادلاء — يسيرون فى الطرق بفضل التجربة والمشاهدة لا بقراءة الكتب ؛ ثم ان كتب الجغرافية لم تكن مما يدرس فى حلقات الشيوخ ، ولم يكن التجويد فيها مما يحشد أصحابها فى زمرة العلماء ، بل كان حريا بأن يسلكهم فى جملة الخليين الذين يصرفون جهدهم إلى ما لا ينفع ، وقد بلغ الأمر بأحد المشتغلين بالجغرافية وهو محمد بن عبد المنعم الحميرى إلى حد أن اعتذر فى فاتحة كتابه عن اشتغاله بتأليف المعجم الجغرافى المعروف باسم « الروض المعطار فى خبر الأقطار » وقال — كأنه يطلب الصفح عن جرم ارتكبه : « ومع هذا فقد لمتُ نفسى على التشاغل بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهمِّ من العلم المُزلِف عند الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهمه وقته ؛ ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح حتى تنشط إلى ما هى به أعنىُ ، ثم هو مهيع يسلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج فى الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ! وأستغفره وأستقيله ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فيارب عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه ، فأنت على كل شىء قدير ! » .

ومن هنا فإن الذين طلبوا الجغرافية وألفوا فيها من العرب إنما دفعهم إلى ذلك الشغفُ بالعلم والرغبة فى المعرفة لوجهها لا لكسب أو جاه ، ومن هنا يكون اشتغال العرب بها دليلا ناطقاً على ملكة علمية أصيلة فى نفوسهم ، ويكون ما وصلوا إليه من الفتوح ثمرة النزوع العلمى الصادق والرغبة فى كشف المجهول وتبديد الظلمات ، وهذه أجل نزعة عند البشر وأكثرها دليلا على إنسانية الإنسان .

وإذا كان هذا مبلغ ما وصلت إليه الملكة العلمية العربية فى ذلك العلم رغم ذلك ، فما بالك بما وصلت إليه فى علوم كانت تدر الأرزاق وتفتح أبواب الجاه كالطب والأعشاب والهندسة والكيمياء والفقه والأدب والتاريخ وما إليها ؟

إلى هنا أقف بهذا التقديم ، إذ لا معنى للأطالة والكتاب بين يدى القراء يقرأون فيه ما يشاءون متفضلين ، رزقه الله منهم القبول .

هذا وفاء بدين نحو الماضين ، فأرجو أن يكون جديراً بما طلبتُ به وأهلا لأن يهدى إلى الناس فى عصر العلم والنور .

وقد وقفت على تصحيح تجارب الطبع بنفسى ، ونُورُ البصر قليل ، فربما شرد خطأ فى لفظ أو وقع سهو فى اسم عَلَمَ فاسأل القارىء التجاوز ، وأقدم له الشكر الصادق على تحمل عناء الرحلة فى هذه الصفحات .

والله المستعان سبحانه ، له الحمد والمنة فى البداية والنهاية ، والسلام ؟

مدريد فى رمضان ١٣٨٦ الموافق يناير ١٩٦٧

حسين مؤنس

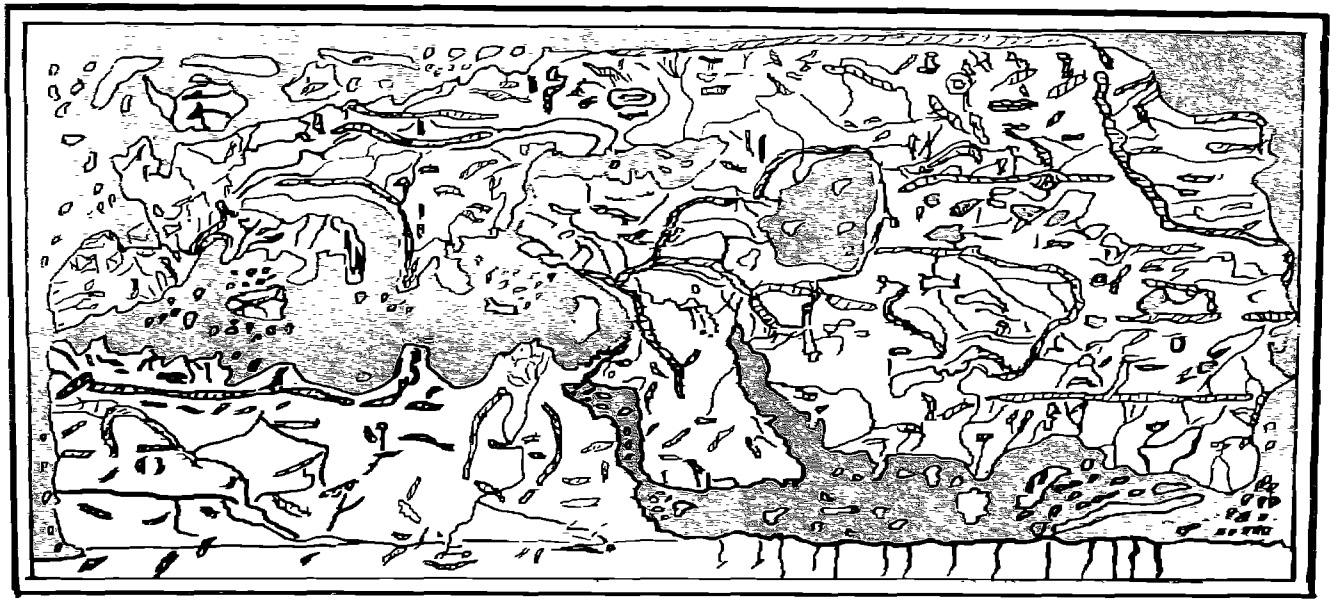

(١) صورة الأرض للادريسى ، نقلا عن رسم لها نشره المجمع العلمى العراق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجاء إلى القارىء الكريم

اضفت فى نهاية هذه الطبعة الثانية تعقيبا استدركت فيه أهم ماجد فى ميدان دراسات الجغرافية فى الاندلس مذ صدور الكتاب فى طبعته الاولى. فارجو القارىء التفضل بمراجعة هذاالتعقيب ومواد هذا التعقيب مرقمة بحسب ترتيب فصول هذا الكتاب.

«المؤلف»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصول التأليف الجغرافى عند الأندلسيين

تمهيد : ١ — الجغرافية عند المسلمين وتراث الهنود والفرس واليونان

ظهر علم الجغرافية فى الأندلس مع علم التاريخ فى آن واحد كما هو الحال فى المشرق ، فكما كان هشام بن محمد السائب الكلبى (توفى ٢٠٤ أو ٢٠٦) وأبو حنيفة الدينورى (توفى ٢٨٢ / ٨٩٥) وابن قتيبة (توفى ٢٧٦ / ٨٨٩) وابن واضح اليعقوبى (توفى ٢٨٤ / ٨٩٧) وغيرهم من رواد علم التاريخ فى المشرق رواداً لعلم الجغرافية فى نفس الوقت ، وأثرت عنهم وعن معاصريهم المؤلفات الصغيرة والكبيرة فى هذه الناحية أو تلك من نواحى جغرافية الجزيرة العربية والعالم الإسلامى[1] ، فكذلك كان أول مؤرخ أندلسى كبير وهو أحمد ابن محمد الرازى مؤرخاً وجغرافياً . بل هو الذى وضع أساس هذين العلمين فى الغرب الإسلامى .

ذلك أن التاريخ والجغرافية كانا فى نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف العامة التى كانت تسمى « الأدب » بصورة عامة ، فكما كان من الضرورى للعربى أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعراءها وكتابها ، فكذلك

---

(١) راجع فى هذه النقطة ما كتبه نفيس أحمد فى كتابه القيم « جهود المسلمين فى الجغرافيا » ترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) القاهرة ، بدون تاريخ ، وخاصة الفصل الثانى ص ٤٢ وما يليها .

كان لا بد له أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الفتوح الإسلامية وتواريخ الخلفاء والدول ، وكان لزاماً عليه — إكمالا لثقافته — أن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها مع ما يتيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم . ومن هنا فإنه من العسير أن تفصل بين المؤرخ والجغرافى والأديب فى تاريخ الفكر الإسلامى . ولو أننا تناولنا كتاباً أدبياً صرفاً كالبيان والتبيين للجاحظ ودرسناه دراسة تدقيق لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ما يضع أبا عثمان عمرو بن بحر فى صفوف المؤرخين والجغرافيين . وقد أفاض فى هذه الناحية شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى فى فاتحة « معجم البلدان »[1] .

وإن من يقرأ هذه المقدمة وما يماثلها من مقدمات كتب البلدان كفاتحة « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » لأبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ليتبين بوضوح أن الاتجاه إلى التأليف فى الجغرافية لم يصدر عند المسلمين عن مجرد الرغبة فى معرفة طرق الحج ، كما يذهب عامة المؤلفين الغربيين المحدثين ومن تابعهم من كتاب العرب ، فإن طرق الحج كانت معروفة مقررة لا يحتاج طالب الحج إلى الاطلاع على كتاب ليعرفها ، ثم إن الحاج كان يخرج فى ركب كبير يقوده أدلاء عارفون بالطرق ومسالكها ، وقلما كان أولئك الأدلاء ممن يقرأون الكتب . ومن المستبعد أن نتصور أدلاء قوافل الحج يسيرون على هدى ما كتبه الاصطخرى وابن رستة مثلا ، بل الأصح أن مؤلفى هذه الكتب كانوا يسترشدون بالأدلاء فيما يكتبون . إنما صدر التأليف فى الجغرافية عند المسلمين عن ذلك النزوع العام نحو المعرفة الذى امتازت به أمم الإسلام فى عصر

---

(١) ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ ، ج ١ ص ٢ وما يليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النهوض ، وهو مظهر من مظاهر الشعور بالعزة الذى يصاحب الأمم الصاعدة ، والعلم — كما يقولون — سيادة[١] .

ولو أن العلم الجغرافى عند المسلمين سار فى طريقه وتطور فى اتجاهه البسيط الأول ، وهو جمع المعلومات عن الأرض وأهلها لكان توفيق المسلمين فى ميدان الجغرافية أعظم مما وصلوا إليه ، ولما وقعوا فى أخطاء كبيرة فى تحديد المواقع والتعريف بمواضع القارات والمحيطات ومجارى الأنهار وما إلى ذلك . ولكن اتصالهم بإيران والهند جلب إليهم نظريات جديدة أصبحت بعد ذلك أساساً لاتجاه جديد للتأليف الجغرافى عندهم ، وهو الاتجاه الكونى أو الفلكى الذى سنشير إليه بعد قليل ؛ وعلى الرغم من أن بعضهم استبان أن هذا الاتجاه الهندى الإيرانى يقوم على نظريات وهمية لا تستند إلى أساس من بحث أو تحقيق ، فإنهم مضوا فيه وزادوا عليه ، واجتهد بعضهم فى ضبطه وتحقيقه فلم يصلوا إلى نتيجة ، لأن الأساس نفسه كان خاطئاً .

---

(١) راجع مثلا قول المقدسى فى مقدمة أحسن التقاسيم : « ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار . . . وعلمت أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار ، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء . . . » .

تحقيق دى خوية (الطبعة الثانية ١٩٠٦ ، ص ١ و ٢

وقول ابن حوقل فى مقدمة صورة الأرض : « وكان مما حضنى على تأليفه وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه أننى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق . . . وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب . . . » .

صورة الأرض ، تحقيق ج. هـ. كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ ، جـ ١ ص ٣

وانظر أيضاً فى هذا المعنى مقدمة كتاب البلدان لأحمد بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ، ليدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأهم هذه النظريات تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة ، والقول بأن للأرض خط طول رئيسياً يمر بما سموه « قبة العَرين » وهو تحريف لاسم موضع زعموا أن الهنود أقاموا فيه مرصداً اتخذوه أساساً لخطوط الطول الأخرى ، مع أن « العرين » هذا كان اسماً اصطلاحياً لجزيرة وهمية بين الهند والحبشة ذكرها ديودور الصقلى باسم أورانوس . وعلى أساس هذا الوهم رسموا خطوط طول وهمية حافلة بالخطأ ، وجعلوها تتقاطع مع خطوط عرض وهمية هى الأخرى أخذوها من حدود الأقاليم السبعة وأجزائها ، واجتهدوا فى أن يضعوا المعالم الجغرافية على هذه الشبكة التخيلية ، فكان من ذلك أن اضطربت صورة الأرض فى أذهانهم .

وزادهم استمساكاً بهذه النظريات نقل كتابى الجغرافية والمجسطى لبطليموس الاسكندرى إلى العربية ، فقد فتنوا بهما وترجموهما أكثر من مرة خلال القرن التاسع ومنتصف العاشر ، وزادهم إقبالا على بطليموس أنهم وجدوه يؤكد نظرية الأقاليم السبعة ويكمل ما أخذوه من الهنود بمعلومات طريفة عن الجانب الغربى للأرض ، ويربط بين الأجرام السماوية والأماكن الأرضية ، فثبتوا على القول بذلك ونقلوا عن بطليموس نقولا محرفة جعلت معلوماتهم خارج مملكة الإسلام مجموعة أوهام وتصورات وعجائب وخوارق ، هذا إلى الخلط الشديد فى تحديد مواضع الأمكنة والبقاع داخل العالم الإسلامى نفسه ، ومن هنا فإن سلسلة الجغرافيين الفلكيين التى تبدأ بمحمد بن موسى الخوارزمى صاحب كتاب « صورة الأرض » تعتبر من أقل ما ألف المسلمون فى الجغرافية قيمة من الناحية العلمية . ومع أن المدققين المحققين من علماء الإسلام استبانوا فيما بعد خطأ الجغرافية البطليموسية ، فإنهم لم يستطيعوا التحلل من القول بالأقاليم السبعة وخطوط الطول الوهمية وتشويش أذهانهم بها . ومثال ذلك أن أبا الريحان البيرونى استبان خطأ الحساب البطليموسى ، وتبين أن هناك أماكن كثيرة « نجدها

الآن مبينة فى الجغرافية البطليموسية إلى الشرق من أماكن أخرى فى حين أنها تقع إلى غربها والعكس بالعكس » إلا أنه استمر يقول بالأقاليم السبعة مما عرضه لكثير من الخطأ (١) .

بيد أن البيرونى استطاع بعبقريته الفذة أن يعود بعلم الجغرافية عند العرب إلى قواعده الأولى : قواعد المشاهدة والرحلة والتجربة الشخصية ، فقد رحل

---

(١) كان وصول آراء الهنود والإيرانيين فى الفلك والجغرافية إلى العرب سابقاً على معرفتهم لآراء الإغريق ، فقد ترجم المسلمون كتابى السادهانتا (السند هند) وأركانداللذين ألفهما براهما جوبتا حوالى سنة ٧٧١/١٥٤ وقام على الترجمة نفر من الهنود ورواد الفلك والجغرافية المسلمين مثل ابراهيم ابن حبيب الفزارى ويعقوب بن طارق وغيرهما . وعن الهنود أخذ العرب القول بالخط الذى يقسم القبة السماوية ويمر بموقع أرين أو العرين . ثم قسموا دائرة القبة بعد ذلك إلى ٣٦٠ قسما سمى كل قسم منها درجة ويمر بكل منها خط من خطوط الطول . أما كلاوديوس بطليموس الاسكندرى فقد عاش فى القرن الثانى المسيحى ، وقد عرف العرب مؤلفه الرياضى الكبير «جامع الرياضيات He Mathematike Syntaxis » الذى اشتهر بعد ذلك باسم Magiste وعربه العرب أيام المأمون إلى المجسطى وعنهم أخذ علماء أوروبا فى العصور الوسطى ذلك الكتاب باسمه العربى Almageste وقد جمع بطليموس فيه كل النتائج التى وصل إليها سابقوه من الفلكيين الإغريق وخاصة هيبارکوس . أما كتاب بطليموس الثانى الذى يسميه المسلمون « جغرافياً » فهو كتاب «دليل الجغرافية Geographike Huphegesis» ولم ينشر نصه الاغريقى إلا فى سنة ١٥٣٣ فى مدينة بازل بسويسرا بتحقيق ارازموس ، أما قبل ذلك فقد كان عماد الناس فى الرجوع إليه على ترجمات لاتينية عملت مباشرة أو عن العربية ، وسبب أهميته أنه قال إنه لا يمكن رسم خريطة للأرض إلا على أساس تقسيمها إلى أقاليم Klimata أى مناطق عرضية ، وقد أخذ هذا القول عن هيبارکوس . أما خطوط الطول فيحتمل أن يكون قد أخذها عن هيبارکوس أيضاً ، وهذا أخذها عن مرينوس الصورى ، وهو الذى نقل هذا المفهوم الهندى إلى الاغريق ناقلا الخط الرئيسى من قبة العرين إلى جزائر الخـــالدات أو فرطناطش . وقد جعل بطليموس خط الاستواء أعلا بكثير مما هو فى الحقيقة ، ثم تصور حدود الأقاليم السبعة بعد ذلك موازية له شمالا . وجغرافية بطليموس ليست إلا جدولا لتقسيم سطح المعمور من الأرض مع ذكر أسماء البلاد والنواحى فى منطقة البحر الأبيض على الخصوص ، ولكنه لا يعطى أى تفاصيل عن المناخ أو السكان أو النبات والحيوان ، وقد أكمل العرب ذلك بمعلوماتهم الواسعة عن نواحى المعمور .

Cf. M. Ninck, *Die Entdeckung Europas durch die Griechen.* Basel 1945.

O. Cuntz, *Die Geographie des Ptolomaios.* Berlin 1923.

H. Berger, *Geshichte der wissenschaftlichen Erdkunde der Griechen.* 3 Bände, Leipzich, 1903.

Ruska, Georg, *Zur geographischen literatur im islamischen Kulturbereich.* Geographische Zeitschrift, Band 33 (1927) pp. 517-589.

بنفسه إلى البلاد التى كتب عنها وسأل واستقصى ، ودون ثمرة ذلك فى كتب فريدة فى نوعها مثل « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » وصنع بيده أدوات الرصد التى أقام عليها كتابه « القانون المسعودى » وسار على منهج الجاحظ فى التأمل والمشاهدة . ووصل إلى ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا بعد قرون ، كالقول بأن الكثير من الأرضين كانت أصلها قيعان بحار ، فقال مثلا « فهذه بادية العرب ، وقد كانت بحراً فانكبس ، حتى أن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ، فإنها تبدى أطباقاً (= طبقات) من تراب ورمل ورضراض ، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يُحمل على دفن قاصدٍ اياها هناك ، بل تخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك ، إما باقية على حالها وإما بالية قد تلاشت ، وبقى مكانها متشكلا بشكلها »[1] .

والبيرونى يجرى هنا على الطريقة العقلية الواقعية التى سار عليها رواد الجغرافية العربية ممّن نهضوا بذلك العلم العربى الصرف الذى عرف بالمسالك والممالك ، وما أشبه منهجه فى المثل الذى ضربناه بمذهب ابن رستة فى التدليل على كروية الأرض : « أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، والدليل على ذلك أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع مَن فى نواحى الأرض فى وقت واحد ، بل يُرى طلوعُها على المواضع المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربية . ويتبين ذلك من الأحداث التى تعرض فى العلو ، فإنه يُرى وقت الحدث الواحد مختلفاً فى نواحى الأرض ، مثل كسوف القمر ، فإنه إذا رُصد بين بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب ، فوجد وقتُ كسوفه فى البلد الشرقى منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلا ،

---

(١) انظر الفصل القيم عن البيرونى فى كتاب « جهود المسلمين فى الجغرافيا » تأليف نفيس أحمد وترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) . القاهرة ، بدون تاريخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقول : وُجد ذلك الوقت فى البلد الغربى على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين ، فتدل زيادة الساعات فى البلد الشرقى على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربى[١] » فأين هذا من قول المسعودى فى « التنبيه والاشراف » ناقلا عن اليونان ومتابعاً لهم فى مذاهبهم الفلكية الرياضية ومجملا بعض آرائهم : « قد تنازع الناس فى الفلك ممن سلف وخلف ، فقال أفلاطون وأمسطيوس والرواقيون وعِدَّةٌ ممن تقدم عصرَ أفلاطون وتأخر عنه من الفلاسفة : إنه من الطبائع الأربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، إلا أن الغالب عليه النارية ، وليست ناريَّتُه محرقة ، إنما هى مثل النار الغريزية فى الأبدان . وقال آخرون : إنه من النار والهواء والماء دون الأرض . وذهب ارسطاطاليس وأكثر الفلاسفة ممَّن تقدم عصره وتأخر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفرس والكلدانيين إلى أنه طبيعة خاصة خارجة عن الطبائع الأربع ، ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، وأنه جسم مدور أجوف يدور على محورين وهما القطبان ، أحدهما رأس السرطان ، ومنتهى « بنات نعش » من تلقاء نقطة الجنوب ، والآخر رأس الجدى ، وفيه كواكب مثل « بنات نعش » من تلقاء نقطة الشمال . وخط الاستواء فى وسط الفلك ، وهو خطٌّ ما بين الشمال والجنوب ، وأوسع موضع فيه من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب . وهو منقسم بأربعة أرباع ، كل ربع منها تسعون درجة على خطين يتقاطعان على مركزه ، وهو موضع الأرض ، منه أحد الرُّبعين ، وهو أحد القطبين ، نقطة الشمال وبأزائه نقطة الجنوب . والربع الثالث نقطة المشرق ، وبأزائه نقطة المغرب . وهو يدور دوراناً طبيعياً دائماً ، وبدورانه ودوران الكواكب التى فيه تنفعل الكيفيات ، وانبسطت الأركان

---

(١) ابن رستة ، أبو على أحمد بن عمر ، كتاب الأعلاق النفيسة . نقل هذه الفقرة ر. بلاشير و هـ. درمون فى « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى » ، الطبعة الثانية ، باريس ١٩٥٧ ، ص ٤٢ — ٤٣

الأربعة وهى الماء والهواء والنار والأرض . . . »[1] . فهذا كلام نقله المسعودى دون أن يحققه ، إذ هو مستحيل التحقيق .

وهذه الآراء وأمثالها هى التى أضعفت التفكير الجغرافى عند المسلمين وأضاعت جهد الكثيرين من علمائهم ، وجعلت العلم الحديث ينظر إليها على أنها أوهام لا تدرس إلا فى مجال البحث عن تاريخ علم الجغرافية وآراء القدماء فيه ، فى حين أن كلام ابن رستة الذى ذكرناه حقيقةٌ علمية ثابتة اليوم يتعلمها التلاميذ فى المدارس .

ومن هنا فإن الخط الحقيقى للجغرافية الإسلامية هو خط « المسالك والممالك » و « البلدان » أو « البرود » ، فهو خط سليم قائم على الرحلة والمشاهدة وسؤال أهل البلاد وتحقيق ما يدلون به من معلومات ومقارنتها بغيرها ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها .

وليس بغريب أن يكون الميلاد الحقيقى لهذا النوع هو نفس ميلاد التاريخ العالمى عند المسلمين ، فإن أول من وضع كتاباً فى « البلدان » هو أحمد بن أبى يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى (توفى بعد ٢٧٨ / ٨٩١) وهو واضع أول تاريخ للعالم عند المسلمين . وهذا فى ذاته مثال واضح للارتباط الوثيق بين الجغرافية والتاريخ عند المسلمين . وإليك منهج اليعقوبى كما بينه فى فاتحة كتاب البلدان ، أثبت فقرات منه لأنه يعيِّن — فى نفس الوقت — الاتجاه الذى سارت عليه الجغرافية عند الأندلسيين ابتداء من محمد الرازى وابنه أحمد بن محمد ، قال : « إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى « بعلم أخبار البلدان » والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلَتْ أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك

---

(١) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على : التنبيه والاشراف ، « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى » ، ص ٢١٣ — ٢١٤

البلدان سألته عن وطنه ومقره ، وإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك فى . . . لدته[١] ما هى وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم : عرب أم عجم ؟ . . . شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم . . . وديانتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمترأسين فيه . . . [وما] مسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان . . . ثم أثبت كل ما يخبرنى به من اثق بصدقه ، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس فى الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب . وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وجَنَّد مِصْراً مصراً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه ، وما يرتفع من أمواله ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلا ، وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته[٢] . . . » .

ومن هذا الاتجاه السليم تفرع أدب الرحلات الذى نعتبره جانباً هاماً من جوانب الجغرافية الإسلامية ، فإن الرحالة جغرافى متنقل ، ووصفُ رحلته مصدر مأمون إلى حد كبير للمعلومات الجغرافية من كل نوع . وإذا كان العربى بطبعه رحالة دقيق الملاحظة متفتح الذهن فقد كان من الطبيعى أن يوفق المسلمون فى هذه الناحية توفيقهم فى أدب المسالك والممالك والبلدان ، بل كان توفيقهم فى هذا الميدان أعظم وأبعد مدى ، حتى أصبحت بعض كتب رحلاتهم من معالم الأدب العالمى .

والرحالة المسلمون الذين أثرت عنهم أوصاف لرحلاتهم من كل نوع وصنف من الناس : فيهم الرسول الذى ترسله الدولة إلى ناحية من النواحى للكشف عن مسألة علمية مثل سلاّم الذى أرسله الخليفة الواثق (٢٢٧/٨٤٢—٢٣٢/٨٤٧)

---

(١) كذا فى الأصل الذى نشره دى خويه ص ٢ ، والغالب أن هذه بقية كلمة « بلدته » .

(٢) اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان بتحقيق ميخائيل يانوس دى خويه ، ليدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

ليستطلع أمر سد ياجوج وماجوج[١] . وفيهم صاحب البريد ، أى من المتولين أمور هذا المرفق الهام من مرافق الإدارة الإسلامية الذى يتولى نقل مراسلات الدولة ورُسُلها ، كما نجد عند أبى الفرج قدامة ابن جعفر (المتوفى بعد سنة ٣٢٠/ ٩٣٢) ، فقد تصدى لكتابة موسوعة شاملة لكل ما يحتاج إليه كتّاب الدولة من المعارف وأسماه « كتاب صناعة الكتابة » اختص منه البرد والطرق بجزء كبير دون فيه معلومات وملاحظات لا تتأتى إلا عن الرحلة والمشاهدة المباشرة ، وهذا الجزء هو الذى نشر بعضه دى خويه (ليدن ١٨٨٩) باسم « كتاب الخراج » . وفيهم الجاسوس الذى ترسله جماعة سياسية دينية لاستطلاع الأخبار وتعرف الأحوال كما نرى فى حالة أبى القاسم محمد بن حوقل النصيبى المتوفى بعد سنة ٣٦٧ / ٩٧٧ . وفيهم الطُّلَعة الذى يرحل لمجرد الرحلة ويكتب ليشبع رغبة فى نفسه كأبى حامد الغرناطى (٤٧٣ — ٥٦٥ / ١٠٨١ — ١٠٦٩ — ٧٠) ، وفيهم المغامر الذى يتجشم المشاق ويتعرض للأخطار مدفوعاً بشوق عظيم نحو المعرفة كأبى عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالمقدسى (توفى بعد ٣٧٨/ ٩٨٨) الذى يبدأ المغامرة فى فاتحة كتابه نفسها ، فينقد سابقيه جميعاً فى أسلوب لاذع لا يغفره له إلا أن كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أحسن ما ألف المشارقة فى باب المسالك والممالك والبلدان والرحلات . وفيهم السفير الذى يندبه الخليفة للسفارة إلى بلد غريب مثل أحمد بن فضلان (كتب فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) الذى أرسله الخليفة رسولا إلى ملك البلغار فى حوض الفلجا ، فعاد يحكى غرائب أولع الناس بهـا وبأمثالها ولعاً شديداً فيما بعد ، مثل خبر السمكة التى تخرج كل يوم للناس من البحر فيقطعون حاجتهم من لحمها ثم تعود إلى الماء لترجع إليهم فى اليوم التالى . وفيهم

---

(١) أورد طرفاً منها ابن خرداذبة فى المسالك والممالك ، طبعة دى خوية ليدن ١٨٨٩ ص ١٦٢ وما بعدها ، وكذلك الإدريسى فى نزهة المشتاق . وكلامه حافل بأحاديث العجائب التى استهولها الجغرافيون المسلمون وشكوا فى صدقها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملاح الذى يتحدث عن عجائب البحر مثل بُزُرْج بن شهريار الذى كتب فى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وفيهم التاجر الذى يقطع آلاف الأميال فى بَرار وقفار ومخاطر ثم يسجل ذكرياته ومشاهداته ، مثل سليمان التاجر (كتب فى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) وقد وصف فى كتابه « سلسلة التواريخ » الرحلة بالبر إلى الصين والهند عن طريق فارس .

ومهما يكن من رأى النقاد المحدثين فى هذه المؤلفات ، فلا شك أنها تعطى فى مجموعها صورة واضحة عن عالم العصور الوسطى سواء داخل مملكة الإسلام أو خارجها ، وهى من هذه الناحية ذات قيمة علمية باقية ، بخلاف ما كُتب اعتماداً على كتب الهنود والفرس واليونان وغيرهم ، فهو غير ذى قيمة حقيقية كما ذكرنا .

أما ما نجده فى ثنايا هذه الكتب من حديث العجائب ، فقد كانوا يكتبونه للتسلية والتشويق دون أن يأخذوها هم وقراؤهم — نحسب — مأخذ الجد ، وقد تجمعت هذه المادة القصصية واندرجت فى ألطف مجموع قصصى أخرجته العصور الوسطى وهو « ألف ليلة وليلة »[1] .

وفى هذين الضربين : المسالك والممالك أو البلدان والرحلات كتب أهل الأندلس والمغرب ووصلوا بهما إلى القمة كما سنرى عند آل الرازى وأبى عبيد البكرى والإدريسى وابن جبير وابن بطوطة ، وسنرى أيضاً كيف نبغوا فى نوع آخر من الرحلات وهو رحلات العلم أى للقاء الشيوخ والأساتذة والأخذ منهم والحديث عنهم ، كما سنرى عند ابن رُشيد الفهرى والعبدرى .

---

(١) انظر عن اتجاهات الجغرافية عند المسلمين وعلاقتها بعلوم اليونان :

César E. Dubler, *Abū Ḥāmid el Granadino y su Relación de Viaje por Tierras Euroasiáticas* (Madrid 1953).

فقد قدم الأستاذ دوبلر لترجمته لنص رحلة أبى حامد بمقدمة وافية أجمل فيها كل آراء المستشرقين عن الجغرافية الاسلامية بأوفى مما فعله ج. هـ. كرامرز فى مادة جغرافية Djughrāfiya التى نشرها فى ملحق الطبقة الأولى لدائرة المعارف الاسلامية ص ٦٢ وما يليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ — أسس التأليف الجغرافى عند الأندلسيين

على هذين الأساسين السليمين (البلدان أو المسالك والممالك والرحلات) قام التأليف فى الجغرافية عند الأندلسيين ، فلا نحس فى مؤلفاتهم ذلك التأثر البعيد بالنظريات الشرقية واليونانية الذى نجده غالباً على كثير من المؤلفات الجغرافية فى المشرق . وقد عرف الأندلسيون كيف يفيدون من مؤلفات الإغريق واللاتين ومن أخذ عنهم واعتمد عليهم من الاسبان خلال العصر القوطى : أفادوا منهم فى الوصف العام لشبه الجزيرة الأندلسية وما اتصل بها وقرب منها من بلاد أوروبا ، وأفادوا منهم فى تحديد المواقع وتقدير المسافات ، وانتفعوا بهم فيما ذكروا من تاريخ شبه الجزيرة وتاريخ بعض بلدانها فى القديم . ولكنهم لم يتقيدوا بهم فى التقسيم الجامد إلى أقاليم ذات خصائص فلكية أو علاقات ببروج الفلك .

وإذا كان ابن حزم قد أشار إلى أثر الأقاليم التى يقع فيها الأندلس فى أخلاق أهله وملكاتهم فى رسالته المعروفة فى « فضل الأندلس » فقد كان ذلك فى معرض المفاضلة بين الأندلسيين وأهل المشرق ، فكأنه أراد أن يجاريهم فى مذاهبهم ويحاورهم على أسلوبهم ليبين فضل بلاده على بلادهم عند ما قال : « وأما فى قَسْم الأقاليم ، فإن قرطبة ، مسقط رءوسنا ، مع سُرَّ من رأى فى إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه اقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مُغربة عن مطالعها على المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التى تدل عليها الكواكب ناقص من قُوى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حَظٌّ يفوق حظَّ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النَّيرَيْن بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن فى العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدَّق

ذلك الخبر وأبانته التجربة . . . »[١] وأغلب الظن أن ابن حزم اعتمد فى ذلك على كتاب مشارقة ، لأننا لا نجد أحداً من جغرافيي الأندلس سلك ذلك المذهب الفلكى فى الجغرافية ، فيما عدا على بن سعيد ، وهو متأخر على ابن حزم[٢] .

وغاية ما نجد من تأثر الجغرافيين الأندلسيين بالتقسيم البطليموسى هو اجماعهم على أن الأندلس تقع فى الأفاليم الرابع والخامس والسادس ، وهم يكتفون بذلك لتحديد موقع شبه الجزيرة من « أطلس الإسلام »[٣] ، أى تحديد هذا الموقع بالنسبة لبقية البلاد الإسلامية . ولا يستطردون إلى ما وراء ذلك .

---

(١) ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، نفح الطيب ، طبعة محي الدين (القاهرة ١٩٤٩) ج ٤ ص ١٥٧ — ١٥٨

(٢) قد يكون ابو عبيد البكرى تكلم عن التقسيم إلى أقاليم وأثر ذلك فى أخلاق الناس وملكاتهم فى الجزء الأول من مسالك الذى خصصه للمقدمات الجغرافية ، ولم يبق لنا من هذا الجزء إلا قطع قليلة أوردها ابن فضل الله العمرى فى الجزء الأول من مسالك الابصار .

(٣) كان أول من استعمل هذا المصطلح ا. ميلر فى مجموع الخرائط القيم الذى نشره تحت عنوان :

A. Miller, *Mappae Arabicae. Arabische Welt und Länderkarten* des 9.—13. *Jahrhunderts.* Bände I-V und Beihäfte. Stuttgart 1929-1930.

وقد جمع فيه كل الخرائط التى توجد فى كتب الجغرافية الاسلامية ورتبها مع شرح يسير ، وكلا الترتيب والشرح لا يخلوان من أخطاء .

وقد جعل ملر لفظ أطلس مرادفاً للفظ « صورة » الذى يستعمله الجغرافيون المسلمون فى مقابل ما نسميه نحن اليوم خريطة (انظر الاصطخرى ، ص ٣) واستعمل لفظ Mappemundi مقابلا لما يسميه المسلمون صورة الأرض . وقد ذهب ملر إلى أن أول من رسم الخرائط بين المسلمين هو أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى المتوفى سنة ٣٢٢/٩٣٤ فقد وضع فى سن متقدمة كتاباً سماه « صور الأقاليم » ورجح ملر اعتماداً على إشارة للمقدسى فى فاتحة « أحسن التقاسيم » أن هذا الكتاب كان أطلساً ، أى مجموعة من الخرائط لا يصاحبها إلا نص قصير . وقد ضاع النص ولكن فقرات منه مع معظم الخرائط نقلها الاصطخرى وابن حوقل ، وإلى هذا يرجع التشابه اللفظى تقريباً بين كثير من فقرات فاتحة هذين الكتابين ، ويتضح من هذه الفقرات أن البلخى وضع أطلساً لبلاد الاسلام بالفعل ، فقد جاء فيما نقله الاصطخرى عنه : « ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى » (ص ٣) .

وانظر ما ذكره كرامرز عن « أطلس الاسلام » فى مادة جغرافية . ملحق دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) ص ٧٠ ، والمراجع الوافية المعطاة فى آخر هذه المادة (ص ٦٨) ونشير بصفة خاصة إلى كتاب :

Ahmet Zeki Walidi, *Der Islam und die geographische Wissenschaft. Geographische Zeitschrift*, 1934.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ — أوصاف الفينيقيين واليونان والرومان لشبه الجزيرة[١]

وقد كتب اليونان والرومان عن شبه الجزيرة كثيراً ، ولا يعنينا هنا مما كتبوه إلا ما يتصل بالنقط التى أفاد المسلمون منهم فيها ، أى ما يتصل بهيئة شبه الجزيرة ومسافاتها . أما ما ورد عند أولئك المؤلفين من إشارات إلى المدن والأعلام الجغرافية فسنذكر ما نمس إليه الحاجة منه فى تعليقاتنا على نص جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية لأحمد بن محمد الرازى التى نرجو أن يتسع المجال لنشرها بعد الفراغ من هذا البحث .

يصف معظم كتاب اليونان والرومان إيبيريا بأنها شبه جزيرة Χερσόνησος أو شبه جزيرة تتسع كلما سرنا نحو الجنوب ακρα أو ακτή كما نجد عند إراتوسثينيس ، واكتفى بلينيوس بالقول بأنها رأس كبير بارز من أوربا يربطه بها خليج ضيق Sinus Europae ، وأن هذا الرأس يبرز بين خليجى بسكاية وجنوا . وقد أخذ بهذا الرأي الأخير باولوس أوروزيوس الذي كتب أيام القوط ولكنه يسمى خليج اوروبا Sinus Aquitanicus .

ويسمى استرابون الجزء الضيق الذى يصل شبه الجزيرة بالقارة الأوروبية — وهو الذى تقطعه جبال البرت من طرف لطرف — بالبرزخ ισθμός ، ويصفه مارسيانوس بأنه عنق αὐχήν . وهذا الوصف يقوم على ما كانوا يتصورونه من أن شبه الجزيرة إنما هو بمثابة الرأس لبدن القارة الأوروبية .

وقد صور بعض هؤلاء القدماء شبه الجزيرة على أنه مربع أى يستوى طوله مع عرضه ، وقدروا أن طوله وعرضه ٨٥٠ كيلومتراً . وتصوره بعضهم الآخر على أنه معيَّن مقلوب ، ضلعه الأصغر فى الجنوب ، وجعلوا الضلع الأعلى

---

(١) اعتمدت فى هذا الفصل على :

Adolf Schulten, *Iberische Landeskunde Geographie des Antiken Spanien*. Band I (Strasbourg / Kehl, 1955). SS. 12 sqq.

(الكبير) يمتد من رأس أورتجال[١] إلى رأس بيار[٢] ، أما الضلع الأسفل — الأصغر — فيمتد من رأس سان فيثنتى[٣] إلى رأس غاطة[٤] . ومنهم من جعلها فى هيئة المخمس .

وذهب افينوس Avienus ثم بطليموس إلى أن الساحل الشرق لاسبانيا ينتهى عند رأس غاطة هذا ، أى إلى الشمال قليلا من المرية ، ومن هذا الموضع يتجه الساحل من الشرق إلى الغرب حتى رأس جبل طارق الذى قالا إن عنده أعمدة هرقل . ولكن نفراً من القدماء قالوا إن الساحل الشرق يصل إلى أعمدة هرقل ، وهى عندهم موضع التقاء البحر الأبيض بالمحيط . وقالوا أن هذه الأعمدة تقع فى منتصف المسافة للراحل بالبحر من رأس بيار إلى رأس أورتيجال ، وجعلوا هذه المسافة ٦٠٠٠ استاديوم[٥] .

وجاء فى وصف الرحلة التى قام بها رجل يسمى مَسَّاليوس واحتفظ أفيينوس Avienus بقطع منه أن طول ساحل إيبيريا على البحر الأبيض (من رأس بيار إلى أعمدة هرقل) ٧٠٠٠ استاديوم ، تُقطع فى سبعة أيام بلياليها . وهذا التقدير أقل من التقدير السابق بألف استاديوم . وجعل ساحل المحيط (من

---

(١) رأس أورتجال هو الطرف الأخير للساحل الشمالى المطل على خليج بسكاية وهو غير رأس فنستر Cabo Finisterre (نهاية الأرض ، الذى قال العرب أن عنده الصنم المشبه بصنم قادس ، وهو عندهم الركن الثالث من أركان الجزيرة) وسماه أبو عبيد البكرى صنم جليقية (نفح ١/١٢٥) .

(٢) يقابل على وجه التقريب رأس باخور Cabo Bajur والعرب يجعلون بدلا من ذلك موضعاً يسمونه هيكل الزهرة وهو يقابل Port-Vendres الذى كان يعرف فى القديم باسم Portus Veneris .

انظر الروض المعطار ، ص ٢ ، وترجمة ليفى بروفنسال ص ٥ وهامش ص رقم ١

وتقويم البلدان لأبى الفدا ، طبعة م. رينو ودى سلين ، باريس ١٨٤٠ ص ١٨٢

(٣) يعرف عند العرب برأس كنيسة الغراب . وعند الرازى : هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالأندلس . نفح ١/١٢٨

(٤) لم يشر العرب إلى هذا الركن الرابع ، لأنهم أخذوا بالرأى القائل بأن شبه الجزيرة مثلث كما سيجىء .

(٥) الاستاديوم Stadium مقياس رومانى للمسافات . والكيلومتر يساوى ٥,٤٣٢ استاديوم .

رأس أورتجال إلى الأعمدة) ٥٠٠٠ استاديوم . وجعل صاحب هذه الرحلة طول جبال البرت من شاطىء بسكاية إلى البحر الأبيض مسيرة سبعة أيام ، أى ٣٥٠ كيلومتراً [١] .

وحوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد قام ملاح يسمى بيثياس Pytheas برحلة على طول سواحل اسبانيا وصل فيها إلى الشاطىء الجنوبى لخليج بسكاية ، واستبان أن إيبريا فى الحقيقة شبه جزيرة لا تفصلها عن بقية أوروبا إلا جبال البرت ، وأن هذه الجبال تسير من الشرق إلى الغرب فى امتداد ساحل بسكاية ، وأن الإنسان يستطيع السير على الأرض من رأس أورتجال إلى رأس بيار . وقال إن طول الساحل الشرقى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ٦٠٠٠ استاديوم . ولكنه قال إن الساحل الجنوبى يصل إلى رأس روكا Cabo Roca أى إلى موضع الاشبونة الحالية . وجعل المسافة من أعمدة هرقل إلى رأس روكا ٣٠٠٠ استاديوم ، ومن رأس روكا إلى رأس أورتجال ٣٠٠٠ أخرى . وتابعه فى ذلك كله إيراثوستنيس، غير أنه قسم المسافة من أعمدة هرقل حتى رأس روكا إلى قسمين : من الأعمدة إلى قادش Gades ٥٠٠ استاديوم ، ومن قادش إلى رأس روكا ٢٥٠٠

وابتداء من بوليبيوس يختفى هذا التصور السليم لشبه الجزيرة ومسافاتها الذى أقامه اليونان على تجارب الرحالة والحساب الهندسى . وبدلا من ذلك نجد صورة غريبة لشبه الجزيرة أهم معالمها ما يلى :

١ — أن الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة يسير فى خط مستقيم من الشرق إلى الغرب ، أى أنه يصبح الشاطىء الشمالى ، وتختفى بهذا الحقائق السليمة الخاصة بخليج بسكاية وسواحله حتى الشاطىء الجنوبى لشبه جزيرة بريتانى .

---

(١) قدر ابن سعيد هذه المسافة بأربعين ميلا . نفح ١/١٢٧

٢ — أن جبال البُرت تسير من الشمال إلى الجنوب . وعلى هذا فهى تتعامد مع الساحل الشمالى فى رأى بوليبيوس ومن تابعه (الشمالى والغربى فى الحقيقة) .

٣ — وهو يسمى جبال البرت الناحية الشرقية لشبه الجزيرة ويجعل طولها ٣٠٠٠ استاديوم .

٤ — أما الساحل الشرقى (رأس بيار — أعمدة هرقل) فقد اعتبره ساحلا جنوبياً . جعل طوله ٩٥٠٠ استاديوم .

٥ — والساحل الشمالى يلتقى مع الساحل الجنوبى عند أعمدة هرقل . أى أن شبه الجزيرة أصبح فى هيئة المثلث الطويل الممتد برأسه ناحية الغرب .

وعن بوليبيوس أخذ هذا التصور من جاء بعده مثل ابيانوس Appianus وأرتيميدور Artimidor وفارو Varro وإن اختلفوا فى موضع رأس المثلث ، فبعضهم قال إنه رأس سان فينتى (ابيانوس وأرتيميدور) ، وبعضهم الآخر قال إنه رأس روكا (فارو) . وهذا الأخير يسمى رأس روكا البروز الأعظم Promentium Magnum ، وقال إن جزء الساحل الممتد من رأس روكا إلى قادش هو جبهة اسبانيا Frons Hispaniae . وجعل طول الساحل الشمالى ١٢٥٠ ميلا ، وطول الساحل الجنوبى ١١٨٢ ميلا . ومعلوماته عن سواحل اسبانيا تقف عند رأس روكا .

وعن بوليبيوس أيضاً أخذ اسطرابون هذه الصورة لشبه الجزيرة مع تعديل واضح يبدو أنه أخذه عن بوزايدينيوس : جعل الساحلين الشرقى والجنوبى لشبه الجزيرة ساحلا واحداً يمتد من الشرق إلى الغرب ، أى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ، ومن هناك يطلع إلى الشمال ما يسميه بالساحل الغربى . أما الساحل الشمالى فيجعله أقصر من الجنوبى . أى أن شبه الجزيرة عنده مستطيل ممتد إلى الغرب فى البحر قاعدته إلى الجنوب ، وضلعه الشرقى (جبال البرت) أقصر من ضلعه الغربى المطل على المحيط .

والصورة التى يرسمها ميلا Mela لشبه الجزيرة أصح من صورة اسطرابون فهو يذكر خليج بسكاية وشبه جزيرة بريتانيْ ، ويبدو أنه أخذ ذلك عن بوزايدنيوس الذى اعتمد على فارو ، ولكنه يتمسك بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب . والساحل الغربى يسير موازياً له ، ولكنه لا يبدأ عند أعمدة هرقل أو رأس سان فيْنتى وإنما عند رأس الطرف الأغر . وهو يسمى الزاوية الشمالية الغربية برأس الكلت Promontium Celticum .

وتصور بطليموس شبه الجزيرة فى هيئة مربع يكاد يكون ضلعاه الشمالى والغربى على استقامة واحدة ، رؤوسه الأربعة رأس بيار ورأس غاطة ورأس سان فيْنتى ورأس ناريجه Nariga (بدلا من رأس أورتجال) ، وهيئته العامة نتيجة لذلك أقرب إلى المثلث ، وهو يجعل جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب ، أى أن بطليموس عاد إلى التصور السليم الذى رأيناه عند بيثياسْ وايراتُسثينس ، وإن كان الذين أتوا بعده فهموا كلامه على أنه تصوير لشبه الجزيرة فى هيئة المثلث .

٤ — كتب هروشيش

ثم نصل إلى أوروزيوس Horosius الذى عرف العرب كتاباته وأخذوا عنه وسموه باسمه هُروشْيُشْ[1] ، وكان راهباً شاهد دخول قبائل السُّويف اسبانيا واستقرارهم فى غربها ، ثم فر خوفا منهم إلى افريقية سنة ٤١٥ ميلادية ، وهناك لقى القديس أوغسطين ، فنصحه هذا بالذهاب إلى بيت المقدس ، حيث اشترك فى النزاع المذهبى الذى كان يفرق أهل الكنيسة المسيحية شيعاً ، وقد أخذ جانب القديس جيروم الكاتب المسيحى الأشهر . وفى بيت المقدس أخذ يكتب بادئا برسالته المسماة كتاب المديح Apologeticus Contra Pelagium فى نقض مذهب

(١) يسمى عادة باولوس أوروزيوس ، ولكن الحقيقة أننا لا نعرف اسمه . أما باولوس فقد وضعه بعض العلماء تفسيراً لحرف .P الذى كان يسبق اسم أوروزيوس ، والمراد به فى الحقيقة Presbiter وهى مرتبة من مراتب القسس ، ولقد عربه الأندلسيون إلى برشبتر .

بِلاَجْيُوس ، فحنق عليه القساوسة واضطر إلى الانزواء خوفا منهم . ثم عاد إلى اسبانيا . ويبدو أنه مر بافريقية ولقى أوغسطين مرة أخرى ، وكان هذا قد فرغ من كتابه « مدينة الله » ، وقرأه هروشيش وأعجب بما قاله من أن ما أصاب الامبراطورية الرومانية من التفكك والاضطراب إنما هو عقاب من الله سبق أن أنزل مثله بأمم سابقة انحرفت عن الطريق السوى ، وقرر أن يكتب كتابا يتوسع فيه فى هذا الرأى ويفصله تفصيلا . فكتب كتابه الذى يعرف عادة باسم تواريخ أوروزيوس وعنوانه الكامل :

«Adversus Paganos Historiarum Libri Septem»

أى « كتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين » وهو ذيل على « مدينة الله » ، وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بالتاريخ . وهو تاريخ للدنيا منذ آدم إلى سنة ٤١٦ ميلادية ، ألفه فى سنة ونصف معتمداً على « مدونة أُوزِيب » وكتابات تيتوس ليفيوس ويوليوس قيصر وتاسِيتُوس ويُوسْتِينُوس وغيرهم . واعتمد بعد ذلك على نفسه فيما يتصل بأحداث أيامه وما سبقها بقليل .

وقد لقى كتاب هروشيش إقبالا شديداً ، وأثنى عليه معاصروه ثناء عظيما ، وأصبح معتمد الناس فيما بعد فيما يكتبون عن تاريخ العصور القديمة ، وبلغ من ذيوعه أن عدد مخطوطاته الباقية إلى اليوم يزيد على مائتين ، منها ما كتب فى القرنين السادس والسابع . وفى العصور الحديثة طُبع أصله اللاتينى أو مترجماً إلى اللغات الأوروبية مرات كثيرة . وهو يعتبر أول تاريخ عالمى كتب من وجهة النظر المسيحية ، وهو يشيد فيه بجامعة الثقافة الرومانية والعقيدة المسيحية التى تضم المسيحيين جميعا ، وهو يتابع القديس أوغسطين فى القول بأن عظمة روما إنما قامت على تعاسة بقية بلاد الدنيا ، ويفخر بأن اسبانيا قاومت الرومان مائتى سنة[١] .

---

(١) Juán Hurtado, J. de la Serna y González Palencia. *Historia de la Literatura Española* (6ª edición, Madrid 1949), p. 14.
Justo Pérez de Urbel. *Las Letras en la Epoca Visigoda en Historia de España;* dirigida por Ramón Menendez Pidal, vol. III *España Visigoda*, pp. 382—387.

لا غرابة والحالة هذه أن يجد العرب عند دخولهم ذكر هذا الرجل وكتابه على كل لسان ، وأن يطلع الكثيرون منهم على ما فيه عن طريق بعض نصارى الأندلس الذين استعربوا أو دخلوا فى الإسلام ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية ، أو يستطيعون على الأقل أن ينقلوا إلى إخوانهم جُملا من كلام هذا المؤرخ الكبير . وإذا كان كتّاب المسلمين لم يجدوا شيئا ينقلونه عنه فيما يتصل بتاريخ الشرق القديم ، فقد كانت لديهم أصول شرقية عربية أخرى ينقلون عنها فى هذه الناحية ، فإنه لم يكن لهم مفر عن الأخذ عنه فيما يتعلق بتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ اسبانيا . ومن هنا فقد أخذوا عنه معلومات طيبة عن تاريخ الرومان وتلك اللمحات القليلة الاسطورية الطابع التى تجدها عندهم عن الأمم التى حكمت اسبانيا قبل الإسلام ، وعن آراء الأقدمين فى صفة شبة الجزيرة ثم ما أضافه هو نفسه إلى هذه الآراء .

ويعنينا هنا كلامه عن جغرافية الجزيرة ، فقد قال إن هيئتها ذات ثلاثة أركان ، أحدها فى الشرق عند بيار والثانى عند بِرْغَنْسِيه (بريجانتيوم Brigantium) فيما يعرف اليوم بكورونيا ، والثالث فى الجنوب عند قادش . وقال إن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب تقريبا ، أى أننا نجد عنده نفس الخلط بين الصحيح وغير الصحيح الذى وجدناه عند اسطرابون وبطليموس[1] .

وقد أخذ الجغرافيون الأندلسيون عن هروشيش هذه الآراء المتصلة بهيئة شبه الجزيرة وثبتوا عليها ، ثم أضافوا ما تجمع لهم من مادة جغرافية سليمة دقيقة مبنية على الخبرة والرحلة والمشاهدة . ونجد هروشيش مذكوراً باسمه فى مؤلفاتهم وخاصة عند العذرى والبكرى وابن خلدون ، وربما يكون الرازى قد أشار إليه

---

(١) اعتمدت فى هذا العرض على ما أورده شولتن فى كتاب :

Adolf Shulten, *Iberische Landeskunde. Geographie des Antiken Spanien* (Band I, Strasbourg—Kehl 1955) SS. 1-21.

وهذا الكتاب يورد بالكل تفصيل ما أجمله اليمانى بولوفر فى بحثه المعروف :

Alemany Bolufer, J., *La Geografía de la Península Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos.* Separata de la Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Madrid, 1911.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أن جغرافيته التى استطعنا جمع أشتاتها من مختلف الأصول إنما هى مختصر لكتابه المطول . ولم يعن الجغرافيون والمؤرخون المسلمون بتصحيح هذه الآراء ، لأنهم كانوا يجعلونها فى مقدمات كلامهم عن صفة الجزيرة على اعتبار أنها معلومات عامة غير داخلة فى صلب الجغرافية . والسبب فى ذلك أنهم ألفوا فيها على مذهب البلدانيين والمسالكيين ، تعنيهم البلاد وأوصافها والأقاليم وما فيها والمسافات وأطوالها . وفى هذا المجال كانوا فى غنى عن النقل عن غيرهم ، فقد كانوا أهل البلاد يعيشون فيها ويذرعونها طولا وعرضا .

وجدير بالملاحظة أن الهيئة المثلثة البطليموسية لشبه الجزيرة كانت توافق تصورهم العام لشبه الجزيرة ، وتؤيدها تجارب الملاحين الذين كانوا يتنقلون بسفنهم بين موانى شبه الجزيرة وما يقابلها من موانى المغرب . وسنلاحظ عند كلامنا عن جغرافية البكرى كيف أن أولئك الملاحين كانوا يعتقدون أن موانى المغرب (حتى بجاية) تقابل موانى شرق اسبانيا (حتى طركونة) ، ومن هنا تأكد لديهم صدق النظرية البطليموسية فى توازى الساحلين ، ونتيجة لهذا ثبتوا على القول بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب .

٥ — التراث الجغرافى للأندلس

لا نستطيع أن نكتب تاريخاً لعلم الجغرافية عند الأندلسيين إلا معتمدين على تجميع مُجْهِدٍ لما نُقِلَ من المؤلفات الأولى فى المراجع التى وصلت إلينا ، لأن الذى وصل إلينا كاملا من مؤلفاتهم فى هذا الباب جزء ضئيل . وقد يدهش القارىء إذا قلنا إننا لا نملك — باستثناء الإدريسى — كتاباً واحداً كاملا ألفه أندلسى فى جغرافية الأندلس فى لغته العربية . فأما جغرافية الرازى فليس لدينا من نصوصها الكاملة إلا ترجمات مقتضبة محرفة إلى البرتغالية والاسبانية ومختصرات عربية لها وصلتنا قطعاً متناثرة فى ثنايا الكتب ، وسنحاول

إثبات هذا النص اعتماداً على هذه المختصرات والنقول على قدر ما يتسع المجال.
أما كتبه الأخرى فإما اختفت كاملة أو بقيت لنا منها شذرات قليلة، وكتاب « الجغرافية » لمحمد بن أبي بكر الزّهري لا نملك منه إلا قطعة صغيرة نظن أنها جزء من مختصر من الكتاب الأصلي ، وكتاب « نظام المرجان » لأبي عمر أحمد بن يوسف العذري الدلائي لم نجد منه إلا قطعا أعدها للنشر ضمن مطبوعات هذا المعهد الدكتور عبد العزيز لاهواني، ومؤلفات محمد بن يوسف الوراق اختفت هي الأخرى إلا من نقول وردت متفرقة في أصول شتى، وليس لدينا من صفة الأندلس لأبي عبيد البكري إلا أوراق قليلة، وما لدينا من كتابي اليسع ابن موسى بن عبد الله بن اليسع وأبي بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بالنظام لا يعدو فقرات قليلة في «نفح» المقرى، أما كتاب الروض المعطار فمعجم جمعه صاحبه محمد بن عبد المنعم الحميري في الزمن المتأخر، وهو لا يعتبر كتاب جغرافية أو بلدان من الطراز الذي ننشده، والكتاب الوحيد الذي لدينا في وصف الأندلس هو القسم الخاص بهذا البلد من جغرافية الادريسي وسنتحدث عنها في موضعها.

وهذا هو كل ما لدينا من الانتاج الجغرافي الغزير لأهل الأندلس ، وهو انتاج لا يقتصر على جغرافية الأندلس بل كان الكثير منه كتباً واسعة فى الجغرافية العامة ، وسنرى بعد قليل أن « نزهة المشتاق » للادريسي إن هو إلا تتويج لجهود كثيرة سابقة وتجميع طيب لمادة غزيرة قامت على تقليد أندلسي عريق فى التأليف الجغرافي . وليس ذلك بغريب فقد كان الأندلسي بطبعه رحالة طلعة ذكياً يحب أن يرى بنفسه ويختبر بمشاهدته ، وسنرى شواهد ذلك كله عندما نتحدث عن جغرافييهم واحدا واحدا .

ولا شك أن الأندلسيين كتبوا الكثير فى وصف بلدهم ، فعلاوة على الكتب التى ذكرناها ، لابد أن نحسب كتب التاريخ أيضا ، ما وجدناه منها وما لم نجده بعد ، لأن التاريخ لم ينفصل عن الجغرافية فى المفهوم الاسلامى إلا نادرا كما قلنا ، وفى الأندلس بالذات لا نجد جغرافيا إلا وجدناه مؤرخا فى

نفس الوقت ، والرازى الذى سنرى أنه أبو الجغرافية الأندلسية هو أبو التاريخ الأندلسى أيضا .

وإذا نحن تركنا جانبا كتب التاريخ الأندلسى العام[١] أو التى كتبت فى تاريخ عصر بعينه أو دولة أو ناحية معينتين ، وجدنا أمامنا حشداً من المؤلفات عن تاريخ شتى نواحى الأندلس وبلادها أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء فيها ، وهذه الكتب تبدأ دائماً بفصول طويلة عن جغرافية هذه النواحى كما نرى فى الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومن هنا فنحن حريون بأن نعد هذه الكتب فى الحصاد الوافر الذى كتبه أهل الأندلس فى هذا الباب ، وفيما يلى بعض أسامى هذه الكتب ومؤلفيها نذكرها على سبيل المثال لا الحصر :

قاسم بن سعدان (ت ٣٤٧/٩٥٨) تاريخ فقهاء ريه .

عمر بن عبيد الله بن يوسف الزهراوى (٣٧٠—٤٥٤/٩٨١—١٠٦٢) : تاريخ قرطبة .

مطرف بن عيسى الغسانى (ت ٣٧٧/٩٨٧) : المعارف فى أخبار كورة إلْبيرة وأهلها وفوائدها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها .

أبو الأصبغ عيسى بن محمد (ت ٤٠٣/١٠١٢) : تاريخ فقهاء إلبيرة .

اسحاق بن سَلَمة الليتى (عاش أيام الحكم المستنصر) : أخبار رَيُّه وحصونها وولاتها وفقهائها وشعرائها . وكتاب أخبار الأندلس .

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، والنصف الأول من القرن السادس الهجرى/الثانى

---

(١) لدينا على الأقل أسماء ستة ألف كل منهم تاريخا عاما للاندلس وهم : احمد بن موسى العروى وأحمد الحجام وابن الحكيم الرندى وعيسى ابن أحمد الرازى وأبو الوليد الفرضى ومحمد بن مزين .

عشر الميلادى) : مغناطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار .

احمد بن عبد الرحمن بن المطاهر الأنصارى (ت ٤٨٩/١٠٩٥) : تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها .

محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرّج الملاحى (٥٤٩—٦١٩/١١٥٤ —١٢٢٢) : تاريخ علماء إلبيرة وكتاب انساب الأمم والعرب والعجم المسمى بالشجرة .

ابن المواعينى ، محمد بن ابراهيم بن خَيره (ت ٥٦٤/١١٦٨) : تاريخ غرناطة .

أبو المطرف بن احمد بن عبد الله بن عميرة (٥٨٠ أو ٥٨٢—٦٤٨ أو ٦٥٦ أو ٦٥٨/١١٨٤ أو ١١٨٦—١٢٥١ أو ١٢٥٨ أو ١٢٦٠) : كتاب فى كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها .

أبو عبد الله محمد بن على بن خضر المالكى المعروف بابن عسكر (٥٨٤— ٦٣٦/١١٨٨—١٢٣٨) : تاريخ مالقة أو الاكمال والاتمام فى صلة الأعلام من أهل مالقة الكرام .

ابن حمامة (من أهل القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى) : تاريخ لوشة .

ابن الحاج البلفيقى ، أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٤/ ١٣٧٢) : تاريخ المرية وبجانة .

وغيرها كثير ، ونضيف إليها كتبا مثل « تاريخ بنى الطويل » و « كتاب فى أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس » وكلاهما نجهل مؤلفه ، ثم كتاب « تاريخ المنتزين والقائمين بالأندلس » لابن فرج الجيانى وما شاكلها ، وما ضاع من كتب الجغرافيين والمؤرخين الذين سنلم بذكرهم . وهو كثير أيضا .

والخلاصة أن الحصاد الجغرافى فى الأندلس كان وافراً غنياً ، وإننا إذ نعرض تاريخ هذا العلم فى ذلك القطر معتمدين على ما لدينا فحسب إنما نعرض جانباً صغيراً مما ألفوه . والغالب أن ما نَدَّ عنا أكثر مما أحصيناه . ولا بد أن نقرر ذلك ، فقد يظهر فى مقبل الأيام من الكتب ما يعين غيرنا على استكمال البحث بصورة أوفى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميلاد التأليف فى الجغرافية فى الأندلس

ليس لدينا ما يدل على أن أحداً من أهل الأندلس كتب فى البلدان قبل احمد بن محمد الرازى . وليس لدينا كذلك ما يفيد أن شيئا مما كتبه المشارقة فى هذا الباب دخل الأندلس فى زمن مبكر ، ونحن نجد فى فهرسة ابن خير ذكرا لطائفة من المؤلفات المبكرة فى التاريخ مثل مغازى ابن عقبة ومغازى ابن اسحاق ، ولا نستبعد لهذا أن يكون الأندلسيون قد عرفوا بعض الكتابات الجغرافية الأولى مثل كتاب « البلدان الكبير » وكتاب « البلدان الصغير » وكتاب « الأنهار » وكتاب « الأقاليم » وما إليها مما ألفه أبو عبيدة السّكونى والحسن الهمدانى وأبو الاشعث الكندى وغيرهم من أصحاب البواكير فى التأليف الجغرافى فى المشرق ، فقد كانت هذه كلها مراجع ينتفع الناس بها فى تفسير القرآن وفهم الأحاديث وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم[1] . ونقول هذا لأننا نجد أبا بكر بن خير يذكر فى فهرسته رسائل من هذا الطراز كانت تقرأ فى الأندلس مثل كتاب الأنواء وكتاب النبات وكتاب القبلة لأبى حنيفة الدينورى وكتاب المعارف وكتاب الإنواء لابن قتيبة[2] ومن الملاحظ بصفة عامة أن أصحاب كتب التراجم يهملون ذكر كتب الجغرافية والعلوم ، لأنها لم تكن فى حسابهم مؤلفات

(١) اقرأ عن هؤلاء : بهجة الاثرى : الجغرافيا عند المسلمين ، مجلة المجمع العلمي العراق ، سنة ١٩٥٢ والمراجع الواردة هناك .

(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٧٦ و ٣٧٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تؤيد مركز العالِم، ويكفى أن نذكر أن المواد التى لدينا في معاجم الترجمة الأندلسية لا تذكر شيئا عن جغرافية البكري أو مؤلفات ابن رشد الفلسفية.

وقد كتب عبد الملك بن حبيب فى كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ ابن حبيب شيئاً فى الجغرافية ، ولكن كتابته فى هذا الفن تدخل فى باب « العجائب » الذى سيكثر فيه نفر من الجغرافيين ، وواضح من كتابته أنه أخذ ما كتبه فى هذا الباب عن المشرقيين والمصريين منهم خاصة ، ومن الغريب أنه وهو أندلسى يكتب عن بلده يصوره وكأنه مجمع أعاجيب وغرائب لا تصدق[1] .

وقد أثبت الدكتور مكى فى دراسته عن « مصر وأصول التاريخ فى الأندلس » أن القسم الطويل الذى يدور حول حياة موسى بن نصير من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة مأخوذ من تأليف لمصرى أندلسى الأصل هو معارك بن مروان حفيد موسى بن نصير ، وفى هذا الجزء إشارات جغرافية لا بأس بها وإن كانت من باب العجائب أيضاً .

١ — محمد بن موسى الرازى

ولكن أول من أثر عنه التأليف فى التاريخ مع جانب من الجغرافية هو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط الكنانى الرازى الذى يقول عنه ابن الأبار فى التكملة « والد أبى بكر أحمد بن محمد صاحب التاريخ ، غلب

---

(١) راجع عن ذلك مقال الدكتور محمود على مكى :
Egipto y los Orígines de la Historiografía Arábigo-Española.
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد . المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ص ١٥٧ وما بعدها من القسم الافرنجى . والنظر النموذج الذى نشره الدكتور مكى ذيلا على هذا المقال من كلام عبد الملك ابن حبيب ، وخاصة ابتداء من الفقرة ١٧ ص ٢٢٧ وما بعدها .

عليه اسم بلده ، وكان يفد من المشرق على ملوك بنى مروان تاجرا ، وكان مع ذلك مفتنا فى العلوم ، وهلك منصرفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بإلبيرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ (اكتوبر ٨٨٦) ذكره ابن حيان »[١] .

وقد أورد محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير مولاى اسماعيل إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا فى كتاب « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » اشارة عظيمة الفائدة عن كتاب اسمه « كتاب الرايات » ألفه محمد بن موسى الرازى ، قال : « قال محمد بن مُزَين : وجدت فى خزانة باشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مائة ، أيام الراضي بن المعتمد ، سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى سماه بكتاب الرايات ، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير ، وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب ، فَعَدَّهَا نيفا وعشرين راية ، منها رايتان لموسى بن نصير ، عقد له إحداها الأمير عبد الملك بن مروان على افريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على افريقية أيضا وما يفتحه وراءها إلى المغرب ، ورايةٌ ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه ، وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال ، وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية » ثم قال بعد ذلك : « . . . فقيل إن اجتماعهم لهذا المشهد الكريم كان فى الموضع الذى كان فيه مسجد الرايات فى الجزيرة الخضراء ، وأنه باجتماع الرايات فى ذلك اليوم سمى ، وبها سَمَّى الرازى كتابه . وقال إن موسى بن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجدا[٢] » .

---

(١) ابن الأبار ، التكملة ، ترجمة رقم ١٠٤٨ ص ٣٦٦

(٢) رحلة الوزير فى افتكاك الأسير لمحمد بن عبد الوهاب الغسانى بتحقيق الفريد البستانى (منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو) لطوان ١٩٣٩ وقد نشر هذه الفقرة جايانجوس فى ترجمته الانجليزية لفصول من نفح الطيب المعروفة باسم :

History of the Muhammedan Dynasties in Spain.

(ج ١ ص ٣١٤) وعنه أخذها بونس بويجيس ص ٤٥ — ٤٧

وفى نبذة قصيرة عن محمد بن موسى الرازى يكرر المقرى نفس المعلومات التى أوردها ابن الأبار نقلا عن المقتبس لابن حيان[١] .

وإذن فقد كان أول من دخل الأندلس من بيت الرازى تاجراً سَفَّاراً يتردد بتجارته بين المشرق والأندلس ، وكان إلى جانب ذلك ذا علم وأخبار ومعارف تؤهله لصحبة الملوك والوزراء ، فأصبح من جملة رجال الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، فصار يعهد إليه فى مهام كبيرة ، فبعثه فى الوفد الذى ذهب للتوفيق بين العرب والمولدين عندما وقعت الفتنة الكبيرة بينهم ، وقد توفى وهو عائد من هذه المهمة فى بلدة إلبيرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣/ ٨٨٦ اكتوبر أيام الأمير المنذر .

وهذه الفقرة التى أوردناها من كتاب محمد بن موسى الرازى تدل على أنه اشتغل بالتأليف ، وأن من آثاره كتاب الرايات هذا الذى نعتبره كتاب تاريخ وجغرافية فى آن واحد ، فإن ذكر القبائل التى دخلت الأندلس مع موسى « من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال وذكر سائر البيوتات ممن دخل دون راية » عظيم القيمة بالنسبة للجغرافية البشرية للأندلس ، ولا شك فى أن ابنه احمد بن محمد انتفع بهذه المعلومات فيما كتب عن جغرافية الأندلس وتاريخه . ولا شك كذلك فى أن المعلومات الطيبة التى يوردها ابن حزم فى جمهرة انساب العرب عن القبائل والبيوت العربية التى دخلت الأندلس ، وكذلك البيان الذى يورده ابن غالب فى فرحة الأنفس وأورده المقرى فى نفح الطيب عن منازل العرب فى الأندلس ، إنما يرجع الفضل فيها إلى ما دونه محمد بن موسى فى هذا الكتيب الذى ذكره محمد بن مزين .

---

(١) نفح الطيب (طبعة محي الدين) : ٤/١٠٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ — قاسم بن أصبغ البيانى وترجمة كتب هروشيش

وقبل أن نتحدث عن أحمد بن محمد الرازى لا بد أن نقف هنا وقفة قصيرة عند استاذه قاسم بن أصبغ البيانى ، فسنرى أنه صاحب فضل كبير فى توجيه الناس إلى التأليف فى التاريخ والجغرافية فى الأندلس إلى جانب دوره العظيم فى تطور علوم الدين واللغة فى الأندلس ؛ وهو من رجال جيل فريد من علماء الأندلس عاش خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى والنصف الأول من القرن الرابع ، وعاصر العصر الذهبى الأندلسى ، عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، جيل جليل نقل الأندلس بعمله وجهده وإخلاصه للعلم من دور النقل والتبعية إلى دور الإبداع واستقلال الشخصية ، بل إلى القيادة فى كثير من نواحى المعرفة . ورجال هذا الجيل هم الذين وسعوا نطاق العلم والمعرفة فى الأندلس ، فلم تقتصر عنايتهم على علوم الدين من قرآن وحديث وفقه ، بل شمل اهتمامهم الأدب والتاريخ وتراجم الرجال والجغرافية والفلسفة والطب والنبات وعلوم الأوائل أيضا . ومعظم رجال هذا الجيل من أصحاب الرحلات الطويلة إلى الشرق ، رحلات البحث والطلب والسماع على الشيوخ فى شتى نواحى العالم الاسلامى ، وانتساخ أمهات الكتب والعودة بها إلى الأندلس ونشرها بين أهله . ومن أعلام هذا الجيل محمد بن عاصم المعروف بالأقْشتين (ت ٣٠٧/٩١٩) الذى يوصف بأنه كان « متصرفا فى علم الأدب والخبر » وهو أول من ألف فى طبقات الكتاب فى الأندلس ؛ وعثمان بن ربيعة (ت ٣١٠/٩٢٢) وهو صاحب كتاب فى طبقات الشعراء فى الأندلس ؛ وأبو عبد الله محمد بن عمر بن لُبَابه (ت ٣٢٠/٩٣٢) الأديب الشاعر المحدث المؤرخ ، وهو أستاذ ابن القوطية ، وكان شيخ أهل الأدب فى عصره ؛ وأبو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الذى نقل فى « عقده » جانباً كبيراً من الثروة الأدبية المشرقية إلى الأندلس ، وقد طال عمره حتى عاصر خمسة من أمراء

الأندلس آخرهم عبد الرحمن الناصر ، وتوفى سنة ٣٢٨/٩٣٩ ؛ واحمد بن محمد ابن عبد البر (ت ٣٣٨/٩٤٩—٩٥٠) — وهو غير أبى عمر بن عبد البر — وقد ألف فى انساب العرب وفى تاريخ فقهاء الأندلس ، واعتمد عليه أبو الوليد الفرضى فى كتابه « تاريخ علماء الاندلس » المعروف وغيرهم كثيرون .

وقاسم بن أصبغ البيانى من أعلام هذا الجيل فقد ولد فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٢٤٤/٢ نوفمبر ٨٥٩ فى بلدة بيانة من أعمال قرطبة وعمّر ستا وتسعين سنة هجرية « وخمسة أشهر غير ستة أيام » كما يقول أبو الوليد الفرضى ، فكانت وفاته فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٣٤٠/٢٠ اكتوبر ٩٥١ أيام الحكم المستنصر . رحل قاسم فى شبابه رحلة طويلة إلى المشرق فسمع من أعلام العصر فى مصر والحجاز والشام والعراق ، واهتم اهتماما خاصا بالتاريخ ، فسمع من أحمد بن زهير بن حرب المعروف بابن أبى خيثمه « تاريخه » الذى ألفه فى رجال الحديث والأسانيد على غرار التاريخ الكبير للبخارى ، واتصل بعبد الله بن مسلم بن قتيبة وسمع منه كثيرا من كتبه ، ومعظمها تاريخ وجغرافية وأنساب وأدب ومعلومات شتى ، وسمع من احمد بن يحيى بن يزيد المعروف بثعلب ومن محمد بن يزيد المبرد وغيرهم من أئمة اللغة والنحو ، ولم يفته أن يسمع فى القيروان من محمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتى الشاعر « فى عدة سواهم وهم كثير ممن أذكرهم فى الكتاب الكبير الذى أؤمل جمعه على المدن واتقصاهم فيه إن شاء الله » . وانصرف قاسم بن أصبغ إلى الأندلس بعلم كثير ، ومال الناس إليه فى تاريخ احمد بن زهير بن حرب (ابن أبى خيثمه) وكتب ابن قتيبة ، وكانت الموردة عليه فى هذه الكتب دون صاحبيه محمد بن أيمن وابن أبى عبد الأعلى ، وسمع منه كثيرا من هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد (الناصر) قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولى عهده الحكم رحمه الله وأخوته ، وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ، ولحق الصغارُ الكبارَ فى الأخذ عنه . وكانت الرحلة فى الأندلس إليه ، وفى المشرق إلى أبى سعيد بن

الأعرابى ، وكانا متكافئين فى السن . وكان قاسم ابن اصبغ بصيرا بالحديث والرجال ، نبيلا فى النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور فى الأحكام[1] » .

وليس فى هذا كله إشارة إلى اشتراك قاسم بن أصبغ فى ترجمة تاريخ هروشيش ، وهو فى اعتبارنا من أهم ما أداه هذا العلامة الجليل من خدمات إلى الحركة العلمية فى الأندلس ، فإن هذه الترجمة وذيوعها بين أيدى الناس كانت نقطة البدء بالنسبة لعصر جديد من عصور التأريخ فى الأندلس من ناحية ، ونقطة البدء بالنسبة للتأليف الجغرافى من ناحية أخرى ، فإن كتاب هروشيش فى صورته العربية يبدأ بمقدمة جغرافية وافية يوجز فيها وصف المعمور على أيامه ، وقد اعتمد فيها على كثير من المؤلفات الإغريقية واللاتينية التى كانت فى متناول يده ، وهى مقدمة قصيرة بعض الشىء ولكنها دقيقة وافية بالغرض ، وفيها كلام عام عن جغرافية شبه الجزيرة الأندلسية ، وسنرى أنه مع إيجازه أصبح فيما بعد أساسا من أسس الوصف الجغرافى لشبه الجزيرة وهيأتها عند مسلمى الأندلس ، وسيرددونه جميعا من أحمد بن محمد الرازى إلى أحمد ابن محمد المقرى .

أما قصة ترجمة هروشيش إلى العربية فقصة طريفة تناولها بالبحث نفر من العلماء قدامى ومحدثين ، وقد اختصها المستشرق الإيطالى ج. ليفى دِلاّ فيدا ببحث مطول نشره فى مجلة الأندلس (مجلد ١٩ سنة ١٩٥٤ عدد ٢ ص

---

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس طبعة (كوديرا ، مدريد ١٨٩٠) رقم ١٠٦٨ ص ٢٩٧ . وانظر أيضا عن قاسم بن أصبغ : جذوة المقتبس للحميدى (طبعة محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٣) رقم ٧٦٩ ص ٣١١ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ١٢٩٨ ونفح الطيب للمقرى (طبعة محي الدين) جـ ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٢٢ وبغية الوعاة للسيوطى (القاهرة ١٣٢٦) ص ٢٧٥ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب للعماد الحنبلى (القاهرة ١٣٥٠) جـ ٢ ص ٣٧٥ وكشف الظنون لحاجى خليفة (طبعة فلوجل ، لايدن) جـ ١ ص ١٤٥٨ ويولس بويجيس رقم ١٩ ص ٥٩ وما يليها .

٢٥٧ — ٢٩٣) ، ونظراً لأهمية هذا المقال فقد رأيت أن أعرض ما يهمنا منه بخصوص هذه الترجمة مع ترجمة الفقرات الهامة وتعليقاتها[١] .

قال الاستاذ دلا فيدا انه لم يكن أول من تنبه إلى وجود مخطوطة للترجمة العربية لتاريخ هروشيش ، فقد سبقه إلى ذلك إجناس كراتشكوفسكى مع أن الشائع فى أوروبا انه هو الذى نبه إلى وجوده ، وقال انه رغب من زمن بعيد فى[٢] نشره ثم حالت الظروف دون ذلك ، قال : « إن باولوس أوروزيوس[٣] (هروشيش) « حجة العصور المسيحية » الذى قبس القديس أغسطين من لغته اللاتينية (دانتى ، الفردوس . النشيد العاشر . سطور ١١٩ — ١٢٠) غير معروف كثيرا فى أيامنا هذه إلا فى أوساط الدارسين للتاريخ والأدب القديمين » بل إن هناك باحثين معروفين فى ذلك الميدان يجهلون اسم

---

(١) النسخة الوحيدة المعروفة لنا إلى الآن من الترجمة العربية لتاريخ هروشيش محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا فى نيويورك تحت رقم X, 993.712 H. وهى مخطوطة جيدة تقع فى ١٢٩ ورقة . تنقصها بضع أوراق فى الأول إذ هى تبدأ عند جزء من الفهرس وينقصها جزء كبير فى آخرها ، لأنها تصل بالحوادث إلى سنة ٣١٣ ميلادية فى حكم قسطنطين الكبير امبراطور الدولة البيزنطية فى حين أن الأصل اللاتينى يصل إلى سنة ٤١٦ ميلادية . والمخطوطة مكتوبة بخط أندلسى واضح جميل ولكنها مصابة بقطوع كثيرة من فعل الأرضة وأوائل الكثير من الصفحات متآكل تعسر قراءته .

(٢) نشر فيليب حتى بحثا قصيرا عن مخطوطة تاريخ هروشيش فى :
Journal of the American Oriental Society, 59 (1939) p. 125.

وكتب كراتشكوفسكى بحثا عن نفس المخطوطة فى نفس المجلة مجلد ٥١ سنة ١٩٣١ ص ١٧١ — ١٧٢ ومجلد ٦٣ (سنة ١٩٤٣) ص ١٨٧ . وانظر أيضا :

Michelangelo Guidi: «*Roma e gli arabi*», in Roma, Revista di Studi e di Vita Romana, 20 (1942) 17—18.

O. A. Machado, *La Historia de los Godos según Ibn Jaldūn*, en *Cuadernos de Historia de España*, I—II (1944), 143—144.

C. Sánchez Albornóz: *San Isidiro, Rasis y «La Pseudo-Isidoriana»*, en *Cuadernos de Historia de España*, IV (1946), 73—113.

(٣) وانظر أيضا إشارة رامون منندث بيدال إلى مكانة أوروزيوس فى تاريخ الثقافة فى العصر القوطى فى مقدمة المجلد الثانى من تاريخ اسبانيا العام الذى يشرف على إصداره ، المجلد الثانى (اسبانيا الرومانية) (مدريد ١٩٣٥) ص ص ٣٤ — ٣٨ من المقدمة ، والمجلد الثالث « اسبانيا القوطية » (مدريد ١٩٤٠) ص ٣٨٢ — ٣٨٦ (هذا القسم كتبه الأب Justo Pérez de Urbel) .

هروشيش ، وأن الترجمة الانجليزية التى صدرت منذ بضع سنوات لم تنفع فى تعريف الناس به أكثر مما نفعت الترجمة الانجليزية القديمة التى أمر بعملها الفريد الكبير ملك انجلترا فى القرن التاسع الميلادى[١]، أما فى العصور الوسطى فقد كان لتاريخ أوروزيوس المعروف باسم Historiarum Libri Septem adversos Paganos (كتب التاريخ السبعة فى الرد على الوثنيين) من الشهرة ما يزيد على أى كتاب آخر فى التاريخ العام . ومع أن هدفه لم يكن رواية الأخبار الماضية وإنما التدليل على أن الله هو المحرك الدائم لحوادث التاريخ ، إلا أن كتابه كان يُقرأ ويشرح على أنه مرجع تاريخى . ثم ان قيمته العامة من هذه الناحية قليلة إلا فيما يتصل بقسمه الأخير ، لأن عصرنا لم يعد يتذوق أسلوب الطعن الذى يجرى عليه ولا تلك السذاجة اللاهوتية التى يتسم بها تلميذ القديس أوغسطين . . » .

كان من المعروف منذ زمن طويل أنه توجد ترجمة عربية لهروشيش ، وهو الوحيد من بين مؤلفى اللاتين فى العصور القديمة الذى ترجمه العرب إلى لسانهم ، وهم من نعرف اهتماماً بترجمة كتب اليونان ؛ فقد أشارت إلى هذه الترجمة تواريخ الأدب اللاتينى[٢]. وإذا لم أكن مخطئاً فإن أول من أشار إلى

---

(١) قام بترجمة تاريخ أوروزيوس من اللاتينية إلى الانجليزية I. W. Raymond ونشرت الترجمة فى نيويورك سنة ١٩٣٦ (مطبعة جامعة كولومبيا) .

(٢) يقول سيمونيت فى كتابه « تاريخ مستعربى إسبانيا » (مدريد ١٨٩٧ — ١٩٠٣) ص ٤٧ من المقدمة — دون أن يذكر المراجع التى استند إليها — إن بعض ما كتبه Colomella فى الزراعة ترجم إلى العربية ، ولم أعثر على خبر يؤكد ذلك . وبمناسبة الترجمة العربية لهروشيش أبلغنى صديقى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن لديه مخطوطة تشبهها ، وتفضل فأرسل إلى صورتها الفوتوغرافية . وأصل هذه المخطوطة محفوظ فى مكتبة جامع سيدى عقبة فى القيروان ، وبعض أوراقها اضرت به الأرضة والرطوبة ، وبعض صفحاتها ملتصق ببعضها الآخر بحيث لا يمكن فصلها إلا باستخدام الوسائل الفنية اللازمة لذلك . وفى الأوراق التى أمكن تصويرها ، وعددها ٣٢ ورقة ، نقرأ عرضاً عظيم القيمة لتاريخ الدنيا ، ومنه يتبين دون شك أن هذا التاريخ مسيحى يتناول الحوادث من أوائل أيام المسيحية حتى نهاية الفتح العربى لاسبانيا مع أخبار وحكايات كثيرة مستقاة من الانجيل أو الكتب القديمة أو الكنسية ، وهذا الكتاب يقسم التاريخ إلى سبعة عصور ، وهو تقسيم تقليدى عند المؤرخين القدامى ، وقد أتبعه ايزيدور الاشبيلى . وقد ورد ذكر هروشيش وجيرولامو فى هذه المخطوطة . =

وجود هذه الترجمة هو اسحاق سلفستر دى ساسى ، فقد نشر نصا غريبا أخذه من « عيون الانبـاء فى طبقات الأطباء » لموفق الدين أحمد بن أبى القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة من أهل القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى ، وهذا النص وارد فى ترجمة أبى داوود سليمان المعروف بابن جلجل (عاش فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) ، وقد نقله ابن أبى أصيبعة عن مقدمة كتاب « تفسير أسماء الأدوية المفردة لديسقوريديس » وهو نص طويل نوجزه فيما يلى : أن كتاب ديسقوريديس ترجم فى بغداد أيام الخليفة المتوكل على يد اصطفن بن بسيل الترجمان ، ثم راجع الترجمة وصححها حنين بن اسحاق . وقد ترجم اصطفن ما استطاع ترجمته من أسماء الأدوية وترك ما لم يعرفه على صورته اليونانية لعل أحداً ممن يأتون بعده يستطيع العثور على ما يقابله بالعربية . وقد ظلت هذه الترجمة مستعملة بالمشرق والأندلس إلى أيام عبد الرحمن النـاصر ، « فكاتبه أرمـانيوس الملك ملك قسطنطينية ، أحسب فى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم » فى جملتها كتاب ديسقوريدس « وكتاب هُروسيُس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة ، وكتب أرمانيوس فى كتابه إلى الناصر إن كتابَ ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزتَ أيها الملك

= ولا شك فى أنهـا من كتابات المستعربين . ولكننى لم استطع أن أتبين ما إذا كانت ترجمة لأصل لاتينى يمكن التعرف عليه أو جمعاً وتصنيفاً من أصول شتى ، وربما كان الفصل فى ذلك يتعدى حدود قدرتى . وقد تبينت فى بعض أوراق مخطوطـة الفروبين التى تتناول التاريخ العام فقرات من محاورات نصرانية اسلامية ، وبعض هذه الفقرات تضم المحـاورة المعروفة بين الجاثليق النسطورى طيماوس (Timoteo) والخليفة العباسى المهدى (انظر عنها كتاب G. Graf المسمى *Gesch, der christl. arab. Literatur* II, 115—118) وفقرات أخرى من محاورة بين كاثوليكى و « أعرابى » ولم استطع التعرف على حقيقتها . وهذان النصان يدلان على أنه كانت هناك علاقات أدبية بين المستعربين والكنائس المسيحية الشرقية ، ووجود هذه العلاقات ثابت من الترجمة اللاتينية لمقال الكندى فى فضل الاسلام .

بفائدة الكتاب ، أما كتاب هروسيُس ، فعندك فى بلدك من اللاطينيين من يقرأه باللسان اللاطينى ، وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللاطينى إلى اللسان العربى[١] ».

« ولم يكن امبراطور الدولة البيزنطية فى سنة ٩٤٨ أو ٩٤٩ هو رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ — ٩٤٤) أو رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٩) وانما قسطنطين السابع المعروف ببورفيروجينيتوس (٩٤٤ أو ٩٤٥—٩٥٩) الذى يذكر المؤرخون الأندلسيون بالفعل أنه أرسل سفارة إلى قرطبة فى صيف ٣٣٨/٩٤٩ وأخرى سابقة عليها سنة ٣٣٦/٩٤٧—٩٤٨ ، فقد ذكر ابن خلدون ذلك وأضاف أن خليفة قرطبة أرسل سفارة ردا على هاتين السفارتين ، ولا أهمية هنا للاختلاف الواضح فى التواريخ ، فإن للخطأ فيها أسبابا شتى[٢] » .

« ومع أنه لا يبدو أنه ليس هناك ما يدعو إلى الشك فى اهداء الامبراطور البيزنطى لكتاب ديوسقوريدس ، رغم الخلط بين رومانوس وقسطنطين السابع ، فإن الشك فى إرساله كتاب هروشيش له ما يبرره ، فإنه ليبدو لنا مستحيلا — أو بعيد الاحتمال على الأقل — أن توجد فى القسطنطينية مخطوطات لاتينية فى القرن العاشر[٣] ، وربما يكون اسم كتاب هروشيش قد أضيف إلى اسم

---

(١) انظر ابن أبى أصيبعة : كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء — الباب الثالث عشر فى أطباء افريقية والأندلس . بتحقيق نور الدين عبد القادر والحكيم هنرى جاهيه (الجزائر ١٩٥٨) ص ٣٩ — ٤٠ وانظر أيضا : مقدمة كتاب « طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل بتحقيق فؤاد السيد (القاهرة ١٩٥٥) ، وقد أفرد الأستاذ المحقق فى تلك المقدمة فصلا ضافياً عن كتاب هروشيش وترجمته إلى العربية وأورد فى أثناء هذا الفصل ملخصاً لمقال ليفى دلا فيدا الذى نحن بصدده ، انظر ص كط—لج من المقدمة .

(٢) انظر :

E. Lévi-Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, II, (Paris 1950) 143—153

ولاحظ نفس المراجع الخاصة بمخطوطات ديوسقوريدس فى ص ١٥٠ من المقال المذكور .

وانظر : César Dubler, *La Materia Médica de Dioscorides*, I (Barcelona 1953), 50—51

(٣) ربما لا يكون ذلك بعيد الاحتمال إلى هذا الحد ، انظر :

F. Dölger: *Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner*, in Zeitschrift für Kirchengeschichte. LVI (1937), 1—42

وخاصة ص ٦ — ٧ من هذا المقال وآخره .

كتاب ديوسقوريدس بسبب الخلط والاضطراب الذى أحاط بالخبر كله ، وربما يكون السبب كذلك أن ترجمة عربية لكتاب هروشيش ظهرت فى الأندلس حوالى ذلك الوقت » .

« ويعطينا ابن خلدون ، وهو المؤلف العربى الوحيد الذى انتفع انتفاعا كبيراً بكتب هروشيش فى تصنيف تاريخه المعروف[١] ، معلومات دقيقة عن ظروف هذه الترجمة ومن قاموا بها ، فقد قال فى كلامه عن حكام بنى اسرائيل بعد يوشع يذكر بعض مراجعه : « وما نقله أيضا هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجمانهم بقرطبة وقاسم ابن أصبغ . . . .[٢] » ويقول فى فصل آخر « وخبر هروشيوش مقدم ، لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الإسلام بقرطبة ، وهما معروفان ووضعا الكتاب ، فالله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك[٣] » .

« والحكم المستنصر هو ثانى خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، فقد خلف أباه عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٥٠/٩٦١ ، ولكن ترجمة كتاب هروشيش لابد أن تكون قد تمت قبل ذلك بسنوات ، أى بينما كان الحكم لا يزال وليا للعهد . وقد عمّر قاسم بن أصبغ البيانى طويلا فقد ولد فى سنة ٢٤٤/٨٥٩ ومات سنة ٣٤١/٩٥٢ وقد ذاكرته قبل موته بسنوات (فى سنة ٣٣٧/٩٤٨ — ٩٤٩) بسبب كبر السن ، ومن هنا فإننا نستبعد أن يكون قد قام بترجمة كتاب ضخم مثل تاريخ هروشيش وصل إلى الأندلس فى تلك السنة الأخيرة أو فى التى قبلها على أقل تقدير . وإذن فلا بد أن يكون قاسم قد قام بهذا العمل قبل ذلك ، ربما بسنوات كثيرة . لقد كان قاسم مؤدِّبا للحكم فى شبابه

---

(١) أشار إلى انتفاع ابن خلدون بتاريخ هروشيش : O. A. Machado فى مقاله الآنف الذكر مجلد ١ و ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر . طبعة بولاق ، ج ٢ ص ٨٨

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١٩٧

(عندما تولى الحكم الخلافة بعد حياة أبيه الطويلة كانت السن قد تقدمت به) ومن الممكن أن يكون قيامه بالترجمة أيام كان مؤدبا للحكم . والآن نسأل : من كان « قاضى أو مترجم النصارى » الذى اشترك فى العمل مع قاسم ؟ لا نستطيع أن نقطع برأى فى ذلك ، وعلى أى حال فإننا نستبعد أن يكون مسلما كما قال ابن خلدون ، فإن وظيفة قاضى النصارى التى يرد ذكرها مراراً فى المراجع الأندلسية كان يتولاها نصرانى ، بل يبدو لى أنه كان من رجال الدين[1] . وقد كان سيمونيت هو آخر من توفر على دراسة هذا الموضوع . وقد ذكر اثنين من قضاة النصارى يحتمل أن يكون أحدهما قد قام بذلك العمل وهما حفص بن ألبر (أو ألفارو) والوليد بن خيزران الذى كان يسمى أيضا ابن مغيث ، والثانى منهما كان معاصراً للحكم المستنصر ، ومن الممكن أن يكون هو الذى اشترك مع قاسم فى ذلك العمل » .

« والغالب أن التعاون بين الاثنين جرى على أن يقوم النصرانى بنقل مضمون النص إلى صاحبه ، وذلك بحسب معرفته باللاتينية والروايات التاريخية القديمة ، مهما كانت هذه المعرفة ، ويتولى قاسم صياغة ذلك فى قالب عربى مضفيا عليه بلاغة تسيغه لقراء العربية . ونلاحظ آثاراً واضحة لعمل كل منهما فى مخطوطة جامعة كولومبيا . ولا شك أن المخطوط اللاتينى الذى ترجمه الاثنان كان من أصل اسبانى ، وذلك يبدو واضحا من الطابع الخاص الذى تبدو به هذه الترجمة العربية إذا راجعناها على أصول لاتينية أخرى » .

« ولم يشك فى أصالة الترجمة العربية لتاريخ هروشيوش أحد من العلماء القلائل الذين تتبعوا آثارها فى الكتب العربية المختلفة ، ولو أن بعض الفقرات

---

(١) Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 111—112, 171, 622
وانظر أيضا : E. Lévi Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, III (Paris 1953), 219 .

التى وردت فى تلك الكتب لا توجد فى الأصل الذى لدينا[١]، مما جعل دى سلان يقول إن ترجمة هروشيش مختلقة أو مزعومة[٢]، وذهب اشتاينشنايدر إلى أن ترجمة عربية لهروشيش لا وجود لها إلا فى رأى بعض العلماء[٣]، وبعد ذلك بقليل قرر وليام مارسيه بما عُرف عنه من ملكة النقد الدقيق أن المعلومات التى يوردها ابن خلدون عن تاريخ الرومان قبل الامبراطورية لا بد أن يكون مرجعها الأخير تاريخ هروشيش ، ولو أنه وقع فى أخطاء كثيرة عند النقل[٤]» .

إلى هنا ينتهى ما نقلناه من كلام ليفى دلا فيدا بهذا الصدد[٥] .

وإذن فقد تداول أهل العلم فى الأندلس خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى كتاباً عاماً فى الجغرافية والتاريخ يقدم إليهم جانباً طيباً من المعلومات الصحيحة إلى حد ما عن وصف المعمور وتاريخ العصور القديمة ، وهو كتاب مصوغ فى لغة أدبية جيدة تغرى القارىء بالمطالعة وتفتح أذهان المتطلعين إلى الجغرافية والتاريخ على آفاق جديدة من العلم والمعرفة وتبعث من يريد منهم على الاتجاه بملكاته إلى هذه الناحية . ومن الواضح أن أثر هذه الترجمة فى هذا الميدان كان مباشراً ، فمن بين تلاميذ قاسم بن أصبغ ظهر أول مؤرخ جغرافى أندلسى وهو أحمد بن محمد الرازى ، وقد كتب كتابه على غرار

---

(١) لم يعن بعد سلفستر دى ساسى بتتبع آثار ترجمة هروشيش فى الكتابات العربية إلا جوستاف فلوجل فى المقال الذى نشره فى *Allgemeine Encyclopidie der Wissenschaften und Künste* التى قام بتحريرها Ersch und Gruber ، القسم الثالث ، الجزء الخامس (١٨٣٤) ص ٥١٤ ، فقد أضاف إلى المادة التى جمعها سلفستر دى ساسى عبارة وردت فى كشف الظنون لحاجى خليفة (طبعة أوروبا ج ٥ ص ١٧١ — ١٧٢ تعليق رقم ١٠٦٢) ، وإشارة أخرى وردت فى فهرست ابن النديم ، ص ٢٥٥ يعتقد فلوجل أن المراد بها هروشيش .

(٢) انظر ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ٤٧٤ وج ٣ ص ٢٤١ وكذلك مجموع مختاراته المسمى *Notices et Extraits des Manuscrits Arabes* المختارتان رقم ١٩ و ٢١

(٣) Steinschneider, *Die arabische Uebersetzungen aus dem Griechischen*, in *Beibefte zum Centralblatt für Bibliothekswesen*, V (1890), 18—19

(٤) أنظر Revue critique d'historie et de littérature, N. S. 96 (1929), 262

(٥) G. Lévi Della vida, *Ta Iraduzione Arabe della Storie di Orosio*. Al Andalus, vol. XIX, fasc. 2, pp. 257—265

كتاب هروشيش : مقدمة جغرافية وافية يليها التاريخ ، وأخذ عن هروشيش الوصف العام لشبه الجزيرة والتصور البطليموسى لهيئتهـا ووصفها . وعلى هذا الأسلوب مضى من أتى بعد الرازى من مؤرخى الأندلس وجغرافييه ، فقد حرص كل مؤرخيه على أن يقدموا لمؤلفاتهم بمقدمات جغرافية ، وأما الجغرافيون منهم فقد ضمنوا أوصافهم للبلاد ما حضرهم من وقائع التاريخ كما نرى عند العذرى والبكرى . ومن الجدير بالملاحظة أننا لا نجد كتاباً فى التاريخ فى الأندلس لا نستطيع أن نعده أيضاً كتاب جغرافية .

ويرجع هذا فى المكان الأول إلى الصورة التى ظهر بها تاريخ هروشيش فى ترجمته العربية ، ويرجع فى المحل التالى إلى أسلوب قاسم بن أصبغ ، فهو أسلوب سليم قوى بليغ فى معظم أجزائه وإلى مكانة قاسم نفسه ، فقد كان اشتراكه فى ترجمة هذا الكتاب إعزازاً للجغرافية والتاريخ وأشعاراً للناس بأنهما من العلوم الجديرة بعناية أهل العلم وطالبيه .

ولا شك فى أن قاسم بن أصبغ بذل جهداً عظيما فى صياغة هذه الترجمة ، فإن النص حافل بالأعلام الجغرافية والتاريخية التى كانت تعتبر جديدة على العرب إذ ذاك . ومع أن نص هروشيش جامد جاف يسرد أسماء المواضع وحدودها على طريقة بطليموس ، ويورد وقائع الحروب متوالية لا يربط بينها إلا منهجه الخاص فى تفسير التاريخ ، إلا أن قاسماً عرف كيف يعرِّب الأعلام الجغرافية والتاريخية أو يرسمها على نحو بالغ الدقة يذكرنا بأسلوب رفاعة رافع الطهطاوى ومدرسة المترجمين التى عملت معه فى القاهرة منذ قرن ونيف ، وما أشبه الأمس بأول أمس ! وواضح أن الوليد بن خيزران وقاسم بن أصبغ اجتهدا فى أن تكون الترجمة مطابقة للأصل على قدر الإمكان ، حتى فاتحة الكتاب التى يخاطب هروشيش فيها أُغَشتينَ (القديس أوغسطين) والتى يشبه نفسه فيها بالكلب الأمين الذى يتبع « أربابه » عن حب غريزى لهم مُرَكَّب فى طبعه ، حتى هذه يوردها فى صورة هى أقرب ما تكون إلى صورتها اللاتينية ، مع مجافاة هذا التشبيه للذوق العربى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويعنينا هنا القسم الجغرافى ، وهو صغير ولكنه دقيق . هذا القسم هو الباب الثانى من الجزء الأول من الكتاب ويبدأ بقوله : « قسم العلماء الماضون دَوْرَ الأرض المحدق عليه البحر المحيط على ثلاثة أقسام : قسم يسمى أشه أشيَه ، وهو سهم سام بن نوح ، وقسم يسمى أورُبّا ، وهو سهم يافث بن نوح ، وقسم سُمِّى إفريقية ، وهو سهم حام بن نوح » . وقاسم بن أصبغ لا يستعمل اسم « قارة » بل يسميها « قسما » أو « سهما » ولعل هذا هو الذى حال بين الكثيرين من جغرافيى الأندلس وبين أن يتبينوا انقسام الدنيا القديمة إلى قارات ثلاث .

والترجمة العربية لهروشيش فى هذا القسم الجغرافى مطابقة للأصل اللاتينى كلمة كلمة تقريباً ، فلم يسقط المترجمان إلا عبارات قليلة لا تؤثر فى السياق . وقد تبينت عند مقابلة الترجمة على الأصل عِظَم الجهد الذى بذله قاسم للعثور على مرادفات عربية صحيحة لمصطلحات جغرافية لاتينية كثيرة استعملها هروشيش . أما الرسم العربى للأعلام فدقيق غاية الدقة ، وقد تكلف قاسم عناء شديداً فى إيراد هذه الأعلام فى صورة هى أقرب ما تكون لرسمها اللاتينى ، كما سنتبين فى النماذج التى سنعرضها فيما يلى .

بعد كلام عام مختصر عن تقسيم العالم القديم إلى ثلاثة أقسام يبدأ الكتاب بنظرة عامة على كل قسم منها ، فيقول عن قسم أوروبا « إن ابتداءه من ناحية الجوف من النهر الذى يدعى طناي (Tanai) من مهرق ماء الجبال المنحرفة على المحيط الذى يدعى شَرْمَطِنُم (Sarmaticum) ، ثم يجاوز ذلك النهرُ متالعَ الاسكندر الأعظم ومواضع محاربة قيصر إلى تخوم الروبشكين[1] . فهناك يغمر المروج التى تدعى مَوْطِدِش (Maeotides) . وتفيض تلك المياه فيضاً

---

(١) المراد هنا « حتى نهر الروبيكون Rubicon » وهو النهر الذى كان يحدد منطقة نفوذ قيصر قبل محاربة بومبى . والنص اللاتينى الذى نراجع عليه يقول هنا : Roxonalorum Sinibus Situs أى تخوم خليج الروكسلانيين . والأصل العربى أصح هنا وهو مترجم عن مخطوطة يرد فيها اللفظ فى صورة Rhobascorum و Robascarum كما نرى فى مخالفات النص اللاتينى المنشور (راجع تعليق ١٠ ص ١١) وقول المترجمين « مواضع محاربة قيصر » يدل على أنهما كانا يعرفان المراد بهذا اللفظ .

عظيما عند مدينة طودوشية (Theodosia) . ثم يتسع موقعها فى البحر الذى يدعى أخشين (Pontus Euxinus) . وهذه المروج تمتد متضايقة نحو القسطنطينية إلى أن تتصل ببحرنا (mare Nostrum) هذا الذى نسميه المتوسط . وآخر قسم أوروبا فى الغرب بلد الأندلس (Hispania) والبحر المحيط . وأقصى ذلك عند جزيرة قادس حيث ضم هَرْكُلَش ، وحيث يكون مدخل البحر المتوسط فى البحر المحيط » وهذا مثل من أسلوب الترجمة تظهر فيه الدقة فى الأداء ورسم الأعلام وسلامة الأسلوب ، بل بلاغته .

وبعد أن يلقى هروشيش نظرة موجزة عن كل من قسمى افريقية وآسية ، يعود إلى تفصيل ما أجمل قائلا : « وسنصف سهم أوروبا بأقصى ما ندرك من وصف » . ولكنه لا يفصل الكلام ، وإنما يعرض بلاد أوروبا بلداً بلداً فى إيجاز شديد .

وقد رأيت أنه من المفيد فى هذا المجال أن آتى بنص كلامه عن أوروبا حتى نتبين قيمة المادة الجغرافية التى أتاحها عمل قاسم بن أصبغ لأهل العلم فى الأندلس[1]. وإنما اخترت أوروبا لأنها كانت إلى ذلك الحين بالنسبة لأهل الجغرافية فى شرق العالم الإسلامى وغربه أشبه بالعالم المجهول ، وستنير التفاصيل الواردة فى هذه الترجمة الطريق أمام جغرافيي الأندلس بعد ذلك . وسنرى فيما يلى من أجزاء هذا البحث كيف طوّر الجغرافيون الأندلسيون هذه المعلومات القليلة الجافة التى لا تزيد على ذكر أسماء البلاد وحدودها إلى جغرافية بشرية حقيقية ، فيها كلام عن السكان وصفاتهم وأعمالهم وصناعاتهم وزراعاتهم وعوائدهم ، وسنتبين هذا بوجه خاص فيما يتصل بالأندلس . وفرق عظيم بين كلام هروشيش وكلام الرازى عن ذلك البلد ، وكلاهما من أبنائه . فعلى حين يكتفى هروشيش بحدود البلد وبعض أقسامه ومدنه ، نجد الرازى يبدأ بمقدمة طويلة عن الجغرافية العامة لشبه الجزيرة ، ثم يتكلم عن كل ناحية من نواحيه بتفصيل واف ، ثم

(١) القطعة التى سأوردها خاصة بأوروبا توجد فى مخطوطة هروشيش من أسفل ص ١٧ إلى منتصف ص ٨ ب . ويقابلها فى الأصل اللاتينى المطبوع الذى نراجع عليه من ص ٢٢ إلى ص ٢٨

يجىء العذرى فيزيد ويفصل ويعرض نواحى الزراعة والحاصلات والرى والخراج والضرائب ، ثم يليه مَن بعده فينوعون الكلام ويوسعون أطرافه حتى نصل إلى قمم علم الجغرافية فى أوروبا فى العصور الوسطى على الاطلاق : الادريسى وابن خلدون وابن سعيد وابن الخطيب .

ومن أسف أن المخطوطة التى نعتمد عليها أفسدت بعض أجزائها الأرضة وأكل الزمن والإهمال أطراف صفحاتها ، وسنحاول أن نعوض بعض الناقص بالمقابلة على الأصل اللاتينى ، وتبقى بعض ذلك فراغات يسيرة وقلق فى بعض العبارات ، ونرجو أن تتاح لنا مخطوطة أخرى تعيننا على تدارك ما لم يسعفنا به ما بين أيدينا . وقد وضعتُ المقابل اللاتينى لكل الأعلام الجغرافية كما وردت فى النص المطبوع لكتاب هروشيش ، ولم أورد مفارقات هذا الأصل اللاتينى ، لأنها كثيرة جدا ، وانما اكتفيت منها بالصورة القريبة من الرسم العربى فى الترجمة التى بين أيدينا .

«[من جبال رفايه المجاورة لنهر طَنَاى وسهول مؤطدش][1] والتى هى فى الشرق ، وعلى [سيف][2] البحر المحيط الجوفى حتى إلى بلد [غَالِّيُشْ بليقه ونهر رُودَنُه][3] الذى هو من ناحية الغرب ، ومنها إلى نهر دنوبية Danubium الذى هو فى القبلة ، وجريته إلى الشرق حتى يدخل فى البحر المتوسط[4] .

---

(١) العبارة ناقصة من الأصل ، وقد أكملتها من اللاتينية ، ونصها هناك :
A montibus Riphaeis ac flumine Tanai, Maeotidisque paludibus ..

(٢) هذه الكلمة فى الأصل متآكلة ، وهى تقرأ هناك : ريف . وقد جعلتها سيف ، لأن النص فى اللاتينية : per littus septentrinalis oceani وسيف البحر هو شاطئه .

(٣) اسم البلد وما بعده متآكل فى الأصل ، وفى اللاتينية :
ad Galliam Belgicam et flumen Rhenum ويقابل ما وضعته فى المتن بين قوسين.
وسيرد الكلام على عاليه بليقه هذه ، وهى جزء من غالة كانت تسكنها قبائل البلجيين Belgae . أما نهر رودنه فهو الرين .

(٤) النص اللاتينى لا يحدد هنا البحر الأبيض ، بل يقول : ponto excipitur
وواضح أن المراد هنا تحديد عام لجزء كبير من شرق أوروبا يعتبره المؤلف اقليما واحدا ، ويقول إنه يبدأ من جبال فى الشرق يسميها جبال رفايه عند نهر طناى الذى يبدو أنه الدنيبر ثم يقول إن المحيط الشمالى (الجوفى) يحيط بها (من الشمال) حتى ما يعرف الآن ببلجيكا ، ويحدها من الغرب نهرا الرين والطونه .

«فإن شرق هذا البلد يدعى ألانية (Alania) وفى وسطها بلد داجية (Dacia) وبعدها غوشية (Gothia) وبعدها يرمانية (Germania) ، الذى أعظم أجزائه بأيدى الشُّوابين (Suevi)[١] . فى رجوا[٢] وفى جميع هذه البلاد من الأجناس أربعة وخمسون جنساً .

« وسنصف ما يغلق عليه نهر دَنُوبية (Danubium) إلى بحرنا المتوسط دون الأجناس التى وصفتها .

« البلد الذى يدعى مُوَاشية (Moesia) : شرقه مدخل نهر دنوبية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد طراجية (Thracia) ، ومن ناحية القبلة بلد مجدونية (Macedonia) ، وفيما بين القبلة والغرب بلد دلمازية (Dalmatia) . ومن ناحية الغرب [بلد إشتريه Istria] ، وما بين الغرب والجوف بلد بنونية (Pannonia) ومن ناحية الجوف نهر دنوبية[٣] .

البلد الذى يسمى طراجية : شرقه خليج خارج من البحر المتوسط[٤] ومدينة قسطنطينية[٥] . ومن ناحية الجوف بعض بلد دلمازية ، وخليج خارج من البحر الذى يقال له أخشينوس Pontus Euxinus المتوسط فى الغرب . وما بين الغرب والقبلة بلد مجذونية . وفى القبلة الموضع الذى يقال فيه للبحر المتوسط أياؤه[٦] .

---

(١) المؤلف هنا يذكر القبائل الجرمانية التى استقرت فى ذلك الجزء الكبير الذى يصفه ، وهو ينسب كل جزء من أجزائه إلى القبيلة التى سكنته معتبرا إياه بلدها .

(٢) وردت هذه الكلمة هكذا فى الأصل . ولا وجود لما يقابلها فى النص اللاتينى :

...Suevi tenet: quorum omnium sunt gentes quinquaginta quatuor

(٣) هذه العبارة محرفة فى النسخة التى لدينا ، لأن مقابلها اللاتينى :

Ab occasu Istriam, a circio Pannoniam وإلى الغرب إستريه ، ومن ناحية الجوف بنونية .

(٤) الأصل اللاتينى يقول هنا : Propntidis sinum .

(٥) هنا أسقط المترجمان عبارة quae Byzantium prius dicta est .

(٦) كذا . وفى الأصل اللاتينى Aegaeum وهو ما يعرف اليوم ببحر إيجه ، وعلى هذا فيمكن تصويب الصورة الواردة فى الترجمة إلى إيجاوه أو إجاوة .

بألانيا : هى بلاد الآلان وغوشيه (كذا) هى بلاد القوط ويوماته هى بلاد الجرمان.

« البلد الذى يدعى مجذونية (Macedonia) : شرقه الموضع الذى يسمى فيه البحر المتوسط أياؤه [وجنوبه بلد طراجية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد أوبويه وخليج مجدونية][1]. وفيما بين الشرق والقبلة بلد أقاييه (Achaia) ، وخليج خارج من المتوسط ، وهو خليج بلد مجذونية . ومن ناحية القبلة والغرب بلد دَلْمَازِيه ،[2] وما بين الغرب والجوف بلد دَرْدَانية (Dardania) ، وفى الجوف بلد مُواشِيَة (Moesia) .

« البلد الذى يدعى أقايية (Achaia) : يكاد البحر يحدق به من كل جهاته . شرقه بحر مِرْتِيَه (Myrtoum mare) ، وما بين الشرق والقبلة بحر جزيرة قريطش (mare Creticum) ، وفى القبلة البحر اليونانى (Ionium mare) ، وما بين الغرب والقبلة ، وفى الغرب الجزيرتان اللتان يقال لهما جِبَلاَنِيَة (Cephalonia) وقسبورية (Cassiopa) ، وفى الجوف خليج مدينة قُرِنْثُه (Corynthium) ، ليس بالبعيد من مدينة الأطيناشيين (Atenaii) من الروم الغريقيين (Graeci) .

« البلد الذى يدعى دَلْمَازية (Dalmatia) ؛ شرقه بلد مجذونية ، وفيما بين الشرق والجوف بلد دردانية (Dardania) ، وفى الجوف بلد مواشية ، وفى الغرب بلد إشترية (Istria) والخليج الذى يسمى لِبُورِيه (Sinum Liburicum) والجزائر التى يقول لها لِبُرْنُقِشْ (Liburnicas)[3] ، وفى القبلة الخليج الذى يدعى أدرياطِقُو (Adriaticum) .

---

(١) أسقط الترجمان هذه العبارة وهى فى الأصل اللاتينى :

à borea Thraciam, ab euro Euboeam et Macedonicum sinum.

(٢) سقطت من الترجمة العربية هنا عبارة كبيرة :

a favonio montes Acroceraunios in angustius Adriateci Sinus, qui montes sunt contra Apuliam atque Brundusium.

(٣) فى الأصل لبثرقش وهو تصحيف ، لأن الأصل اللاتينى Liburnicum وقد قومت الكلمة فى المتن على هذا الأساس . وقد سقطت هنا من الأصل العربى الذى بين أيدينا عبارات كثيرة . راجع الأصل اللاتينى ص ٢٤

« البلد الذى يدعى بنونية ونورقش[1] [وراتيه] : شرقها بلد مواشية وبعض بلد اسْتِرية (Istria) ، وفيما بين القبلة والغرب جبل أَلْبَشْ (Alpes Penninas) المتصل بالأندلس الأعلى . وفى الغرب بلد غالية بِلِيقَه ، [وفيما بين الجوف والقبلة من نهر دنوبية توجد الحدود الفاصلة بين بلد يرمانية وبلد غالية الواقع فيما يلى نهر دنوبية . وفى الجوف نهر دنوبية][2] وبلد يرمانية .

« البلد الذى يدعى إيطالية : وهو بلد مستطيل ما بين الشرق والقبلة إلى ما بين الغرب والجوف ، وحَدُّهُ فيما بين القبلة والغرب البحرُ المتوسط ، وما بين القبلة والشرق الخليج المسمى أدرياطقو ، ويحصر هذا البلد من هذه الناحية مستطيلا جبال ألبة (Alpes) ، وذلك فى ناحية الموضع الذى يقال فيه للبحر [الخليج] الغالقىّ (sinum Gallicum) إلى الخليج المسمى لِغُشْتِقو (Ligusticum sinum) متاخما لكورة نربونه . ثم إلى بلد غالِّيُش وبلد راسية (Raetia أو Rhetia) [حيث ينفصل بلد غالِّيُش عن بلد راسية][3] حتى ينتهى إلى الخليج المسمى لِبُرْنِقُو (Sinum Liburnicum) .

« البلد الذى يدعى غالية بِلِقَه (Gallia Belgica) : شرقه ريف نهر رانه (Rhenus = الرين) وبلد يِرْمَانِيَه . وما بين الشرق والقبلة جبل ألبة (Alpes) الذى يقال له أبنينه (Alpes Penninas) ، وفى القبلة بلد نربونه ، وفى الغرب بلد لغدون (Gallia Lugdunensis) . وما بين الغرب والجوف البحر المحيط الذى هو بلد برطانية[4] . وفى الجوف برطانية .

---

(١) فى الأصل اللاتينى Pannonia et Naricus et Raetia ولهذا فينبغى تقويم نورقش إلى نوريقو.

(٢) هذا السطر يقع فى أول الورقة وهو متآكل غير مقروء ، وقد عوضت النقص من النص اللاتينى الذى يقول هنا :

...a circio Danubii fontem, et limitem, qui Germaniam et Gallia inter Danubium Galliamque secernit, a septentrione Danubium et Germaniam.

(٣) العبارة الواردة بين الحاصرتين ساقطة من المخطوط ، وهى فى الأصل اللاتينى :

deinde Galliam Rhetiamque secludit

(٤) النص اللاتينى يختلف هنا بعض الشىء عن ذلك ، فهو يقول: a circio oceanum Britannicum = وفى الجوف بحر بريطانيا .

« البلد الذى يدعى غالّية لُغدُون (Gallia Lugdunensis) : هو بلد مستطيل ضيق مستدير يحيط بنصف أرض أقطانية (Aquitania) ، شرقه بلد غالية بليقة ، وقبلته بعض بلد نربونه (Provincia Narbonensis) حيث مدينة أرلَطَه[١] ، ومدخل نهر ردانه (Rhodanus) فى البحر المتوسط الذى يدعى البحر الغالى[٢] .

« البلد الذى يدعى نربونه (Provincia Narbonensis) : شرقه بعض بلد غَالّية ، وجبل ألبة ، حيث يسمى الجبل قوتَشْ (Cottias)[٣] فى غرب الأندلس[٤] . وما بين الغرب والجوف بلد أقطانية ، وفى الغرب بلد لُغْدُون . وما بين الجوف والشرق كورة غالية بليقة . وفى القبلة البحر الغالى الذى بين سردانية وجزائر ميورقة ومنورقة . وله جزائر فى الموضع الذى يدخل فيه نهر رُودَنُه (Rhodanus) فى البحر المتوسط تسمى اشتقاذس Insulas Stechadas » .

ثم يلى ذلك الكلام على اسبانيا ، وهو أهم ما يعنينا ههنا ، ولهذا ، فقد رأيت أن أضع الأصل اللاتينى فى مقابل الترجمة العربية تيسيراً للمقابلة وإظهاراً لما بذله المترجمان العربيان من جهد فى العمل الذى قاما به :

« البلد الذى يدعى الأندلس[٥] : جميعه محدَقٌ عليه إلا قليلا بالبحر

«Hispania universa terrarun situ trigona est, et circumfusione

---

(١) المراد هنا مدينة آرل Arles . وفى الأصل اللاتينى Arelas والصورة العربية صحيحة لأنها تقابل Arelate .

(٢) الترجمة العربية هنا موفقة جدا ، لأن الأصل اللاتينى :
... et mare Gallico Rhodani flumen excipitur...

(٣) فى المخطوط قرتش وقد قومته بما يقابل الاسم فى الأصل اللاتينى . والاسم القديم الكامل لجبال الألب هنا Alpes Cottiae

(٤) كذا ، والصحيح فى شرق الأندلس . والمراد بالأندلس هنا شبه جزيرة ايبيرية .

(٥) يلاحظ أن المترجمين غيرا فى نظام بعض الجمل ، كهاتين الجملتين الأوليين مثلا ، ولذلك لم أستطع أن أضع كل واحدة منهما أمام ما يقابلها من الترجمة العربية ، ولكى اجتهدت فى ذلك ابتداء من جملة « فركنه الواحد . . . » . وقد استغنى المترجمان عن بعض العبارات فيما يلى من النص ، وذلك واضح من مقارنة النصين .

المحيط والبحر المتوسط ، وهو بلد مُرَكَّنٌ ذو ثلاثة أركان ، فَرُكْنه الواحد يقابل الشرق ، فيما بين بلد أقطـانية وبين البحر المتوسط مقابل جزيرة ميورقة ومنورقة . وهناك يجاور بحر نَرْبُونه .

وركنه الثانى فيما بين الغرب والجوف بناحية مدينة برغنسية فى جليقية[1] حيث الجبل العالى الذى فيه المنارة مقابل بلد برطانية .

وركنه الثالث بناحية جزيرة قادس بين الغرب والقبـلة ، مقابل جبل إفريقية المسمى اتلانتش

والأندلس أندلسان[2]

فالأندلس الأدنى مبتدأه من ناحية الشرق ، ماضياً مع جبل البرنيو مع الجوف حتى إلى مدينة قنتابريه[3] وكورة اشتورية ثم إلى البَشْقُنس والأوريطيين ، وهم غربه ، حتى يبلغ بحرنا الأوسط عند [ساحل قرطاجنة .

Oceani Terrhenique pelagi pene insula efficitur. Hujus angulus prior, spectans ad orientem, a dextris Aquitanica provincia, et sinistris Balearico mari coartatus, Narbonensium finibus inseritur. Secundus angulus circium intendit: ubi Brigantia Calleciae civitas sita, altissimam pharum, et inter pauca memorandi operis, ad speculam Britanniae erigit. Tertius ejus angulas est, qua Gades insulae intentae in africun, Atlantem montem interjecto sinu Oceani prospiciunt.

Hispaniam citeriorem ab oriente incipientem, Pyrenaei saltus a parte septentrionis usque ad Cantabros Asturesque deducunt, atque inde Vaccaeos et Oretanos, quos ab occasu habet, posita in

---

(١) فى الأصل بغرلسية فى جليقية ، وذلك سهو من الناسخ ، إذ قدم الغين على الراء .

(٢) أضاف المترجمان هذه العبارة زيادة فى الإيضاح . وقد أصبحت بعد ذلك عبارة تقليدية نجدها عند كثير من جغرافيي الأندلس .

(٣) هنا أيضاً وهم الناسخ أو المملى فكتب قنتاربية بدل قنتابرية .

والأندلس الأقصى حده من ناحية الشرق بلد البشقنس والشلطبريين والأوريطيين وفى] الجوفِ والغربِ منه البحر المحيط الغربى وفى القبلة [البحر الذى يحي]ط بقادس [1] [والخليج الخارج المتصل ببحرنا الذى يسمى بحر تيران] [2] » .

Nostri maris littore Cartago determinat. Hispania ulterior habet ab oriente Vaccaeos, Celtiberos, et Oretanos: a septentrione Oceanum, ab occasu oceanum, a meridie Gaditanum Oceani fretum: unde mare Nostrum, quod Tyrrhenum vocatur, immittitur.

ثم يستطرد النص ليستكمل ذكر بلاد أوروبا ، وسأكتفى هنا بالترجمة العربية مع إيراد مقابل الأعلام الجغرافية فى الأصل اللاتينى :

« وفى البحر المحيط جزيرتان يقال لهما برطانية و]بارنية واقعتان مقابل شاطىء الأند]لس [3] بناحية بلد غالية ، رأيت أن أضيفهما فى هذا الموضع وهما : [جزيرة برطاني]ة [4] التى فى البحر المحيط ، فإنها مستطيلة من القبلة إلى الجوف

---

(١) وضعت هذه العبارة فى مقابل Gaditanum Oceani Fretum لأن ذلك المصطلح اللاتينى كان يستعمل للدلالة على المضيق الذى يفصل إفريقية عن اسبانية . ويسمى عند بلينيوس Fretum Herculeum وعند تيتوس ليفيوس Fretum Hispanum . ولفظ Fretum معناه الذراع الممتد من البحر بين أرضين .

انظر : Valbuena, *Diccionario Latino-Español* (Paris) ص ٣٧٩ عمود ٢

(٢) ما بين الحواصر كله ساقط من الأصل . وقد ترجمته عن الأصل اللاتينى . وعبارة بحر تيران أو البحر التيرانى موجودة فى الجغرافية العربية ويفسرونه بأنه البحر الذى يقسم الأرض ، وذلك قريب جداً من معنى Mare Tyrrhenum .

(٣) فى موضع هذه العبارة قطع كبير فى الورقة ، والنص اللاتينى هنا :

Et quoniam oceanus habet insulas, quas Britanniam et Hiberniam vocant, quae in aversa Galliarum parte ad prospectum Hispaniae sitae sunt, breviter explicabuntur.

(٤) القطع فى الورقة يمتد حتى يضيع هاتين الكلمتين .

وقبلة [غالا]يش[١] . ومرسى هذه الجزيرة عند مدينة روط (Rhutubi Portus)[٢] التى فى ساحلها ، وطولها ثمانى مائة ميلا ، وعرضها ألف ومائتا ميل ، ويظهر منها فى لجة البحر جزائر الأركاذيين (Orchney = Arcadas) ، منها عشرون جزيرة مقفرة وثلاث عشرة جزيرة مسكونة ، وخلفها جزيرة تسمى تُلْيَة (Thulia) متفردة من غيرها فى لجة البحر ، قل من يعرفها لبعدها .

« وأما جزيرة إبارنية (Hibernia وهى إيرلندا) فإنها بين جزيرة برطانية والأندلس ، ممتدة مما بين الشرق والقبلة ، إلى بين الغرب والجوف ، مقابل الجبل المطل فى البحر مدخل نهر شِنَا (Scenae flumen وهو نهر الشانون) فى البحر المحيط . وهى أضيق قاعة من جزيرة برطانية ، إلا أنها أطيب جواً وأكثر ثماراً ، يسكنها معا الاسكوثيون (Scotti) ، وهم من الفرنج . وتجاورها أيضاً جزيرة يقال لها مفانية (Mevania)[٣] . طيبة القاعة معتدلة الجو يسكنها الاسكوثيون أيضا

وهذا انقضاء وصفنا بلاد أوروبا » .

وإنما أوردت الفصل الخاص بأوروبا من هذه الترجمة على تواليه لأنه يعطينا فكرة واضحة عن المادة الجديدة التى أضافتها هذه الترجمة إلى الثروة الجغرافية لدى مسلمى الأندلس فى ذلك العصر ، وهى مادة طيبة تقدم صورة موجزة سهلة التصور للمعمور من الأرض فى ذلك الحين ، فقد عرف الناس أن اليابس ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى ، فى كل قسم منها بلاد وشعوب ومدن وبحار وأنهار وجبال ، وأخذ الناس فكرة واضحة عن ذلك كله ، وانضاف

---

(١) تكملة من الأصل اللاتينى : Gallias .

(٢) كذا فى الأصل اللاتينى ، والصحيح Portus Rutupiae وهو الإسم اللاتينى لبلدة Richsborough على مقربة من لندن .

(٣) كذا فى الأصل والترجمة . والاسم الصحيح Mannia وهو الأصل اللاتينى لاسم جزيرة مان Isle of Man

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى معلوماتهم حشد من أسماء الأعلام الجغرافية ما بين أسماء دول وشعوب وقبائل وأنهار وجبال وخلجان وشواطىء وما إلى ذلك . وإذا كان الجغرافيون من أهل المشرق قد عرفوا قبل ذلك معلومات أوفى مما يقدمه كتاب هروشيش عن آسيا وافريقية ، فإن المعلومات الخاصة بأوروبا كانت جديدة دون شك ، وهذه كتب الجغرافية والرحلات التى كتبها المشارقة حتى أوان هذه الترجمة بل إلى أواخر القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى لا تكاد تجد فيها شيئا تستطيع الاعتماد عليه عن أوروبا ، فأما رسالة ابن فضلان فلا تصف إلا البلقان وبلاد الروم والبلغار ، وأما كتاب البلدان لليعقوبى فيقف بالكلام عند الأندلس ، وأبو زيد البلخى لا نجد عنده أى إشارة إلى أوروبا ، وكذلك المقدسى . أما الذى يتحدث عنها بعض الشىء فهو ابن حوقل فى الفصل الذى أداره على « بحر الروم » والصورة التى رسمها له مع شرحها ، ومادته لا تتعدى سواحل البحر الأبيض وجزائره وبعض بلاد الدولة البيزنطية مع خلط وخطأ كثير[1] .

وإذن فهذه هى أول مادة مقبولة عن ذلك القسم من المعمور كتبت بالعربية ، صحيح أنها تصور أوروبا وشعوبها فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، ولكنها أعطت على أى حال صورة واضحة معقولة لجزء من العالم كان إلى ذلك الحين مجهولا أو كالمجهول تماماً .

وشىء آخر جدير بالتنويه ، وهو المصطلح الجغرافى الذى استحدثته هذه الترجمة ، وهو مصطلح جديد يختلف إلى حد كبير عن المصطلح المشرق الذى كان جارياً إلى ذلك الحين ، وقد صاغ قاسم بن أصبغ هذه المصطلحات بمهارة ودقة بالغتين ليعبر عن مفهومات جديدة سواء فيما يتصل بالمعالم الجغرافية كمنابع الأنهار ومصابها أو السهول الخضراء المغطاة بالغابات أو الخلجان الصغيرة أو تحديد

---

(١) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل طبعة كرامرز (ليدن ١٩٣٨) ج ١ ص ١٩٠ — ٢٠٥ — وانظر الصمصمه رقم ٢ من الضمائم التى اضفناها في آخر الكتاب.

الاتجاهات بما يقابل قولنا اليوم مثلا الشمال الشرق أو الجنوب الغربى ، هنا كان توفيق قاسم بن أصبغ عظيما حقا ، وسأورد هنا — على سبيل المثال — بعض المصطلحات التى نجدها فى ذلك القسم الخاص بأوروبا وما يقابلها فى الأصل اللاتينى ومعناها فى مصطلحنا اليوم ، وسنلاحظ أن هذه المصطلحات ستجرى فى الاستعمال الجغرافى الأندلسى فى نفس الحدود الدقيقة التى استعملها قاسم ابن أصبغ فيها :

قسم	Pars	قارة
فى الجوف — من ناحية الجوف	a septentrione	فى الشمال
فى الشرق	ab oriente	
فى الغرب	ab africo[1]	
فى القبلة فى الجنوب	a meridie	فى الجنوب
بين القبلة والغرب	ab africo	فى الجنوب الغربى
بين الغرب والجوف	a circio	فى الشمال الغربى
تحت الشرق من تحت الشرق إلى الجنوب ما بين الشرق والجنوب	ab euro	فى الجنوب الشرق
بين الغرب والقبلة	ab occasu	فى الجنوب الغربى
بين الشرق والقبلة	a borea ab euro	فى الجنوب الشرق
فيما بين الشرق والجوف	ab aquilone	فى الشمال الشرق

(١) المعنى الدقيق لهذا المصطلح : من ناحية الجنوب الغربى راجع : Valbuena, *Diccionario Latino-Español*, مادة Africus ص ٣٥

متلع (متالع)	terminus	سهل ، سهول
حد	lime	
يغلق على	secludit	يحيط بـ
خليج	sinus	
مستدير	inflexus	منحن أو مقوس
كورة	provincia	ولاية
ركن	angulum	زاوية
مُرَكَّنٌ	trigonus	مثلث
ضيِّق ، متضايق	angustius	
محيط	oceanus	
مستطيل	obiscius-longus	

وهذا النموذج الذى قدمناه من جغرافية هروشيش يكفى للدلالة على قيمة الثروة الجغرافية التى قدمها قاسم بن أصبغ إلى أهل العلم فى عصره وعلى الروح التى بثها فيمن حفزته ميوله إلى التأليف فى التاريخ والجغرافية . فقد أصبح فى متناول الأندلسيين مرجع قيم فى تاريخ العصور القديمة ، وخاصة اليونان والرومان والبيزنطيين ، وأطلعوا على تاريخ متصل الحلقات للمسيحية كما يرويه أهلها ، فاتسع أفقهم التاريخى وصارت أحكامهم على ذلك كله أدق وأسلم من أحكام من لم يعتمدوا على أساس طيب كهذا ، وسنرى أثر ذلك بوضوح عند ابن خلدون ، وهو المؤرخ المغربى الأندلسى الوحيد الذى تصدى لكتابة تاريخ عالمى ، وهو يشير فيه المرة بعد المرة لكتاب هروشيش كما رأينا ولا غرابة والحالة هذه أن يكون هذا التاريخ قمة من قمم التأليف التاريخى عند المسلمين ، لأن قدر المؤلف يتوقف على ملكاته ومراجعه معاً ، وفى هذا المجال كان حظ ابن خلدون أوفر من حظوظ أمثاله من أعلام المؤرخين ، وعن ابن خلدون أخذ تلاميذه وخاصة

تقى الدين احمد بن على المقريزى ، وهو من الذين اعتمدوا على هروشيش وأشاروا إليه .

أما من الناحية الجغرافية فهذه المقدمة الجغرافية الموجزة التى قدم بها هروشيش لتاريخه وضعت قاعدة سار عليها كل مؤرخى الأندلس بعد ذلك وهى التقديم للتاريخ بالجغرافية ، أى وصف الميدان قبل ذكر الحوادث ، أى أنهم أصبحوا جغرافيين ومؤرخين فى آن واحد ، وعنوا بالجغرافية عنايتهم بالتاريخ ، ومن هنا غنيت المكتبة الجغرافية الأندلسية على نحو فريد فى بابه حقا ، وانفسح المجال أمام هذا العلم الإنسانى الكبير ليتطور ويرقى فى كل اتجاه : اتجاه الوصف الطبيعى والاتجاه البشرى (السكان وعلاقتهم بالبيئة واستخدامهم للموارد الطبيعية وأثر ذلك فى أحوالهم وأخلاقهم) واتجاه وصف الرحلات .

وعند أحمد بن محمد الرازى أول تلاميذ قاسم بن أصبغ سنرى نموذجا بديعاً للاتجاهين الأولين ، سنراه يأخذ المادة البسيطة التى يقدمها هروشيش بالإضافة إلى المادة المشرقية الطيبة التى وصلت إليه ، ويبنى على ذلك كله جغرافية متكاملة للأندلس تتناول الوصف الطبيعى : الهيأة العامة لشبه الجزيرة ووصف الموقع والسطح (خاصة الجبال والأنهار) ثم تتناول الأقسام الإدارية واحداً واحداً بالوصف والتفصيل مع ذكر ما فيها من منابع الثروة ووجوه الانتفاع بها . وقد كانت بداية الرازى أساساً اعتمد عليه من أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين ، فأما المؤرخون منهم فقد اقتصروا على نقل كلامه وربما اختصروه ، وأما الجغرافيون فقد اعتبروه نقطة بداية وأساساً وزادوا وتوسعوا ، كلٌّ بحسب ميوله ومفهوم الجغرافية عنده . وفى كلا الحالتين نرى الخيط متصلا وخطوات التطور مرتبط بعضها ببعض حتى نصل إلى أعلام من طراز البكرى والإدريسى وابن خلدون ، وكل واحد منهم مدرسة قائمة بذاتها فى تاريخ علم الجغرافية عند العرب .

وإنها لصفحة مشرقة فى تاريخ العلوم عند العرب نراها فى انتقال كتابات هروشيش إلى عرب الأندلس عن طريق عالم فقيه طموح إلى المعرفة وقَسّ

نصرانى مستعرب لسانا وروحا وثقافة ، وقد قاما بهذا العمل بايحاء خليفة مستنير هو الحكم المستنصر كان أقرب إلى العلماء المنصرفين إلى البحث والدرس منه إلى ذوى الجاه والسلطان ، ثم تناولها جغرافى مؤرخ موهوب هو احمد بن محمد الرازى فبنى على كلام هروشيش ووسعه ، وأضاف إليه المـادة المشرقية الوافرة وأنشأ جغرافية طبيعية بشرية متكاملة ، ثم جاء من بعده فأكملوا بناءه ووصلوا به إلى أبعد ما وصلت إليه الجغرافية عند العرب من شمول وضبط وتحقيق . ثم تنقضى أيام المسلمين ويجىء ملك علامة نصرانى هو ألفونسو العاشر فيأمر بترجمة جغرافية الرازى إلى الاسبانية ويضمنها تاريخاً عاماً لاسبانيا ، وعلى أساس هذا التاريخ العام يقوم التأليف فى الجغرافية والتاريخ فى اسبانيا إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادى .

فأى برهان هو أنصع من هذا على اتصال شجرة المعرفة الانسانية واستمرارها من عصر لعصر وتعاون الأجيال على رعايتها والعناية بهـا رغم اختلاف الأديان واللغات والعصور ؟ وأى برهان هو آكد من هذا على ما قام به العرب من دور جليل فى تطوير المعرفة الانسانية والسير بمشعل الحضارة الانسانية خلال العصور التى تسمى مظلمة — وما هي مظلمة بحال!؟ هنـا نرى دور العرب من الوضوح بحيث يكاد يلمس باليد . وهذا فى فرع واحد من العلوم ، وفى الميادين الأخرى براهين أخرى لمن درس وبحث وطلب الحقيقة فى بطون المؤلفات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

احمد بن محمد الرازى ومعاصروه

يعتبر احمد بن محمد الرازى أبا الجغرافية والتاريخ فى الأندلس فى آن واحد ، فقد أخذ عن أبيه محمد بن موسى الميل إلى التاريخ والاهتمام بالتأليف فيه ، وزاده اهتماما بهذا الفن شيخه قاسم بن أصبغ البيانى ، وقد رأينا عنايته بالتاريخ واشتهار أمره به فى الأندلس ، ورأينا كيف انصرف مع الوليد بن خيزران إلى ترجمة كتاب هروشيش وكيف قاما بها على ذلك النحو الفريد . فإذا ذكرنا أن هذه الترجمة لم تكن إلا جزءً يسيراً من ذلك النشاط الثقافى الذى زخرت به قرطبة أيام الحكم المستنصر ، تصورنا البيئة العلمية الأندلسية فى ذلك العصر : بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دءوب للعلم والمعرفة مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى مركزاً من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة فى العالم أجمع .

فى هذه البيئة المواتية نشأ احمد بن محمد الرازى ، وكان بطبعه طلعة مُتَهَمِّما بأحوال الدنيا وأخبار البشر ، فانصرف إلى الجغرافية والتاريخ انصرافا تاما أرسى به أسس هذين العلمين فى بلاده ، فلا تقتصر أهمية عمله فى هذا الباب على ما كتبه بنفسه ، وهو كثير ، بل تشمل الحركة التى قادها والأسس التى وضعها وسار عليها من أتى بعده . وستكون كتبه المعين الذى سيستقى منه كل مؤرخى الأندلس وجغرافييه فيما بعد ، والمدرسة التى سيمضى التأليف والجغرافية فى الأندلس على أصولها إلى آخر أيام الأندلس الإسلامي .

ويعنينا هنا احمد بن محمد الرازى الجغرافى لا المؤرخ ، وإن كان الفصل بينهما عسيراً نظراً للترابط الوثيق بين مفهومى هذين العلمين عنده . والمعلومات التى لدينا عن حياته قليلة على أى حال ، معظمها يعتمد على الفقرة القصيرة التى كتبها عنه أبو الوليد الفرضى فى « تاريخ علماء الأندلس » ونقلها عنه ووسعها بعض الشىء أبو محمد على بن حزم فى رسالته المعروفة عن فضل الأندلس التى أورد نصها المقرى . قال ابن الفرضى : « احمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازى الكنانى ، من أَنفُسِهم . من أهل قرطبة ، يكنى أبا بكر . وفد أبوه على الإمام محمد ، وكان من أهل اللسانة والخطابة . وُلد احمد بالأندلس ، وسمع من احمد بن خالد وقاسم بن أصبغ وغيرهما . و (كان) كثير الرواية حافظاً للاخبار ، وله مؤلفات كثيرة فى أخبار الأندلس وتواريخ دول الملوك فيها ، أديباً بليغاً شاعراً ، توفى رحمه الله يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ٣٤٤ وكان مولده يوم الاثنين فى عشر ذى الحجة سنة ٢٧٤ . ذكر ذلك محمد بن حسن[١] » أما كلام ابن حزم فهذا نصه : « ومن الأخبار تواريخ احمد بن محمد بن موسى الرازى فى أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم[٢] كتاب كبير ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له فى صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبى طاهر فى أخبار بغداد ، وذِكر منازل صحابة أبى جعفر المنصور بها[٣] » ثم قال بعد ذلك : « وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى فى أنساب مشاهير أهل الأندلس فى خمسة أسفار ضخمة ، من أحسن كتاب فى الأنساب وأوسعها[٤] » .

---

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣٥ ص ٤٠

(٢) كذا فى النص كما أورده المقرى ونقله عن الضبى . وقد جعلها ناشر جذوة المقتبس للحميدى « وركبائهم » واعتقد أن صحتها « وكتابهم » .

(٣) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٦٦

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٧

وقد اعتمد محمد بن فتوح الحميدى على كلام ابن حزم فى المادة التى اختص بها احمد بن محمد الرازى ، ولكن الأمر اختلط عليه ، فأورد مادتين فى الجذوة أولاهما عن « احمد بن محمد التاريخى (رقم ١٧٤) والأخرى عن احمد ابن محمد بن موسى الرازى (رقم ١٧٥) ، فأما الأولى فنصها : « احمد بن محمد التاريخى ، عالم بالأخبار ، ألف فى مآثر المغرب كتبا جمة ، منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس فى غيره ، ذكره أبو محمد على بن احمد (ابن حزم) وأثنى عليه[1] » وأما الثانية فقد أورد فيها كلام ابن حزم الذى ذكرناه وختمه بقوله : « كذا قال أبو محمد (ابن حزم) ولم يبين إن كان هو الأول أو غيره ، لأنه ذكر ذلك فى موضعين ، وأنا أظنه الذى قبله والله أعلم[2] » ولم يكن الحميدى بحاجة إلى هذا التساؤل فإن احمد بن محمد التاريخى هو احمد بن محمد الرازى ، والمادتان تدوران على رجل واحد فى الحقيقة ، ولكن الحميدى كان يكتب فى بغداد بعيداً عن مراجعه وأصوله ، فلم يستطع التثبت مما نقل عن أستاذه ابن حزم .

ولكن مادتى الحميدى تنطويان رغم ذلك على فائدة تنفعنا هنا ، فقد ذكر فى أولاهما كتاب الرازى عن « مسالك الأندلس » وفى الثانية ذكر تآليفه فى التاريخ ، فكأن الأولى عن الرازى الجغرافى والثانية عن الرازى المؤرخ ، وهذا توفيق لم يقصده الحميدى ، ولكنه كان من حظه ، لأن أحداً غيره من أصحاب معاجم التراجم لم تتيسر له هذه الاشارة اللطيفة إلى ما كتب الرازى فى الجغرافية ، نعم إن ما يسمى هنا « بمسالك الأندلس ومراسيها . . . » إنما هو

---

(١) الحميدى ، جذوة المقتبس (بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٢) رقم ١٧٤ ص ٩٧

(٢) نفس المصدر رقم ١٧٥ ص ٩٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدمة الجغرافية لتاريخ الرازى الكبير ، ولكن هذا لا يقلل من فضل الحميدى فى هذا المقام . وكما هى العادة نقل احمد بن يحيى بن عميرة الضبى المادتين بنصهما فى بغية الملتمس دون أن يكلف نفسه عناء التثبت من أمر يسير كهذا[1] .

وصف الأندلس للرازى

تناول احمد بن محمد الرازى الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ ، وجغرافيته الباقية بين أيدينا هى فى الغالب مقدمة لكتابه «أخبار ملوك الأندلس» ، لأن القطعة الباقية منها فى ترجماتها إلى البرتغالية والاسبانية القديمتين تستطرد بعد وصف الأندلس إلى الكلام عمن ملكه ومن دخله من الشعوب قبل الفتح العربى . ولا شك فى أن النقول الجغرافية الكثيرة التى نجدها فى نفح الطيب متصلة بقرطبة إنما هى من كتاب احمد الرازى فى صفة قرطبة . أما كتاب « أعيان الموالى بالأندلس » فيغلب أنه كان كتاب تراجم لا يضم مادة جغرافية كثيرة ، وإن كنا لا نستبعد أن تكون فيه هذه الاستطرادات الجغرافية المعروفة فى كتب التراجم المطولة .

سلك احمد الرازى فى جغرافية الأندلس طريقا لا نجد له شبيها فيما نعرف من كتب الجغرافية السابقة عليه فى المشرق : بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الأقاليم دون إسراف فى ذلك ، فاكتفى بالقول بأنه فى الإقليم الرابع ، فى حين أننا سنجد على بن سعيد فيما بعد يجعل بعض الأندلس فى الإقليم الرابع وبعضه فى الخامس ، ويجعل له حظاً فى السادس أيضاً . ثم تحدث الرازى بعد ذلك عن هيأة شبه الجزيرة ، فقال إنها هيئة « مركبة ذات ثلاثة أركان » أى

---

(١) الضبى ، بغية الملتمس ، رقما ٣٢٩ و ٣٣٠ ص ١٤٠

مثلثة ، ناقلا بذلك عبارة هروشيش Hispania trigona est ، ثم يلى ذلك تحديد مواضع تلك الأركان . ويغلب على الظن أنه اتبع ذلك بالفقرة الخاصة بالأسماء التى كانت تطلق على شبه الجزيرة قبل الإسلام ، لأن القطعة التى تدور حولها والمنسوبة لأبى عبيد البكرى ترد فى سياق كلام كله لأحمد بن محمد الرازى .

ثم عقد الرازى بعد ذلك فصلا لمناخ شبه الجزيرة بادئا إياه بعبارة سينقلها عنه الكثيرون من الجغرافيين بعده ، وهى عبارة « والأندلس أندلسان » وقد أضافها الرازى من عنده إلى ما أخذه عن ترجمة هروشيش من تقسيم اسبانيا إلى قسمين كبيرين ، وبينما نجد تقسيم هروشيش لاسبانيا لا يزيد على أن يكون تقسيما سياسيا منقولا عن التقسيم الرومانى الأول إلى Hispania Citerior و Hispania Ulterior مع بيان لحدود كل منهما ، نجد الرازى يستطرد إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيجعل قسمى اسبانيا اقليمين مناخيين متباينين « فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربى وأندلس شرق ، فالغربى منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربى ، وتمطر بالرياح الغربية . . والحوز الشرقى المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجرى أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية »[1] . هنا نجد ذلك الجغرافى المؤرخ الحصيف يمس نظرية كبرى سيعرضها ويفصلها مؤرخو اسبانيا فى العصر الحديث : حقيقة انقسام اسبانيا إلى اسبانيتين : متوسطية La España Mediterranea واسبانيا أطلسية La España Atlántica وهى نظرية سيتوسع فيها رامون منندذ بيدال فى مقدمة الجزء الأول من تاريخ اسبانيا العام الذى ينشر تحت اشرافه وفى الفصول الأولى من تاريخه لاسبانيا فى القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادى المعروف باسم « اسبانيا فى عصر السيد » . وهذه الالتفاتة من جانب احمد بن محمد الرازى تدل على

---

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩

صدق تصوره الجغرافى والتاريخى وعلى فهمه العميق لطبيعة البلد الذى انتمى إليه وعاش فيه وتصدى للكتابة فى جغرافيته وتاريخه .

ولدينا بعد ذلك من جغرافية الرازى فى نصّيها البرتغالى والاسبانى فقرتان على أعظم جانب من الأهمية الجغرافية ، الأولى تتحدث عن أنهار الأندلس والثانية تتحدث عن جباله . وقد وردت هاتان الفقرتان فى نهاية هذين النصين ، أى بعد ذكر الكور والمدن[1] . ويغلب على ظننا أن مكان هاتين الفقرتين يجيء بعد الفقرة التى أوردنا طرفا منها عن تقسيم الأندلس إلى أندلسين ، لأن الطبيعى ، بعد ذكر التقسيم بحسب الرياح والأمطار ومجارى الأنهار أن يجيء تفصيل هذه الأخيرة ، خاصة وأن الذين أتوا بعد الرازى ، كابن النظام سيتوسعون فى هذه النظرية ، وسيذكرون كيف أن جبال اسبانيا أيضاً تسير من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب « هابطة جبلا بعد جبل » .

---

(١) انظر الترجمة البرتغالية لجغرافية الرازى الواردة فى :
Crónica Geral de Espanha de 1344, (edição critica do texto português per Luís Filipe Lindley Cintra), vol. II, (Lisboa, 1954), pp. 39 sgg.
ويؤيد ما قلناه فى المتن أن الفقرة الخاصة بتقسيم اسبانيا إلى قسمين تأتى هنا قبل ذكر الأنهار والجبال مباشرة .
أما الترجمة الاسبانية الواردة فى *Crónica General de España de 1344* فقد أورد نصها Pascual de Gayangos فى خطاب الاستقبال الذى ألقاه فى حفل قبوله عضوا فى مجمع التاريخ الاسبانى ونشر بعنوان : *Memoria sobre la autentecidad de la Crónica denominada del Moro Rasis.* ص ٦١ و ٦٢
وقد عثر ليفى بروفنسال على أوراق من جغرافية البكرى تضم هاتين الفقرتين ، ونشر الأولى فى الذيل رقم ٤ الذى علقه على الترجمة الفرنسية للروض المعطار فى خبر الاقطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ٢٥٠ من القسم الفرنسي . ونشر الثانية الخاصة بالأنهار ذيلا على الترجمة التى عملها من البرتغالية لجغرافية الرازى ، التى نشرها بعنوان :
La Description de l'Espagne de Razi, Al-Andalus, vol. XVIII, fasc. I. p. 101—104
وعثرنا نحن على مخطوط أوفى سنتحدث عنه فى الفصل الخاص بأبى عبيد البكرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هاتان الفقرتان تعتبران من أجمل نماذج التدقيق فى الوصف والتحديد الذى تمتاز به جغرافية الرازى ، ولا نستطيع القول بأنه نقلهما عن مؤلفين قدامى ، فإننا لا نجد فى كتاباتهم شيئا مجتمعا واضحا عن أنهار شبه الجزيرة وجبالها كما نجد فى كلام الرازى ، نعم إن المعلومات التى أوردها توجد عند كتاب اليونان واللاتين ، ولكنها متفرقة فى كتب كثيرة ، والكثير منها يرد فى أثناء التفاصيل التاريخية ، وليس من المعقول أن يكون الرازى قد أطلع على ذلك كله ثم قام بايجازه ، ثم إن أحدا من أولئك اليونان واللاتين لم يشر إلى العلاقة بين رياح شبه الجزيرة وأمطارها وأنهارها ، ولم يكن اهتمامهم منصرفا إلى أهمية هذه الأنهار فى الرى كما نجد عند الرازى ، بل إلى ناحيتها الملاحية ، لأن اليونان والرومان اعتمدوا عليها فى التوغل داخل شبه الجزيرة . ومن الجدير بالملاحظة أن أنهار شبه الجزيره كانت فى العصور القديمة أغزر ماء وأوسع وديانا وأحواضا ، ومن هنا فقد كانت أهميتها الملاحية أكبر وأهم ، وكانت هى التى استلفتت اهتمام اليونان والرومان . والفرق الرئيسى بين وجهتى النظر اليونانية الرومانية من ناحية والعربية من ناحية أخرى هو أن الأوَل كانوا يكتبون عن بلاد أجنبية عنهم يريدون احتلالها والسيطرة عليها ، فلا يهتمون إلا بما ييسر ذلك لهم ، أما الرازى فقد كان أندلسيا عربيا يكتب عن بلاده واصفاً نواحيها وجبالها وأنهارها مهتما بناحية الرى والزراعة فيها . فحتى إذا كانت بعض معلومات كتاب اليونان والرومان قد وصلت إليه فإن فضله يتبين فى توجيه تلك المعلومات هذه الناحية الأندلسية الصرفة ، والنظر إلى شبه الجزيرة على أنه معاش ووطن لا على أنه ميدان للغزوات والاستغلال .

ولنضف إلى ذلك أن معلومات الكثير من أولئك الكتاب اليونان واللاتين قامت على السماع ، ومن ثم فقد حفلت بالأخطاء ، أما معلومات الرازى فمبنية على المشاهدة والمعلومات المأخوذة من وثائق الدولة . ومِنْ ثَمَّ فهى أقرب إلى الصواب وأحرى بالثقة . ومثال ذلك أن افيينوس يقول اعتمادا على كلام صاحب

« الطواف حول شبه الجزيرة » أن نهر الابرو يسمى نهر الزيت Oleum flumen ، وحوض الإبرو لم يكن مشهورا فى تلك الأعصر بأشجار الزيتون ، وانما بحقول القمح والكروم أى بالنبيذ ، وانما أتى الخطأ من تحريف لما قاله صاحب الطواف من أن نهر الإبرو يسمى Ελαιος وربما كان ذلك تحريفا للفظ Elaisos وهو أحد أسماء شبه الجزيرة فى القديم . ومن[1] الواضح أن الرازى لم يأخذ معلوماته عن الأنهار عن بطليموس ، فإن هذا الأخير يقول مثلا إن طول هذا النهر (الابرو) ٢٥٠٠ ستاديوم أى ٤٦٠ كيلومترا فى حين أن الرازى يجعل طول النهر ٢٠٤ ميلا أى نحو ٣٠٠ كيلومترا .

ومن أسف أن البكرى عندما نقل الفقرة الخاصة بالجبال أوجزها إيجازاً أضاع الكثير من قيمتها (ولعل كاتب النسخة التى وصلتنا هو الذى فعل ذلك) ، ونصها عنده « ومن الجبال المشهورة بالعظم فى بلد الأندلس منها جبل إلبيرة (La Sierra de Elvira) وجبل الثلج (Sierra Nevada) وهو متصل بالبحر المتوسط ، منتظم بجبل رئيه ولاصق بالجزيرة مع البحر . . . ومنها جبل البرت ، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلد غاليش ، ومبتدأه من البحر القبلى المتوسط المجاور طرطوشة ، ومنتهاه إلى البحر الغربى بين الأشبونة وجليقية ، ومنها الجبل الحاجز بين بلاد افرنجة وبلاد الصقالبة »[2] (يريد جبال الألب) .

وهذه الصورة الموجزة لا تعطى إلا فكرة مشوهة عن حقيقة ما كتبه الرازى عن جبال اسبانيا ، وها هو مستخرجا من الترجمة البرتغالية ومقربا إلى أسلوب الرازى قدر الإمكان : « وليس فى الأندلس على ما عرفناه فى الحقيقة

---

(١) Cf: Adolf Schulten, *op. cit.* I, p. 308

(٢) انظر الذيل رقم ٤ على الترجمة الفرنسية للروض المعطار التى قام بها ليفى بروفنسال ولشرها باسم :

La Péninsule Ibérique au Moyen Age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'tār (Leiden 1938), p. 250

إلا ثلاثة جبال تقطعه مستعرضة من البحر إلى البحر ، ولا يقطع هذه الجبال نهر فى أى موضع من مواضعها . وفى هذه الجبال حصون منيعة لكل حصن منها الأراضى الواسعة الكثيرة الخيرات ، وأول هذه الجبال جبل قرطبة (Sierra Morena) ومبتدأه فى شرق الأندلس عند ساحل البحر الذى يتوسط الأرض ماراً ببلنسية وباجة واشطمبار[١] واقليم الجوف ومنتهاه عند البحر الغربى الكبير .

« أما الجبل الثانى فمبتدأه عند ساحل البحر الشرقى مقبلا من ناحية أربونه ، وهو الحاجز بين الأندلس وبلاد إفرنجـــة ، والفرنجة تسميه جبل رنشفالة (Roncesvalles) ، ويسير موازيا لبلد بشقاية (Vizcaya) وبلد اشتريس ومنتهاه عند البحر فى جليقية فى اقصى الشمال[٢] .

« والجبل الثالث فمبتدأه عند البحر المتوسط مجاوراً لطرطوشة ، ويمر غير بعيد من قرطبة ومنتهاه عند البحر الغربى على خمسة عشر مجرى[٣] من الاشبونة .

« ومن جبال الأندلس الأخرى غير هذه جبل الثلج ، ومبتدأه عند إلبيرة وينتهى عند البحر المتوسط عند الجزيرة الخضراء ، والجبل الذى يسمونه جبل ريه (Sierra de Málaga) . ويلتقى هذان الجبلان عند إلبيرة[٤] » .

---

(١) علق بسكوال جيانجوس على ذكر باجة هنا بقوله إنها لا يمكن أن تكون فى اقليم الجوف el Algarve خاصة وهو يتحدث هنا عن جبل قرطبة (سيرا مورينا) (ص ٦١ تعليق ٣) . أما اشطمبار فقد وردت فى الأصل اسطمبه Estumba ، ولا وجود لموضع بهذا الاسم ، ولهذا عـــدله إلى هذه الصورة . (تعليق ٤) .

(٢) فى النص الاسبانى : en derecho del septentrione

(٣) فى الاسبانية 15 migeros وهو جمع لفظ مجرى العربى وهو مقياس لطرق البحر عند المسلمين ومعناه مرحلة من مراحل الرحلة بالبحر .

(٤) فى الاسبانية :

Et otra sierra que llaman Raya entra la dicha sierra de la Elada et metese una por otra, et vase a Elibera.

راجع مقال جايانجوس الآنف الذكر ص ٦١ وكذلك مقال ليفى برفنسال عن جغرافية الرازى الذى أشرنا إليه ص ١٠٠ — ١٠١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه الفقرة تعطينا فكرة عن الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة الإيبيرية كما كتبها الرازى . وربما كان كلامه عن الأنهار أدق وأوفى من كلامه عن الجبال . لأن اهتمام العرب بالمياه ومجاريها وقيمتها بالنسبة للرى كان عظيما . وسنورد منه فقرة واحدة فيهـا غناء . قال الرازى عن نهر الوادى الكبير : « ومن الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس نهر قرطبة ، ويعرف بنهر بيطى (Baetis) . مخرجه من ناحية رَيْمِيَّه[1] . وبين منبعثه إلى موقعه فى البحر بعد اشبيلية ثلاثمائة ميل وعشرة أميال ، ويقع فيه سنجيل (شِنِّيل) ، وهو ينبعث من الثلج من جبال إلبيرة . وعليه مدينة استجه »[2] . فهذا كلام جغرافى يعرف حدود العلم الذى يتولاه ومطالبه ، فهو يصف منبع النهر ومصبه وما يمر به من النواحى وما يقع فيه من الروافد ، ويذكر طوله . وعندما يتحدث عن الأندلس من الناحية السياسية والبشرية ، سيأتينا بمعلومات أوفى وأدق عن الأقاليم التى يمر بها ومدنها ومعادنها وحاصلاتها ، أى أننـا نخرج بفكرة واضحة دقيقة عن حوض الوادى الكبير من كل ناحية تقريباً .

فإذا فرغ الرازى من هذه المعلومات العامة عن الجغرافية الطبيعية للأندلس دخل فى القسم الأهم ، وهو الجغرافية السياسية والبشرية ، فقسّم الأندلس إلى كور ومدن ، والمدينة فى الأندلس قسم إدارى كالكورة له زمام واسع تقع فيه مدن وقرى وحقول واسعة ، وكان الأندلسيون يسمون القسم الادارى الواقع على الحدود أو المحيط بالعاصمة مدينة ، وقد أخذوا ذلك عن النظام الرومانى الذى كان سائداً فى شبه الجزيرة قبلهم ، وكان يجعل لكل مدينة زماماً واسعاً يتبعها

---

(١) علق ليفى بروفنسال على هذا اللفظ بقوله إن كل المخطوطات تورده فى صورة Reymon أو Remon وصحته ريميه ، وهو موضع ذكره ياقوت باسم ويميه (٤ / ٩٤٥) . وقد ورد ذكره فى الروض المعطار بصورته الصحيحة (انظر رقم ٨٠ ص ٧٩ من النص العربى) وقال إنها تعرف بمدينة بنى راشد .

(٢) انظر الذيل رقم ٦ على مقال ليفى بروفنسال الآنف الذكر ، ص ١٠٠ — ١٠١

ويخضع لسلطان المجلس البلدى فيها ، وكانت تسمى عندهم مونيثبيا Municipia ، وقد تناولنا هذا الموضوع بما فيه الكفاية من الشرح والتفصيل فى كتابنا « فجر الأندلس » فليرجع إليه من يريد التوسع فيه[١] .

وسأورد هنا نموذجين من كلام الرازى عن كور الأندلس ومدنها ، الأول خاص بكورة والثانى خاص بمدينة من الطراز الذى تحدثت عنه آنفا حتى يتبين الفرق بين مفهوم الكورة ومفهوم المدينة عند الأندلسيين ، إلى جانب ما يتجلى من خصائص هذه الجغرافية البشرية التى كتبها الرازى :

« كورة بلنسية[٢] : ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية ، وهى شرق من تُدْمِير وشرق من قرطبة[٣] ، ولِحِطَّةِ بلدها مسافة بعيدة ، ومنافعها لأهلها عظيمة . جمعت البر والبحر والزرع والضرع ، ولها السهل والجبل .

« وبها مدن عظيمة وحصون قديمة ، فمن مدائنها مدينة بلنسية ، وهى المعروفة بمدينة التراب ، ولها حصن ارغيرة ؛ ودانية ، وهى على ضفة البحر ، ولها أقاليم كثيرة متسعة ، ومرساها من أعجب المراسى ، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون ؛ ومدينة الجزيرة ، ومبتناها على نهر شقر .

---

(١) فجر الأندلس ، ص ٥٦٥ وما بعدها .

(٢) أخذت هذه القطعة من نص « تعليق منتق من فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى الذى نشره الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ ج ٢ ص ٢٨٥ ، فقد تبين لى بعد البحث والمقارنة أن معظم القطع التى أوردها الذى قام بعمل ذلك التعليق المنتق إنما هى من كلام الرازى نفسه . وسيرى القارىء فيما يلى كيف أن مواضع الخلاف بين هذا النص والترجمتين الاسبانية والبرتغالية لجغرافية الرازى قليلة .

(٣) فى الترجمة البرتغالية : E. Vallença jaz no levante de Tussuyr et ao levãte de Cordova
وفى الترجمة الاسبانية : et Valencia yace al levante de Tudemir et al levante de Córdova
وقد ترجمها ليفى بروفنسال «شرق من تدمير وغرب من قرطبة» وهو غير صحيح لأن الأقرب إلى المفهوم الجغرافى فى تلك العصور : شرق من تدمير وشرق من قرطبة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الساحل الشرقى الحالى كان يسير من الشرق إلى الغرب موازيا لساحل افريقية ، وعلى هذا فتكون بلنسية إلى شرق تدمير وهى مرسية وهذه إلى شرق قرطبة . و Tussuyr الواردة فى النص البرتغالى تصحيف للفظ تدمير وقد ورد فى صورته الصحيحة فى هامش الصفحة السابقة ٤٨

« ولها من المدن والمعاقل حصن شاطبة ، وهو قديم أوَّلِيٌّ مطل على بطاح وأنهار ؛ ومدينة مُرْبِيطَر ، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر ، يحار فيه الناظرُ وتعجز عنه الحكاية .

« ويتصل بها إقليم بُرِّيانة ، ولها أرض طيبة . ولها مدينة أُنْدَه ، وهى كثيرة المياه غزيرة الفواكه ، فيها معدن حديد . ولها مدينة شُتُرُب[1] ، يجود فيها القمح والكتان . ولها حصن شارقة وغيره من الحصون . ومدينة جزيرة شقر فيما بين بلنسية وشاطبة » .

وهذه عبارة موجزة ولكنها وافية بالغرض من مقدمة جغرافية ، وكل لفظ فيها له قيمته الجغرافية ومعناه الاصطلاحى الخاص . فالحوز هو زمام الكورة كله ، أى ما يتبعها من الأرضين والبلاد . وخطة البلد هى المساحة التى تغطيها المدينة نفسها وما يتبع حكومتها من الارباض والقرى . ومعنى أنها جمعت البر والبحر هو أنها ميناء له ميزات الموانى ومدينة لها خطة واسعة ، أى يتبعها ما يسمى بالهِنْتَرْلاَنْد أى الأرض الزراعية التى تغذيها بالاطعمة والمحاصيل الوافرة ، ولهذا يقول بعد ذلك أنها جمعت الزرع والضرع ، ثم يضيف أنها جمعت ميزات السهول وميزات الجبال ، وهى عبارة لها معناها الاقتصادى والعمرانى .

أما قوله إن لها مدنا عظيمة وحصونا قديمة فيراد به إحصاء ما يتبع كورة بلنسية من المدن الكبيرة وما يدخل فى زمامها من الحصون المنيعة ، لأن « القديمة » هنا تشمل معنى القدم ومعنى المنعة فى آن واحد ، ولم تكن هناك حصون مهجورة أو متروكة ، لأن الحصون كانت تقام فى مواقع معينة لها ميزاتها

---

(١) هكذا ضبطها ياقوت (معجم البلدان ٥/٢٣١) والغالب أنه نقل رسمها من العذرى . وليس بين بلدان بلنسية موضع بهذا الإسم ، وإنما الموجود Segorbe وهى اسقفية تابعة لبلنسية من الناحية الدينية ولمديرية قسطليون Castellón de la Plana من الناحيتين الإدارية والقضائية .
Cf. Madoz, *op. cit.* XIV, 67-74.

العسكرية والدفاعية ، فكانت لهذا تجدد وتعمر بالجند وتشك بالسلاح عصراً بعد عصر . وذكر الحصون هنا إشارة إلى منعة الكورة وأمان ساكنيها .

ثم يبدأ الرازى بذكر المدن ، وكلامه عنها مختصر ، لأنه سيفصل تاريخ إنشائها وبناء عمائرها فيما يلى من التاريخ ، وسنرى العذرى يأخذ من المادة التاريخية للرازى ما يتصل بإنشاء المدن وما أضافه الأمراء والخلفاء إلى عمارتها ويجعله مع جغرافيته . وهو يذكر من مدن كورة بلنسية القاعدة نفسها ويقول إنها المعروفة بمدينة التراب ، ويضيف إليها حصنا لم أستطع تحقيقه وهو أرغيره ، ويبدو أنه تحريف لاسم حصن صغير لم يبق له وجود . والنص البرتغالى يحرفه إلى Aljazira أى الجزيرة ، والمراد جزيرة شقر ، وهو غير صحيح ، لان الرازي سيذكر جزيرة شقر بعد ذلك ، وقد راجعت مادة بلنسية المطولة عند العذرى فلم أجد فيها حصناً بهذا الاسم . وهو لا يفصل بعض الشيء إلا عند الكلام على دانية . وقد لاحظت عند المراجعة أن نص فرحة الأنفس سقط منه اسم مدينة مربيطر ، وهو موجود فى الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

وإذا نظرنا إلى هذه المادة فى مجموعها تبينا أنها تقدم لأهل العصر أهم ما يحتاجون إليه من المعلومات عن كورة بلنسية[1] ، فهو يحدد الموقع والحدود والمدن والحصون ويذكر الميزات الخاصة من الوقوع على البحر والاتصال بالسهول والأنهار ، ثم يذكر الحاصلات سواء أكانت زراعية أم معدنية ، مع إشارة واضحة إلى الحصون التى تعطى الناس فكرة عن منعة الناحية وأمان من فيها .

وننتقل الآن إلى نموذج من كلامه عن مدينة ، أى عن قسم إدارى يشبه الكورة ، ولكنها كورة عسكرية تقوم فى منطقة الثغر أو فى ناحية هامة من الوجهة

---

(١) سنورد عند كلامنا عن العذرى كلامه عن نفس الكورة — أى بلنسية — وذلك حتى نتبين كيف أن هذا الأخير أخذ كلام الرازى واعتبره أساساً ثم أضاف إليه الكثير من عنده ، مما يدل على تطور مضطرد فى التأليف الجغرافى عند الأندلسيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحربية ، كالمنطقة التى تقوم فيها عاصمة الخلافة وهى قرطبة ، فهذه لم تكن معتبرة كورة بل مدينة كورة ؛ والمنطقة الواقعة إلى شمالها ، وهى فِرِّيشْ ، كانت أيضا معتبرة مدينة لها حكومة يغلب عليها الطابع العسكرى الدفاعى ، مدينة كورة إذا شئنا مزيدا من التوضيح . وسنختار مدينة تُطِيلَة :

« [وتتصل أحواز مدينة أشقة بأحواز مدينة تطيلة][1] ، [وهى فى جوف أشقة وشرق قرطبة][2] ، حازت الغاية من شرف البقعة ، وحوت طِيبَ الزرع ودَرَّ الضرع وكثرة الثمار والأنهار[3] . [وأنهارها كلها تنصب فى نهر إبره][4] ، ويطيف بِجَنَّات تطيلة نهر كالش[5] ، وهى أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التى يدخل منها إلى أرض المشركين[6] ، [وعند باب تطيلة القنطرة المقامة على نهر إبره ، وتحت أقواس القنطرة الارحاء التى تدفعها مياه النهر أبدا[7]] ، واختطت تطيلة فى أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[8] . [وكان الذى اختطها عمروس بن يوسف ، وكان يوسف هذا عاملا على سرقسطة وتوابعها][9] .

[ومن كبار مدائنها طرسونة[10]] وكانت مستقر العمال والقواد بالثغور ، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الارض اختارها محلا وآثرها

---

(١) ترجمت هذه العبارة عن الترجمتين البرتغالية والاسبانية مستخدما مصطلح الرازى . وعند ياقوت « مدينة بالأندلس فى شرق قرطبة تتصل بأعمال أشقه » (٣٩٢/٢) ، وفى الروض المعطار : « مدينة بالأندلس فى جوفى وشقة ، وبين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة » (ص ٦٤) .

(٢) ترجمت هذه العبارة أيضا مستعينا بعبارة الروض المعطار الواردة فى التعليق السابق .

(٣) هذه العبارة واردة بنصها فى « التعليق المنتق » (ص ٢٨٧) .

(٤) وردت هذه العبارة فى الترجمتين البرتغالية والاسبانية ، ولم ترد فى الأصول العربية التى لدينا .

(٥) وردت هذه العبارة فى الترجمتين وفى الروض المعطار (ص ٦٤) ونهر كالش هو Queiles من نهيرات إبره .

(٦) انفرد بإيراد هذه العبارة « التعليق المنتق » (ص ٢٨٧) ومن الطبيعى أن تسقط فى الترجمتين .

(٧) هذه العبارة وردت فى الترجمتين ولم ترد فى أى من الأصول العربية ، فأضفتها بين حواصر .

(٨) كذلك هذه العبارة ، ولكنها وردت مفصلة عند العذرى .

(٩) هذه العبارة وردت فى الترجمة البرتغالية محرفة جدا وقد أصلحها على هذه الصورة ليفى بروفنسال فى ترجمته الفرنسية (ص ٧٦) .

(١٠) لم ترد هذه العبارة فى الترجمتين ؛ والسياق لا يستقيم بدونها .

على مدن الثغور منزلا . وكانت تَرِدُ عليه عشر مدينة أربونه وبرشلونة . ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة ، وإيثارهم لها لفضل بقعتها واتساع خطتها[١] .

« ولإقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة ، أخصها أرنيط Arnedo ، وهى مدينة أولية[٢] . [وهناك أيضاً مدينة قلهرة ومدينة ناجرة وبقيرة Viguera ولها حصن فى غاية المنعة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها][٣] .

[ومن تطيلة إلى سرقسطة ٣٠ ميلا ، ومن قلعة أيوب إلى تطيلة ٢٥ ميلا ، ومن قلهرة إلى تطيلة ١٢ ميلا ، ومن ناجرة إلى تطيلة ٥٠ ميلا ، ومن بقيرة إلى تطيلة ٣٣ ميلا ، ومن أرنيط إلى سرقسطة ٨٠ ميلا ، ومن طركونة إلى تطيلة ١٢ ميلا] »[٤] .

وواضح جداً من وصف الرازى « لمدينة » تطيلة أنه يتحدث عن منطقة عسكرية ثغرية ، فهو يتكلم عن الحصون والقلاع والميزات الحربية للمنطقة كلها ، بخلاف ما رأينا من كلامه على كورة عادية مثل بلنسية ، فهو يتكلم هناك عن الزروع والثمار والخيرات والمراسى والمعادن وما إلى ذلك . ومما يستوقف النظر استعماله

---

(١) هذه العبارة كلهـــا وردت فى الروض المعطـــار ص ١٢٣ وقد أخذها ابن عبد المنعم الحميرى بنصها عن الرازى بدليل وجودها فى الترجمتين الاسبانية (طبعة جاينجوس ص ٤٥) والبرتغالية (طبعة لندلى سنترا ص ٥٤ — ٥٥) . وانظر أيضاً مقال ليفى بروفنسال عن جغرافية الرازى مقابل ص ٥٦) .

(٢) وردت هذه العبارة فى الروض المعطار رقم ١١ ص ١٤ . وقد أدخل المترجم الاسبانى بخصوص هذا البلد ما يلى :

Et quando Espania de Moros era, era Arrayt (sic. L. Arnyt) su escudo contra los cristianos

= وعندما كانت اسبانيا بيد العرب كانت ارنيط درعا لهم من النصارى .

(٣) ترجمت هذه العبارة من الترجمتين الاسبانية (ص ٤٥) والبرتغالية (ص ٥٥) . وقد وردت فى التعليق المنتق مختصرة هكذا : « ومدينة فارة ومدينة تاجرة » وأظن أن فارة هذه تصحيف لاسم قلهرة إذ لا توجد هنا مدينة باسم فارة .

(٤) ترجمت هذه الفقرة عن الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

لفظ قصر بمعنى الحصن ، فقد استعمل الأندلسيون هذا اللفظ بمعناه الأصلى ، إذ من المعروف أن العرب أخذوه من Castra اللاتينى . وهذا يعلل لنا استعمال لفظ alcázar فى الاسبانية بمعنى القلعة .

وهذان النموذجان كافيان لاظهار ميزات هذه الجغرافية وما استطاع أحمد بن محمد الرازى أن يحشده فيها من المعلومات على اختصارها . فلو اننا أردنا أن نقدم اليوم وصفاً جغرافياً جامعاً مختصراً للأندلس الإسلامى لما احتجنا أن نضيف إلى كلام الرازى شيئاً ، وهذا خير تقدير لذلك الجغرافى العربى الذى كتب فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى .

ومن الدلائل الناصعة على أهمية جغرافية الرازى اعتماد الاسبان عليها حتى القرن الثالث عشر فى حل الكثير من مشاكل التنظيم الإدارى التي اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين . ومما يؤيد ذلك أن الرازى أورد فى جغرافيته هذه بعد ذكر الأنهار والجبال تقسيمها الكنسى ، وهو المعروف بقسمة قسطنطين ، والمراد به تقسيم اسبانيا إلى مناطق كنسية تتبع كل منها لأسقفية على رأسها أسقف ، وهو تقسيم عام للعالم المسيحى كله وضعه رجال الدين من النصارى بعد صدور منشور ميلان سنة ٣١٣ ميلادية . وقد أخذ الرازى ما يخص اسبانيا منه عن إحدى القوائم التى تبين ذلك التقسيم Nomina Sedium Episcopalium والتى كانت متداولة فى اسبانيا على أيام العرب . ومن الغريب أن هذه القوائم اللاتينية كلها كانت قد ضاعت قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . فقد ذكر بسكوال دى جيانجوس انه عندما استولى الملك خايمه الملقب بالغازى Jaime el Conquistador على بلنسية سنة ١٢٣٩ ثار نزاع بين اسقفيتى طليطلة وطركونة حول تبعية اقليم بلنسية لأيهما ، ولم ينحسم النزاع إلا بعد أن « قدِّمت إلى المجلس المختص أربعة كتب عربية وقرئت بمعرفة رجل عربى وآخر يهودى ، وأحد هذه الكتب للرازى الذى قيل إنه عربى ألف كتباً كثيرة فى الفيزياء ، والثانى تأليف Abiba Cacahabi الذى كان ضليعاً فى

شريعة العرب ، وتبين من هذين الكتابين ومن الاثنين الآخرين — أنه فى تقسيم قسطنطين لاسبانيا إلى ست مناطق (كنسية) يتبع اقليم بلنسية اسقفية طليطلة[1]».

ويبدو أن Abiba Cacahabi المشار إليه فى النص هو أبو عبيد البكرى ، إذ أن صورة اسمه كما كانت تكتب كانت شيئاً قريباً من Abuuba(id)Albakri والتحريف من هذه الصورة إلى الصورة التى وردت فى النص اللاتينى ممكن جداً ، خاصة فى الكتابات الاسبانية من القرن الثانى عشر فصاعدا ، فقد كان معظم أصحابها لا يعرفون من الأسماء العربية شيئا ، ويحرفون ما يصادفونه منها على نحو قل أن نجد له مثالا فيما نعرف من صور التحريف والتصحيف .

والمهم لدينا أن هذا النص يثبت أن قسمة قسطنطين التى أورد نصها البكرى منقولة عن جغرافية الرازى ، ولهذا فسنوردها ضمن نص هذه الجغرافية عند ما يتيسر لنا نشرها[2]

---

(١) أورد بسكوال دى جيانجوس نص هذا الخبر باللاتينية مع ترجمته إلى الاسبانية . ونظرا لأنى اعتمدت على هذا النص فى القول بأن قسمة قسطنطين التى أورد نصها البكرى منقولة من الرازى ، أورده هنا :

«Postquam cuatuor libros arabicos in judicio nobis exhibitos inspetimus, et fecimus legi in libris illis per unum judaeum et alium sarracenum, et ipsi legentes in dictis libris, scilicet in libro Rasis, qui multos libros fecerat de physica, ut sarracenus decibat, et in libro Abiba Cacahabi, qui peritus fuerat in legibus eorum, et in duodus aliis libris, quorum auctores non erant; dixerunt nobis quod intra sex divisiones dictas factas a Constantino Imperatore in Hispania, erat civitas Valentia sub civitate Toleto», Loaysa, *Collectio Conciliorum Hispaniae*, p. 131. Cf.: Pascual de Gayangos. *Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis*, leída en la Real Academia de la Historia, p. 9.

(٢) راجع عن ذلك الفصل الحادى عشر عن « الادارة والمال » فى فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ فقد تناولنا فيه الأصول العربية التى نعتمد عليها فى جمع جغرافية الرازى وخصوصا ابتداء من ص ٥٣٤ . وقد ناقش موضوع أصول الرازى الأستاذ كلاوديو سانشيث البرنوث الظر :

Claudio Sánchez Albornoz: *Fuentes latinas de la historia romana de Rasis* (Publicaciones del Instituto Argentino Hispano-Arabe). Vol. I. Buenos Aires, 1942.

ولنفس المؤلف :

Fuentes para el estudio de las divisiones eccleslásticas visigodas, (Boletín de la Universidad de Santiago, 1934) p. 44 sqq.

Fr. Javier Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 739-808.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوراق ، أبو عبد الله محمد بن يوسف

ومن معاصرى احمد بن محمد الرازى رجل يعد فى طليعة جغرافيي المغرب والأندلس وإن لم يبق لنا مما كتب إلا قطع قليلة معظمها عند أبى عبيد البكرى وابن عذارى . وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالوراق (٢٩٢/٩٠٤—٣٦٣/٩٧٣) ويلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتأليف فى هذا الفن . وهو أندلسى أصله من وادى الحجارة ، ثم هاجر به أهله إلى إفريقية واستقروا بالقيروان ، وبها نشأ وتعلم وانتشر له صيت فى العلم بأحوال إفريقية والمغرب وتاريخهما ، واجتذبه بلاط الحكم المستنصر الأموى والجو العلمى الذى يحيط به ، فشد رحاله إلى قرطبة ، واتصل بالحكم ، وكان هذا معنيا بشئون المغرب مهموما بمحاولات الفاطميين لبسط نفوذهم عليه ، فوجد فى هذا القيروانى عالما بشئون أقطار المغرب وتاريخها ، فقربه إليه وحفزه على التأليف ، فكتب له « كتابا ضخما فى مسالك افريقية وممالكها » وألف « فى أخبار ملوكها والغالبين عليهم (أى على أهل افريقية) كتبا جمة » ، وكذلك ألف أيضاً « فى أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة هنالك ، وغيرها تواليف حسانا[1] ». فأما كتابه عن مسالك افريقية وممالكها فقد استصفاه أبو عبيد البكرى فى كتابه « المسالك والممالك » وأما رسائله الأخرى فأعتقد أن ابن عذارى لخص الكثير منها فى « البيان المغرب » ؛ فنحن نجد فى الجزء الأول الخاص بتاريخ المغرب من هذا الكتاب فصولا معترضة عن تاريخ بعض نواحى المغرب التى نسب الحميدىُ إلى الوراق كتبا فى تاريخها ، ففى أثناء حديثه عن أبى عبد الله الداعى ومسيره إلى سجلماسة لاستنقاذ عبيد الله الشيعى من سجن صاحبها اليسع بن مدرار

---

(١) جذوة المقتبس للحميدى رقم ٩٠ — بغية الملتمس للضبى ، رقم ٣٠٤ ص ١٣١ — التكملة لابن الأبار ، رقم ٣٤٤ ص ٣٤٤

يضيف فصلا قائما بذاته فى « التعريف بأمر سجلماسة من ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة »[١] ، وبعد أن يورد خبر خروج أبى القاسم الشيعى لغزو مصر للمرة الثانية يورد فصلا عن « تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة[٢] المؤرخة » وفى أثناء كلامه عن حوادث سنة ٣١٨/٩٣٠ أثناء حكم عبيد الله الشيعى نجد كلاما عن « مدينة جراوة »[٣] ثم ذكر « مدينة تيهرت »[٤] ثم نجد فصلا قائما عن تاريخ تيهرت بعنوان « ذكر من ملك مدينة تيهرت من حين ابتدائها من بنى رستم وغيرهم[٥] » ، وفى حوادث ٣٥٢/٩٦٣ وبمناسبة وفود أبى صالح زمور البرغواطى رسولا من أمير برغواطة على الحكم المستنصر فى هذه السنة يقول إن الحكم سأل الرسول عن نسب برغواطة ومذهبهم ، فأخبره ، ثم يلى ذلك « خبر برغواطة » وهو فصل كامل عن تاريخ هذه[٦] القبيلة ، وبعد ذلك بقليل نجد فصلا عنوانه « ذكر مدينة[٧] أصيلا » وهو تاريخ مجمل لها ، ويليه فصل عن تاريخ مدينة البصرة (المغربية) بعنوان « ذكر من ولى مدينة البصرة »[٨] .

وهذه الفصول كلها معترضة ، وابن عذارى بعد أن يفرغ من كل منها يقول : « فلنرجع إلى نسق هذا التاريخ » مما يدل على أنه أخذ هذه القطع من أصول غير التى كان يعتمد عليها فى « نسق التاريخ » . فإذا لاحظنا أن معظم هذه الفصول يدور حول تواريخ تلك النواحى من إفريقية التى نسبت للوراق

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ، (طبعة كولان وبروفنسال) ج ١ ص ١٥٦
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٦
(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٩٧
(٦) نفس المصدر ، ص ٢٢٣
(٧) نفس المصدر ، ص ٢٣٢
(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٥

كتب عنها مال بنا الظن إلى أنها مستقاة من رسالات الوراق . ويقوى هذا الظن ذلك الخبر المروى عن تاريخ برغواطة ، وهو خلاصة حديث أُدلى به إلى الحكم المستنصر ، وكان الوراق هو العالم الموكل بهذه الناحية فى بلاطه ، ومن المستبعد أن يكون قد فاته تدوين هذا الخبر الطويل ، وهو الإفريقى المعنى بأخبار المغرب وجغرافيته ، خاصة وقد كانت له عناية بأنساب البربر واشتغال بالتأليف فيها ، فقد ذكر له البيدق خادم محمد بن تومرت كتابا سماه « أنساب البربر » وأخذ عنه فى موضعين . ومن الغريب أن هذا الكتاب فات صاحب « مفاخر البربر » فلم يذكره أو يشر إليه أو إلى صاحبه ، ربما لأن الوراق لم يكن بربرى الأصل والنسب ، لأن مؤلف مفاخر البربر لا يعنى إلا بذوى الأصول البربرية .

والمهم لدينا أن محمد بن يوسف الوراق أول من كتب فى الغرب الإسلامى كتابا بعنوان « المسالك والممالك » ؛ وهكذا نرى أن أول جغرافى أندلسى — احمد الرازى — كان بلدانيا ، فى حين أن ثانى جغرافى كتب فى الأندلس كان مسالكيا . ومن المقتبسات التى نقلها عنه البكرى يتبين أنه هو الذى ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، أى الوقوف عند كل موضع وقعت فيه واقعة تاريخية وذكرها فى شىء من التفصيل ، وهى طريقة سيسير عليها البكرى فى أجزاء كثيرة من « مسالكه » ، وسيتبعها نفر من الرحالة كالتجانى بعد ذلك .

وقد اعتمد البكرى على مسالك الوراق اعتمادا تاما فى الجزء الذى كتبه عن افريقية ، ومن حسن الحظ أن هذا الجزء قد وصل إلينا كاملا . والبكرى يسند إليه ما يقتبسه منه أحياناً ، ولكنه لا يسند أحيانا أخرى ، ولهذا فنحن لا نستطيع أن نتبين على وجه التحديد نصيب الوراق من كتاب البكرى ، خاصة وأن هذا الأخير لم يكن مجرد ناقل ، بل كان جغرافيا متصرفا يعدِّل فيما ينقله ويزيد عليه وينقص منه ، ويعسر لهذا إصدار رأى قاطع فى هذه الناحية ، وسنشير إلى ذلك فى كلامنا عن البكرى . ويكفى أن نقرر هنا أن محمد بن

يوسف الوراق كان أحد أعلام المدرسة الجغرافية التى ازدهرت أيام الحكم المستنصر برعايته وتشجيعه . وانه لمن الفريد فى تاريخ الفكر الإسلامي ذلك النشاط المتعدد الجوانب الذى بعثه ذلك الخليفة العلامة فى بلاده ، فهو يستجلب كتب اليونان واللاتين ويأمر بترجمتها ، ويستدعى علامة مغربياً ويطلب إليه التأليف فى تاريخ بلاده وجغرافيتها ، بل لا يكاد يفد عليه رسول من بلد بعيد حتى يطلب إليه أن يكتب رسالة أو رسائل عن بلاده أو عن أمر من أمورها ثم يحتفظ بهذه الرسالات فى مكتبة القصر العامرة ، لا لتكون جزءً من محفوظات الدولة ، بل لكى تكون مرجعاً للعلماء والبحاثين فيما يطلبونه من المعلومات عن هذا البلد أو ذاك ، فقد رأينا الوراق يورد نص رسالة كاملة أدلى بهـا رسول من أهل إفريقية للحكم . وفى الفقرة التالية سنرى فضلا آخر من أفضال الحكم المستنصر على العلم الذى يعنينا فى هذا البحث .

ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى

ومن معاصرى احمد بن محمد الرازى أيضاً يهودى من أهل طرطوشة يسمى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويسمى أيضاً ابراهيم بن يوسف ، وكتبه بعضهم ابراهيم بن احمد . وهو تاجر ممن كانوا يعملون فى جلب الرقيق الأوروبى إلى الأندلس ، ولهذا كان يقوم برحلات إلى المانيا وبلاد الصقالبة وشمالى أوروبا . وقد كتب هذا الرجل رسالة للحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى المانيا أيام الامبراطور أوتو الكبير على الأغلب ، واحتفظ لنا البكرى بجانب كبير من هذه الرسالة فيما بقى لنا من أجزاء جغرافيته . وقد عنى بهذا الجزء نفر من المستشرقين مثل كونِكْ وروزن وفيجَرْسْ وجيورج ياكوب فنشروه على حدة وترجموه إلى الروسية والألمانية والهولندية .

ومن الباحثين من كان يستبعد أن يكون ابراهيم بن يعقوب أندلسياً ، وغلب على رأيهم أنه من المغرب ، ولكن العذرى يسميه الطرطوشى ، والبكرى يضيف إلى اسمه : الإسرائيلى ، وعنه فى الغالب أخذ ابن عبد المنعم الحميرى صاحب الروض المعطار . وقد أورد له العذرى فقرة تدل على أنه كان بالفعل أندلسياً عارفا بشئون الأندلس ، وأورد له البكرى قطعة أخرى من هذا الطراز[1] . ثم إن رسالته إلى الخليفة المستنصر تؤيد هذا الرأى .

والقطعة التى أوردها البكرى من رسالة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى تصف رحلته إلى شرق أوروبا ، وكيف عبر البحر الأدرياتى ووصل إلى بلاد « صقالبة الغرب » ، وزار براج وشرق المانيا ووصل إلى مجدبرج حيث كان الامبراطور أوتو يقيم ، وهناك التقى مع أعضاء سفارة من عند ملك البلغار ، ثم سار بحذاء نهر الألب ، ومضى فى بلاد الصقالبة حتى وصل إلى إشفارن (Schwerin) على مقربة من البحيرة المسماة بذلك الاسم . ومن العسير تحديد خط سيره على وجه الدقة ، لأن أسماء المواضع فى النص الذى لدينا محرفة تحريفاً شديداً ، ولكن التفاصيل التى يعطيها عن بلاد الصقالبة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخهم ، وخاصة الغربيين منهم . ويقدم لنا الطرطوشى معلومات طريفة عن تجار العرب الذين لقيهم فى المانيا مقبلين من بلاد المجر ، فيقول إنهم كانوا يحملون من هناك الدقيق والقصدير والفراء . ومن الطريف أنه زار بلاد الخزر جنوبى ما يعرف اليوم ببحر قزوين ولم يقل إن أهلها يهود ، وكتّاب اليهود يطيلون الحديث عن دخول الخزر فى اليهودية وانتشار هذه الديانة بينهم فى ذلك الحين .

---

(١) لم نعثر إلا على فقرتين من كلام ابراهيم بن يعقوب عن اسبانيا ، وسننشرها فى آخر هذا الكلام نقلا عن مخطوطة المسالك والممالك للبكرى التى احتفظت لنا بقطعة لا بأس بها من صفة الأندلس .

وهذه القطعة ذات أهمية كبرى بالنسبة للروس القدامى وأحوالهم ، وقد فصل ذلك كونك وروزن تفصيلا وافيـاً فى دراستهما حول هذه القطعة[١] .

ويذكر القزوينى فى « عجائب المخلوقات » أن أحمد بن عمر بن أنس العذرى اعتمد على ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى فى مواضع كثيرة من جغرافية الأندلس التى كتبها (وسنتحدث عنها) ، وبالفعل نجد فى نص العذرى إشارة إلى ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ونقلاً عنه فى مادة تُدْمير (مرسية) بمناسبة شجرة زيتون عجيبة « فى حومة بجبل على مقربة من مدينة لورقة[٢] » وقد نقل ذلك الخبر ابن عبد المنعم الحميرى (عن البكرى عن العذرى فى الغالب)[٣] . والخبر مؤرخ بسنة ٣٥٠ / ٩٦١ (يجعله ابن عبد المنعم الحميرى

---

(١) بين أهمية هذه الرسالة دى خويه فيما درسه من « المسالك والممالك » للبكرى ، وكان شيفر Schefer قد عثر على ذلك الجزء فى مكتبة جامع نورى عثمانى فى الاستانة سنة ١٨٧٥ . وفى سنة ١٨٧٨ نشر النص العربى للرسالة ا. كونك و ف. روزن مع مقدمة وترجمة إلى الروسية :

A. Kunik i V. Rosen: *Izvestija al-Bakri i drugich avotrov o Rusi i Slavjanach*, I, St. Petersburg 1878.

(أخبـار البكرى وغيره من الكتاب عن الروس والصقالبة) . وقد أضاف كونك إلى النص تعليقات ضافية . وفى سنة ١٨٨٠ نشر دى خويه ترجمة هولندية للأصل العربى وجانباً كبيراً من تعليقات كونك فى :

Verslagen in Mededelingen der Konigelijeke Akademie van Wetenschappen. Afdeeling Letterkunde. 2 de Reeks. Deel IX. Amsterdam 1880, S. 187-216.

والنظر أيضاً :

Mémoires de l'Académie Impériale des Sciences de Saint-Petersburg. (Appédice vol. XXXVI).

أما بحث فيجرز Th. Wiggers فقد نشر فى

Jahrbericht des Vereins für mecklenburgische Geschichte und Altertumskunde. 43. Jahrgang, Schverin 1880, S. 3-20.

G. Jacob: *Ein arabischer Berichterstatter aus dem 10. Jahrh. über Fulda, Schlesuvig, Soest, Paderborn und andere Städte des Abenlandes.* Berlin, 3, Auflage 1896.

Arabische Berichte ·· Gesandten an germanische Fürstenhöfe des 9. u. 10. Jahrhts. übersetzt und erläutert (Quellem zur deutschen Volkskunde, 1) Berlin, 1927.

والنظر : بروكلمان . ملحق ١ / ٤١٠

(٢) العذرى ، نظم المرجان ، مخطوط ، مادة تدمير .

(٣) الروض المعطار : ١٧١ ويسميه ابراهيم بن يوسف .

سنة ٣٠٥ خطأً) مما يدل على أنه كان عند « ملك الروم » فى هذه السنة ، والمراد به أتو الكبير امبراطور الدولة التيوتونية التى تسمى بالرومانية المقدسة أيضاً ، وهذا التاريخ صحيح فإن ف. روزن و ا. كونك يجعلان زيارته لأتو حوالى سنة ٩٧٣ (٣٦٢ و ٣٦٣ هـ) .

وقد اعتمد البكرى على ما كتبه ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى اعتماداً يكاد يكون تاماً فيما كتب عن وسط أوروبا وشرقها ، والقطع التى أدرجها فى مسالكه هى أطول ما بقى من كتابه وأدله على طبيعة مادته الجغرافية ، ومن حسن الحظ أننا عثرنا عليها ، وقد نشرها كونك وفون روزن كما قلنا ، واعتمادنا هنا على نشرتهما التى سبق أن أشرنا إليها وكذلك على الترجمة الألمانية التى قام بها جيورج يا كوب .

وعلى الرغم من التحريف الشديد للاعلام الجغرافية فى مخطوطة البكرى فقد استطاع الناشران والمترجم تحقيق معظمها . ويكفى أن نذكر أن اسم مجدبورج ورد « مادى فرغ » وبوهيميا (Böhmen) وردت بويمية والنورمان ورد المرمان وما إلى ذلك . وبعد تحقيق هذه الأسماء وأعلام الأشخاص تبينت القيمة الحقيقية لما كتب سواء من الناحية الجغرافية أو التاريخية . وأهم ما فى الكتاب من هذه الناحية الأخيرة كلام ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى عن تجارة الرقيق فى أوروبا فى ذلك العصر ، وقد كان هو نفسه من المشتغلين بها على ما ذكرناه .

وابراهيم بن يعقوب الطرطوشى رحالة ، ولكن وصف رحلته أقرب إلى كتب البلدانيين والمسالكيين ، فهو يذكر البلدان ويصفها ويعدد حاصلاتها وما يتاجر فيه أهلها ، ثم يذكر الطرق ومسافاتها بالأميال ، وكل ذلك بتفصيل واسع تتخلله معلومات هامة عن الأحوال الاجتماعية والسياسية .

وفيما عدا الفقرات القليلة التى أوردها العذرى وابن عبد المنعم الحميرى مما كتب ابراهيم بن يعقوب عن الأندلس لا نجد إلا فقرات قصيرة بقيت فيما وصل

إلينا من وصف الأندلس للبكرى ، وهى أوراق قليلة محرفة تحريفاً مؤسفاً بل إن سياقها مضطرب اضطراباً لم أستطع التعرف على سببه ، فإننا نجد فيه فقرة عن الأنهار تذكر نهراً من أنهار الأندلس ثم تقطعها وسط السطر بكلام عن الجليقيين وبعد بضع صفحات يعود الكلام عن الأنهار وهكذا .

وقد رأيت أن أورد هنا فقرتين استطعت أن أجمع شتاتهما ، وهى فى ص ٢٢٦ و ٢٢٧ من مخطوطة الخزانة العامة بالرباط :

« جملة القول فى بلاد الجليقيين وغيرهم من قبائل النصارى إلى بلد الصقالبة على ما أورده ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى :

قال ابراهيم : بلد الجليقيين جميعه سهل ، والغالب على أرضه الرمل ، وأكثر أقواتهم الدخن والذرة ، ومعولهم فى الأشربة على شراب التفاح والبشكة[1] ، وهو شراب يتخذ من الدقيق . وأهله أهل نجدة ودناءة أخلاق . ولا يتنظفون ولا يغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم ، ويقولون إن الوسخ الذى يعلوها من عرقهم ينعم أجسامهم . وثيابهم أضيق الثياب ، وهى مُفَرَّجَة يبدو من تفريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس وشدة ، لا يرون الفرار عند اللقاء فى الحرب ويرون الموت دونه .

ذكر البرتونيين[2] : لهم لغة تمجها الأسماع ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة . ولهم لصوص يقطعون على الافرنج ويسرقونهم . والافرنج يصلبونهم إذا ما ظفروا بهم . ومن البرتونيين والجليقيين والبشاكسة حشد طيطوش إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس .

---

(١) لعلها تقابل Vasco .

(٢) Bretones .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحمد بن عمر بن أنس العذرى الدلائى

أما العذرى الذى أشرنا إليه أكثر من مرة فيما سبق فهو أحمد بن عمر ابن أنس العذرى الدَّلائى ، نسبة إلى دلاية Dalías إحدى قرى المرية ، ولهذا فهو يسمى كذلك بالمرِّى نسبة إلى هذه الأخيرة ، وهو من أهل الطبقة الثانية من الجغرافيين الأندلسيين بعد أحمد بن محمد الرازى ومعاصريه ، فقد ولد فى المرية سنة ٣٩٣/١٠٠٢ وتوفى سنة ٤٧٦/١٠٨٣ أو ٤٧٨/١٠٨٥ ببلنسية .

وقد ترجم للعذرى الحميدى والضبى وابن بشكوال وياقوت ، ولكن ترجماتهم قليلة الغناء بالنسبة لنا ، فالحميدى يذكر أنه من المرية وأنه رحل مع والده « بُعَيْد الاربعمائة » إلى مكة ، « فسمع الكثير من شيوخها ومن القادمين عليها » ثم يلى ذلك بيان بمن سمع منهم ، وكلهم رجال فقه وحديث ، ثم يقول : « وكتب هناك قطعة كبيرة من المصنفات والتواريخ ، وسمعنا منه بالأندلس ، وكان حياً بها وقت خروجى منها فى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة »[1] أما ابن بشكوال فيقول إن رحلته إلى المشرق كانت سنة ٤٠٧/١٠١٦ وأنه جاور بمكة أعواماً من ٤٠٧/١٠١٧—١٠١٨ إلى ٤١٦/١٠٢٥ بعد أن سمع من شيوخ أجلاء من طبقة أبى ذر الهروى .

ونقل الضبى مادة الحميدى حرفياً تقريباً على عادته مع جذوة الحميدى[2] . وتتضمن مادة ابن بشكوال اسمه الكامل ونسبه : « أحمد بن عمر بن دَلْهَاث ابن عمران بن مُنِيب بن زُغَيْبَه بن قُطْبة العُذرى ويعرف بابن الدَّلائى ، من أهل المرية ، يكنى أبا العباس » . وربما دل هذا النسب على أن أعراقاً عربية

---

(١) الحميدى ، جذوة المقتبس بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى . القاهرة ١٣٧٢ ، رقم ٢٣٦ ص ١٢٧—١٢٩

(٢) الضبى ، البغية ، رقم ٤٤٦ ص ١٨٢—١٨٤

ومغربية اختلطت فيه وإن كان الدكتور عبد العزيز الأهوانى يرى أن الرجل عربى خالص من قبيلة عُذرَة ، ومن المحقق أن دَلاَية كانت دار عُذرَة بالأندلس ، كما يقول ابن حزم فى الجمهرة[1] . ويذكر ابن بشكوال أن أحمد العذرى بعد أن خرج من المشرق ، مر بمصر « ولم يكن له بها سماع » واستمر فى الطلب بعد عودته إلى الأندلس ، فسمع من شيوخ نذكر منهم أبا عمر بن عفيف وأبا محمد بن حزم ، ثم تصدر للاقراء فسمع منه رجال نذكر منهم أبا عمر بن عبد البر وأبا محمد بن حزم وأبا الوليد الوقشى وأبا على الصدفى ، وقد قال هذا الأخير : « أخبرنى أبو العباس أن مولده فى ذى القعدة ليلة السبت لأربع خلون منه سنة ٣٩٣ وتوفى رحمه الله فى آخر شعبان سنة ٤٧٨ ، ودفن بمقبرة الحوض بالمرية ، وصلى عليه ابنه أنس بتقديم المعتصم بالله محمد بن معن[2] (بن صمادح) » .

ويستوقف نظرنا فى هذه التراجم أنها تخلو من أى إشارة إلى اهتمامه بالجغرافية والتأليف فيها ، وهذا طبيعى لأن الاشتغال بالجغرافية لم يكن — فى رأى أهل هذه العصور — مما يستحق الذكر فى تراجم العلماء ، خاصة إذا كان العالم محدِّثاً من طبقة عالية كالعذرى ، فقد كان الرجل شيخاً من شيوخ عصره فى الحديث . وتلاميذُه لا يحصون كثره .

ولهذا فإن الانسان ليدهش من انصراف هذا المحدِّث الجليل إلى التأليف فى الجغرافية فى عصر فتنة وأخطار لم يكن الناس يعنون فيه إلا بعلوم الدين والأدب : الأولى لحاجة الناس إليها والثانى لأن أمراء ذلك العصر طلبوا الشعراء واستكثروا الأمداح وكانت هذه الأخيرة شارة الملك الوحيدة التى قدروا عليها .

---

(١) انظر عن منازل بنى عذرة بالأندلس :

Elías Terés, *Linajes Árabes en Al-Andalus*, Segunda parte Al-Andalus XXIII, fasc. 1, 1958, p. 365.

واصوص عن الأندلس للعذرى بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، المقدمة ، ص ا — ب

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١٣٦ ص ٦٩ — ٧٠

أما الذين أشاروا إلى تأليفه فى الجغرافية فهم الجغرافيون ، فقد ذكره البكرى وكتابه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وكذلك ذكره الإدريسى فى مقدمة « نزهة المشتاق » وذكره ابن عبد المنعم الحميرى ونقل عنه دون أن يذكر اسم الكتاب . وفى فهرسة ابن خير ذكر لكتاب آخر من تأليفه هو « افتضاض أبكار أوائل الأخبار » وظاهر من عنوانه أنه فى التاريخ ، وإن كان هذا العنوان ذاته لا يخلو من تكلف . وذكره ياقوت الحموى فى كلامه على المرية قال : « وينسب إليها أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى ، ويعرف بالدَّلاَئى المَرِىِّ . رحل إلى مكة ، وسمع من أبى العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو مكثر . سمع منه الحميدى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منهما وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعا منه . وله تآليف حسان منها كتاب أعلام النبوة ، وكتابه المسمى بنظام المرجان فى المسالك والممالك ، ومولده فى ذى القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية[١] » .

ومن حسن الحظ أن لدينا الآن قطعة من كتاب « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وقد حقق ما وجده منه الدكتور عبد العزيز الأهوانى لينشر بين مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ونحن نعتمد هنا على ذلك التحقيق الوافى ، وقد وجد المخطوط فى صورة أوراق غير مرتبة أو مرقمة ، بل لا توجد فى أواخرها ألفاظ الإحالة التى تعين على تعرف الورقة التالية ، وقد بذل الدكتور الأهوانى جهداً عظيما فى ترتيب الأوراق[٢] . والذى لدينا بعد ذلك يتضمن كور تدمير (مرسية) وبلنسية وسرقسطة ووشقة وقرطبة وإلبيرة واشبيلية ولبلة وشذونة والجزيرة الخضراء .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان (طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦) : ٤٣/٨

(٢) ولهذا فإننا لن نشير إلى صفحات المخطوط فى الفقرات التى سنوردها من جغرافية العذرى ، ونحن نعتمد على النسخة التى كتبها الدكتور الأهوانى بيده .

ومن هذه الأجزاء التى لدينا يتبين أن الكتاب كتاب جغرافية وتاريخ ، فإلى جانب المعلومات الجغرافية يورد العذرى تفاصيل تاريخية خاصة بالمواضع التى يصفها ، وهى تفاصيل طويلة معتمده فيها على أحمد بن محمد الرازى وابنه عيسى ، وفى أحيان كثيرة يكمل العذرى الأخبار إلى أيامه ، بل لدينا خبر يصل إلى سنة ٤٧٦ أى قبل وفاة المؤلف بسنتين .

وإذا كان العذرى قد لجأ إلى الاختصار فيما يتصل بالتاريخ ، فإنه على العكس من ذلك أسهب فى الجغرافية الاسهاب الذى نرجوه . وهو ينهج فى هذه الناحية منهجاً سليما لا نعرفه عند أحد ممن سبقه من الجغرافيين ، ويتلخص هذا المنهج فيما يلى :

١ — يقسم العذرى كتابه إلى ما يشبه الفصول ، كل فصل يدور حول كورة من كور الأندلس .

٢ — يبدأ الكلام بمكان الكورة من قسمة قسطنطين لا من تقسيم بطليموس ، وهو أمر يستوقف النظر ، فإن قسمة قسطنطين تقسيم كنسى اتفقت عليه المجامع الدينية النصرانية التى بدأت تنعقد بعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، والغرض منه تقسيم البلاد التى فيها مسيحيون إلى مناطق اسقفية ، وقد تم ذلك التقسيم على أساس التقسيم الإدارى للدولة الرومانية ، فاعتبرت كل مديرية من مديريات الدولة منطقة أسقفية يقيم الأسقف فى قاعدتها وتتبعه من الناحية الدينية كل البلاد الداخلة فى زمام تلك المديرية ، وهذا التقسيم الكنسى هو الذى أصبح فيما بعد أساساً للتقسيم الإدارى للدول التى قامت فى أوروبا بعد انتهاء الغارات الجرمانية واستقرار كل جماعة من الجرمان فى ناحية وإنشائهم دولة فيها . وقد حافظ العرب فى الأندلس على هذا التقسيم ولم يدخلوا عليه تعديلا إلا بالقدر الذى اقتضته الظروف الخاصة بنظام دولتهم ، وقد سبق أن شرحنا ذلك بالتفصيل فى بحث آخر .

٣ — ثم يعقب ذلك بذكر الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التى يتحدث عنها ، وهو يصف الطريق على أساس المحلات أو على أساس الأميال أو الفراسخ . والمحلة فى مصطلحه هى الموضع الذى يستطيع الركب أو المسافر أن يريح فيه ويتزود لما يليه . والأغلب أن تكون هذه المحلات هى المحطات المتعارف عليها فى تنقلات الجيوش ورجال الدولة ، فإذا صح هذا الفرض جاز القول بأن خطوط هذه المحلات تعين لنا الطرق الرئيسية التى كانت الدولة تعنى بصيانتها فى الأندلس .

٤ — ثم يلى ذلك الكلامُ على المدن التابعة للكورة واحدة واحدة . وهو يتكلم عن كل منها كلاماً مفصلا يعتمد على ما أخذه من أحمد الرازى أولا ، ثم يضيف من عنده تفصيلات غاية فى الأهمية تدل على اطلاع ومعرفة ومشاهدة أيضاً ، خذ مثلا المادة التى كتبها عن مدينة بلنسية : يبدأ بعبارة من كلام أحمد الرازى : « وهى قاعدة من قواعد العمال القديمة ، وإليها تنسب الكورة ، وهى مدينة التراب » ثم يقول : « قال أحمد بن عمر : وهى مدينة مسورة ، قد أتقن سورها المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، ولا يُعلم ببلاد الأندلس أتقن بناء من سورها ولا أجمل منه ، ولها خمسة أبواب :

الباب الشرقى يسمى بباب القنطرة ، ويُخْرَج منه على قنطرة قد صنعها المنصور عبد العزيز بن أبى عامر ، ليس فى الأندلس أتقن منها ، وعلى هذه القنطرة تخرج الرفاق إلى طليطلة وسرقسطة وطرطوشة وما هنالك .

وبعده إلى ناحية الشرق باب يعرف بباب الوراق ، ويُخْرَجُ منه ويُسْلَكُ إلى الربض على قنطرة خشب يُعْبَرُ عليها الوادى إلى ربض هناك .

وفى القبلة باب ابن صخر

وفى الجوف باب الحنش

وفى الغرب باب يعرف بباب بُيْطَالة

ويليه فى الغرب باب يعرف بباب القيسارية . ومن هذين البابين تخرج الرفاق إلى غرب الأندلس ، وإلى دانية وشاطبة والجزيرة » .

ثم يعقب ذلك بكلام عن أهل بلنسية وخلقهم فيقول : « وقد أطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم ، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم ، مليئاً كان أو فقيراً ، قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفُرَج ، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شىء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى . يقولون عند فلان عودين (كذا) وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك . وقد أُخْبِرْتُ أن مغنية بلغت فى بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة . وأما دون الألف فكثيرات » .

ثم يعود بعد ذلك فيضيف شيئاً خاصاً بوصف البلد يغلب أنه أخذه عن احمد الرازى : « وهى أطيب البلاد وأحسنها هواء وأجملها بساتين . ولها خطة فسيحة . وهى بلدة منيعة ، جمعت البر والبحر والزرع والضرع والفواكه . ولها سهل وجبل ومدن كثيرة وحصون » .

٤ — ثم يتحدث عن ثلاث مدن من كورة بلنسية هى شاطبة ودانية وجزيرة شقر . وحديثه عنها حديث العارف بما يصف المشاهد له . وتتخلل كلامه ملاحظات عظيمة الأهمية ، ففى حديثه عن شاطبة يقول « وفيها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب » وهى ملاحظة فريدة فى بابها بالنسبة لمن يدرس الأحوال الاقتصادية للأندلس وعلاقاته التجارية مع غيره من البلاد . وفى كلامه عن جزيرة شقر يقول « وهى جزيرة قد أحاط بها الوادى من جميع جهاتها ، ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدخل منه إلى هذه الجزيرة ، قد صُنِع فيه حفير ، وعليها من ذلك الموضع سور

وباب يُصعد إليه على درج » وهذا كلام دقيق لا يصدر إلا عن مشاهدة شخصية ، وتتبين لنا دقته إذا قارناه بما يقوله ابن عبد المنعم الحميرى فى هذا الموضع : « شقر ، جزيرة بالأندلس قريبة من شاطبة ، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا . وهى حسنة البقعة ، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار ، وبها أناس وجلة . وبها جامع ومسجد وفنادق وأسواق . وقد أحاط بها الوادى . والمدخل إليها فى الشتاء على المراكب ، وفى الصيف على مخاضة[1] » فهذا كلام عام لا يحدد شيئاً كثيراً ، وقد اختصر الحميرى ما قرأه عند العذرى اختصاراً مخلاً .

٥ — وللعذرى اهتمام خاص بالطرق ومسافاتها والمحلات التى تمر بها ، وإلى أى النواحى يؤدى كل منها ، وأى باب من أبواب المدن يفضى إليها . وهو دقيق جداً فيما يعطى من تفاصيل خاصة بذلك . ففيما يتصل بكورة بلنسية مثلا يذكر :

ا — أبواب مدينة بلنسية وإلى أى ناحية يؤدى كل باب .

ب — الطرق من مدينة بلنسية إلى المواضع التى من عملها ، فيذكر الطريق إلى مربيطر وإلى جزيرة شقر (٢٥ ميلا لا ١٨ كما قال الحميرى) وإلى حصن المنارة .

جـ — المسافات بين هذه البلاد بعضها وبعض ، وبينها وبين البلاد الهامة الأخرى من بلاد الكورة .

د — الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التى يتحدث عنها .

هـ — وهو يذكر مسافات هذه الطرق بالأميال فى الغالب ، ولكنه يكتفى بذكر المحلات فى أحيان قليلة ، والمحلات هى المحطات فى عرفنا ، وذكر الطرق على أساسها لا يقل قيمة ولا تحديداً عن ذكرها بالأميال بالنسبة للمسافرين فى العصور الوسطى .

---

(١) الروض المعطار : ١٠٢ — ١٠٣

وهو يذكر هذه الطرق ذكر من سار فيها وعرف ما يشاهده الإنسان فيما يمر به من مدنها وقراها ، فيقول مثلا : « من بلنسية إلى مُربيطَر ، وهو حصن شرق مدينة التراب ، خمسة عشر ميلا ، وفى مدينة مربيطر أثر للأول ، ولها من آثار الأول قصر يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية[١] » ويقول فى موضع آخر : « ومن أُنده على ثلاثة أميال قرية أرطانة ، وفى أعلى هذه القرية منبع عين يخرج من غار إلى حوض[٢] ، فيغزر الماء فى الحوض مرة ويقل أخرى ، كالمد والجزر ، يُرى ذلك فى كل يوم مراراً فى ذلك العين ، ولا يخفى على من تأمله . ولقد وقفت إلى ذلك العين وحُملت إليه لأراه ، فرأيتُه كما ذُكر : يمد ويجزر[٣] » .

٦ — وأهم ما فى جغرافية العذرى ذكره لأقاليم كل كورة وأجزائها ، والاقليم فى الأندلس كما قال ياقوت قسم من الكورة ، وهو يعدل الرستاق فى المشرق ، أى أنه قسم إدارى أصغر من الكورة ، وقد بينا فى « فجر الأندلس » أن الإقليم كان وحدة زراعية مالية تضم قرى كثيرة ، ولكن الضرائب كانت تقدر عليه جملة ، وبينا كذلك أن الأجزاء كانت مساحات واسعة من الأرض تركتها الدولة مشاعا للمرعى ، ولم تقدر عليها جباية ما ، وذكرنا أن العرب ساروا فى ذلك على أساس قديم وجد من أيام الرومان ، وهو يجعل لكل مدينة أو قرية منطقة مراع مشاعاً معفاة من الضرائب[٤] .

---

(١) يقول مادوث فى معجمه الجغرافى أنه لم يبق فى مربيطر على أيامه شىء من الآثار القديمة التى خلفها السغونتيون Los Saguntinos وهم منسوبون إلى بلدة سغنتم Saguntum وكانوا يدافعون عن هذه الناحية ضد الرومان أثناء الحروب بين قرطاجنة وروما فى اسبانيا .
Pascual Madoz, *Diccionario Geográfico, Estadistico, Histórico de España*,.. (Madrid 1818), vol. XI, p. 776.

(٢) ذكر هذه العين مادوث فى معجمه الآنف الذكر . وقال إنها تنبع من أصل جبل مونتى Monti . مجلد ١٢ ص ٢٧٥ مادة Onda .

(٣) فى الأصل : يملأ ويحصر ، وهو تحريف من الناسخ .

(٤) انظر المناقشة فى كتابنا « فجر الأندلس » ص ٥٨٥ — ٥٨٧ . وانظر كذلك مقالنا :
La División Político-Administrativa de la España Musulmana, en Revista del Instituto de Estudios Islámicos, vol. V, (1957), pp. 102 sqq.

والعذرى يذكر أقاليم كل كورة ثم يتبع ذلك بالأجزاء التى فيها ، وربما أهمل هذه القاعدة فى بعض الكور ، ولكن هذا هو الغالب على كتابه . وهو يذكر فى الغالب أيضاً عدد القرى فى كل اقليم ومقدار الضرائب المقدرة عليه ، وهو يفصل هذه الضرائب تفصيلا دقيقاً ، فيقول مثلا :

« عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر اقليما :

اقليم المدور : عدد قراه فى المغارم تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث[. . .]

القمح : ٨٥ مديا و ٤ أقفزة
النّاضّ : ٣٩٨٠
الطبل للعام : ٤٢٤٠ ديناراً
الصدقة والبيزرة : البيزرة ٤١٢ ديناراً و ٤ دراهم

اقليم القصب : القرى فى الوظائف ٨٧ منها فى العشور ٥٦

القمح : ١٠٠ مُدى و أر[. . .]
الشعير : ١١١ مدياً
الطبل للعام : ٢٧٠٠ [. . .] و ٤ دراهم
ومن الناض للحشد : ٤٧٠٢ $\frac{٢}{٧}$
الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دنانير و ٤ دراهم

وهكذا فى بقية أقاليم قرطبة . ومع أنه يقول إنها خمسة عشر إلا أنه لا يذكر إلا اثنى عشر .

ومثل هذه البيانات لا يأتى بها إلا رجل مطلع على سجلات الدولة ينقل عنها ، فإن الذى يقول مثلا إن ضريبة الناض للحشد ، أى الضريبة المالية المقررة على اقليم القصب لمعونة الجيوش تبلغ ٤٧٠٢ $\frac{٢}{٧}$ (ديناراً فى الغالب) لا يمكن أن يقول ذلك إلا نقلا عن سجلات إمامه . وسجلات الدولة لم تكن فى

هذه الأيام فى متناول كل إنسان ، وإنما كان يطلع عليها من يعملون فى دواوين الدولة وفى إدارتها المالية بوجه خاص . وهذا فى ذاته يكشف عن حقيقة لم نكن نعلمها عن العذرى ، وهى أنه لابد أن يكون قد عمل فى الإدارة وتناولت يده الأوراق ونظر فيها ، أو على أقل تقدير لابد أن يكون قد اتصل برجل له هذه الصفة ونقل من دفاتره هذه البيانات . وما الذى يجعل رجلا كأحمد عمر ابن أنس العذرى ، فقيه محدث كل همه منصرف إلى السماع والاسماع ورواية الأحاديث على نحو من الضبط يجعله من شيوخ العصر الذين يسمع منهم رجل مثل أبى محمد بن حزم ، ما الذى يجعل رجلا كهذا يميل إلى الكتابة فى صفة الأندلس ونواحيها وأقاليمها وأجزائها وحدود كل ناحية واقليم وضرائبه وما إلى ذلك ؟ إلا أن تكون المعلومات قد يُسِّرت له ووجد فى نفسه ميلا إلى أن يسجلها فى كتاب ، ودفعه هذا إلى استيفاء الموضوع فقرأ ما كتب غيره ورحل ليرى بنفسه حتى يكون كتابه فى مستوى ما كتبه الرازى مثلا ؟

هذا ما نعتقده ، ويؤيدنا فيه أن الكثير من المعلومات التى يسجلها تبدو لنا ناقصة ، كأنه سجل ما لديه وانتظر بالباقى حتى يستكمله ، ثم لم يجد وسيلة إليه أو صرفته شواغل الأيام فترك الكتاب كما هو : فهو مثلا يقول إن أقاليم قرطبة خمسة عشر ثم لا يذكر إلى اثنى عشر ، وهو يذكر كل أنواع الضرائب فى إقليم ويغفل بعضها فى أقاليم أخرى ، وقد يذكر أن مدن الكورة الفلانية هى كذا وكذا وكذا فإذا بدأ يتحدث عن كل منها بالتفصيل لم يذكر إلا اثنتين أو ثلاثا وترك الباقى ، وهذه طريقة مُصَنِّفٍ جَمَع ونقل وأثبت ما استطاع الوصول إليه وانتظر بالباقى ليستكمله ، ثم لم يستطع ، ولو أنه عمد إلى تأليف كتاب فى الجغرافية من أول الأمر كما فعل المقدسى مثلا لرأينا فى الكتاب تناسقا أكثر مما فى نسخته التى لدينا .

ولكن ذلك لا يقلل من الفائدة التى نخرج بها من ذلك الكتاب ، فهو بشكله الحالى أحسن وأوسع ما لدينا فى صفة الأندلس الإسلامى ، سواء من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حيث الطريقة التى سلكها العذرى فى تأليفه أو من حيث المادة التى ضمنها إياه ، هذا إلى دقته فى التحديد وضبطه فى رسم الأعلام . ويبدو أنه عندما شرع فى جمع المادة حرص على أن يقرأ ما كتب غيره قراءة فهم وتدبر ، ومن هنا فإننا نجد عنده عبارات ذات أهمية كبرى بالنسبة لتصور العرب ومن قبلهم لشبه الجزيرة . مثال ذلك قوله بعد الفراغ من الكلام على كورة تدمير ، وسنقسم كلامه هنا إلى فقرات نعطيها أرقاماً حتى تسهل مناقشتها :

١ — « تم ذِكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جزّأها ستة أجزاء :

٢ — أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحَلْفَاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب .

٣ — وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريولة إلى سرقسطة وما وازاها .

٤ — وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجرى الأنهار ، فما جرى منها إلى الغرب سماه الغربى ، وما جرى من أنهاره إلى الشرق سماه بالشرقى .

٥ — والقسمة من تدمير ، ونهرها جار إلى الشرق .

وهذا الكلام أقرب إلى أن يكون محاولة للتوفيق بين تقسيمات إدارية وكنسية مختلفة لاسبانيا ، أو محاولة لشرح مصطلحات إدارية وجغرافية رومانية أو قوطية وصلت إلى علم العذرى ، فاجتهد فى توضيحها قدر ما استطاع ، شأن العالم المتخصص الحريص على استيضاح كل ما يصل إليه من المعلومات .

وسنناقش عبارة العذرى فقرة فقرة :

١ — فأما قوله « ثم ذكر الأندلسى الأول على قسمة قسطنطين » فمعناه فيما نظن : ثم ذكر الأقسام الداخلة فى الأندلس الأدنى Espania Citerior كما قسمه قسطنطين (إلى خمسة أجزاء هى : نربونه Narbona وجليقية Galicia وقرطاجنة Cartagena ولشدانية Lusitania وباطقة Betica) .

ويلاحظ أن العذرى وضع بلنسية فى الجزء الرابع من قسمة قسطنطين ، أى من التقسيم الكنسى الذى أشرنا إليه . ولورقة عنده تقابل قرطاجنة فى التسمية الكنسية .

٢ — وأما قوله « أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب » ففيه خلط ظاهر ، فإن قسمة قسطنطين لم تضف الثلاثة ولم تُسَمِّها الأندلس الأدنى ، بل الذى حدث هو أن التقسيم الإدارى الرومانى الأول الذى تم حوالى سنة ١٩٧ ميلادية تقريباً كان يجعل اسبانيا قسمين إداريين كبيرين هما ولاية اسبانيا الدنيا Provincia Hispania Citerior وولاية اسبانيا القصوى Provincia Hispania Ulterior ، والأولى توازى الساحل الشرقى ، والثانية توازى الساحل الجنوبى حتى مصب نهر الوادى الكبير ، وكان يحكم كلا منهما قنصل سابق Proconsul ثم استبدل فى تلك السنة بمُقَدَّمٍ Praetor . والحد الفاصل بين هذين القسمين كان يبدأ بالفعل من قرطاجنة اسبانيا أو قرطاجنة الجديدة Cartago Nova ويسير فى اتجاهٍ شمالى غربى إلى أقصى ما عرف فى المصطلح الجغرافى العربى ببلاد الغرب . فكان خط التقسيم يصل إلى Emerita Augusta وهى ماردة . وكانت تدخل فى هذه الولاية شاطبة Saetabis . ودخلت فيها فيما بعد بلنسية Valentia عندما أنشئت لتحل محل سغونتوم Saguntum التى خربتها الحروب البونية .

فإشارة العذرى إذن إنما هى إلى ذلك التقسيم القديم الأول ويبدو أنه ظل

واضح المعالم فى أذهان أهل الجزيرة رغم ما ناله من تغير وتطور على أيدى الاباطرة بعد ذلك .

وقد سبق أن ذكرنا أن قسمة قسطنطين هذه كانت معروفة فى الأندلس الإسلامى ، يتداول نصاراه نسخاً مختلفة منها ، بعضها عربى . وقد أثبت أحمد الرازى نص إحداها فى جغرافيته ونقلها عنه البكرى ، ويغلب على الظن أيضاً أن العذرى ذكرها فيما ضاع من أقسام كتابه ، بدليل إشارته إليها فى الفقرة التى نناقشها .

٢ — وأما قوله « وأضاف الثلاثة أيضاً ، فسماها الأندلس الأقصى ، وذلك من أوريوله إلى سرقسطة » فحقيقة ما وقع أن قسمة قسطنطين قسمت الأندلس الأقصى Provincia Hispania Citerior إلى ثلاث ولايات أسقفية هى :

باطقة Baetica (وهى الجزء السادس فى الترجمة العربية لقسمة قسطنطين التى أوردها أحمد الرازى والبكرى) وقاعدتها اشبيلية .

لشدانية Lusitania : وهى الجزء الخامس من هذه الترجمة ، وقاعدتها ماردة .

جليقية : Galicia : وهى الجزء الثانى من هذه الترجمة ولم تحدد لها قاعدة .

٣ — أما قوله فى نهاية هذه الفقرة الثانية « وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريوله إلى سرقسطة وما وازاها » فيريد به أن الحد الفاصل بين الأندلس الأقصى والأندلس الأدنى خط يسير من أوريوله إلى سرقسطة .

وهكذا نرى كيف سار أحمد بن عمر بن أنس العذرى بعلم الجغرافية فى الأندلس خطوة واسعة إلى الأمام . فإذا كان الرازى قد وضع الأساس السليم الذى حدد مفهوم الجغرافية الطبيعية والبشرية فى أذهان الناس ، فقد بدأ العذرى من حيث انتهى الرازى ، فحاول أن يضيف تفاصيل جديدة إلى وصف

هيئة شبه الجزيرة وتقسيمها الجغرافى العام ، وتوسع فى الجغرافية البشرية ، فأطال الكلام عن كل كورة أو قسم إدارى ، فلم يكتف بوصفه العام ومدنه الرئيسية ومنابع الثروة فيه ، بل فصل الوصف تفصيلا علمياً حافلا بالمعلومات ، ووصف المدن نفسها واحدة واحدة ذاكراً زمامها وحدودها وأبوابها إذا استطاع ، ثم ذكر الطرق بين بلاد الكورة نفسها وبين قواعد الكور المجاورة وبلادها ، حريصاً دائماً على ذكر المسافة من قاعدة الكورة إلى قرطبة عاصمة الدولة . وهو لا يكتفى بذلك بل يورد أقاليمها وما يتبع كل واحد منها من قرى ، ثم يذكر الأجزاء ، ويضيف إلى ذلك فائدة كبرى : ينقل من سجلات الدولة مقادير الضرائب المقررة بأنواعها على كل إقليم يذكره ، ويوردها بغاية الدقة مما يلقى ضوءاً باهراً على نظام الضرائب فى الأندلس وأحواله الاقتصادية بصفة عامة .

وإذا كان الوصف الدقيق لجغرافية الرازى هو أنها من طراز البلدان فقط فإن جغرافية العذرى ضمت البلدان والمسالك والممالك ، فهى تصف الطرق وتقدر المسافات وتعين المراحل والمحلات فى دقة تشهد بدقة علمية جديرة بالتنويه . وقد رأينا الرازى يتحرر من أسر القيود التى وضعها بطليموس على علم الجغرافية ، فينقله من جداول فلكية وهمية تحشد فيها البلاد على صورة جافة ، إلى دراسة إنسانية تتناول الأرض ومن عليها من الناس وعلاقة هؤلاء بهذه ، ثم يجىء العذرى فيضيف حشدا من المعلومات عن الجغرافية السياسية والاقتصادية للبلاد ، ولا يشير إلى أقاليم بطليموس وإنما إلى قسمة قسطنطين ، أى إلى التقسيم الإدارى المالى ، ويقترب بالجغرافية من مفهومها فى العصر الحديث ، فهو لا يكتفى بذكر المحاصيل الرئيسية للناحية ، بل يضيف مقادير الجبايات من كل نوع ، معتمداً فى ذلك على سجلات الدولة الرسمية ، وهذه البيانات الدقيقة عن الضرائب تمكننا من تعرف مساحات الأراضى الزراعية وأعداد السكان . ثم إن كلامه الدقيق عن مجارى المياه وعيونها وذكره الأنهار وفروعها والترع

وما تسقيه ، يكشف لنا عن ناحية كبرى من نواحى الحضارة العربية فى الأندلس : ناحية الري والسقيا والقنوات . والمعلومات التى يقدمها العذرى فى هذه الناحية تزيد فى الدقة على ما يقدمه المقريزى فى خططه عن هذه الناحية فى مصر ، وذلك فضل ينبغى أن نذكره لذلك الجغرافى الأندلسى الفريد .

والعذرى دقيق فيما يستعمل من مصطلحات دون أن يلجأ إلى التعبير عنها تعبيراً عاماً يفقدها قيمتها الاصطلاحية ، فهو يسمى عاصمة الكورة بالقاعدة ، ويسمى عاصمة المدينة أى الكورة الثغرية « قرار العمال والقواد » ويسمى منبع النهر « عُنصره » والقناة التى تشق للرى بالساقية ، وهو لا يقول « شق قناة » وإنما « أخرج ساقية » ، وهو يفرق تفريقاً واضحاً بين الساقية والناعورة . وهو يذكر « المعادن » أى المناجم ، ويعين قدر ما يستخرج منها فى العام . وعند كلامه على الفُنْدُون يقول « صفته صفة النيل ، إنما يسقى مرة واحدة ، ولا يحتاج إلى غير ذلك » ، أى أنه يسقى بفيض النهر عندما يعلو ماؤه ويروى ما حوله ، فإذا انحسر الماء زرع الناس دون حاجة إلى سقى آخر ، ثم يضيف بعد ذلك بيانات عن وفرة ثمر ما يزرع فيه . وهو يسمى الفتحات التى توجد فى الجبال أو تصنع فيها لكى يصل الناس إلى الماء الجاري داخلها بالمناهر ، مفرده منهر ، وهو مصطلح نقرؤه عنده أول مرة فى كتب الجغرافيين .

وهو يقف عند كل موضع هام ويذكر ما تيسر من تاريخه ، ومعلوماته هنا دقيقة يبدو أن معتمده فيها على تاريخ أحمد بن محمد الرازى ، وهذه المعلومات المفصلة أدخل فى باب التاريخ ، ولكنها لا تخلو من فائدة لدارس الجغرافية البشرية والاقتصادية والسياسية ، فنحن نتبين من خلالها الأقوام التى سكنت الناحية وتاريخهم فيها واختلاطهم بأهلها ، وصورة ذلك الاختلاط وفوائد أخرى ذات أهمية كبرى ؛ ففى أخبار ابن وضاح فى لورقة يقول : « وكان بقربها رجل يسقى على نوبة له » فنفهم أن الناس كانوا يتناوبون فى الانتفاع بالسواقى ، كل منهم يسقى وقتاً معيناً يسمى « النوبة » ؛ وعند كلامه على أوريولة يقول إن تفسيرها

باللاتينى الذهبية ، وهو تفسير صحيح لأن أصل الاسم Aureola . وعند كلامه على ديسم بن اسحاق يقول إنه أدى « قطيعاً » من الجباية أى جانباً منها ، ويقول إنه « كان يحبِّس الخيل والسلاح على أهلها » أى يرصد خيلا وسلاحاً خاصة للدفاع عن أهل لورقة . ومن خلال كلامه نعرف المعنى الدقيق لعبارة « سَجَّل له بها » أى اعترف الأمير بولايته على الناحية وكتب له سجلا بذلك ، وعبارة « استعمل الراحات والفرج » أى أخذ بأسباب الملاهى وهو يذكر « بَلَد نُوبَه » وهو المصطلح الأندلسى لذلك الطراز من المدن الذى ظهر في أوروبا ابتداء من القرن العاشر الميلادى Villa Nova (Villeneuve أو Villa Nueva) ولفظ « نازل » ويراد به الذين استقروا من العرب الفاتحين فى ناحية ما ، فيقال مثلا ان حسين بن يحيى الأنصارى « مِنْ نَازِل سرقسطة » ؛ ولفظ « ضغط » بمعنى طارد ؛ ولفظ الثمر أو الثمرة أو الثمار بمعنى شجر الفاكهة ؛ وغير ذلك كثير .

ويهتم العذرى بأحاديث العجائب والغرائب ، ولكنه يذكرها تحت هذا العنوان ولا يخلط بينها وبين الوصف الجغرافى ، ثم اننا إذا قرأنا الكثير مما يورده على أنه « غرائب » وجدناه فى كثير من الأحيان يتحدث عن ظاهرة طبيعية يمكن تعليلها وقد تكون باقية إلى اليوم ، وهو لا يسرف ولا يغرب فى عجائبه تلك على أى حال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين العذرى والبكرى

فيما بين العذرى والبكرى ، أو كان معاصرا لأحدهما ، عدد من أئمة التاريخ فى الأندلس تضمنت كتبهم مقدمات جغرافية أو استطرادات فى ذلك الفن على النحو الذى جرى عليه أصحاب التاريخ فى الأندلس عامة ، فقد رأينا كيف أن الفاصل بين التاريخ والجغرافية عندهم كان غير واضح ، وأنه ما من مؤرخ عندهم إلا يمكن اعتباره جغرافياً ، وما من جغرافىّ إلا وهو مؤرخ فى نفس الوقت . وتلك من خصائص التاريخ والجغرافية عند الأندلسيين ، نعم إن نفراً من الجغرافيين أو المؤرخين فى المشرق جرى على هذا النهج ، ولكن ذلك كان قليلا ، والأغلب أن يكون المؤرخ فى المشرق محدثا أو مفسراً ، أما فى الأندلس فإن الجغرافية والتاريخ كانا متلازمين ، وهذا يفسر لنا السبب فى أن معظم ما كتبوه فى الجغرافية إنما هو من قبيل الجغرافية البشرية .

ومن أسف أننا لم نعثر بَعدُ على الجانب الأكبر من مؤلفات أولئك المؤرخين ، ولكن ما وصل إلينا من بقاياه يكشف عن طبيعته ومزاياه كما ينم الحطام على السفين الغارق ، ومن حسن الحظ أن المتأخرين من مؤرخى الأندلس مضوا على سنن المتقدمين من افتتاح كتبهم بالمقدمات الجغرافية وتضمينها ما تدعو إليه الحاجة من التفاصيل الجغرافية عند الإلمام بالمواضع والبلاد ، وقد أخذوا ذلك من مؤلفات السابقين عليهم ، فحفظوا لنا بذلك فقرات وإشارات طويلة أو قصيرة تعيننا على تكوين فكرة سليمة عن الأصول التى أخذوا

عنها . وأحفل هذه الكتب بالنقول نفح الطيب للمقرى والمعجب لعبد الواحد المراكشى والإحاطة لابن الخطيب ومقدمة ابن خلدون وتاريخه ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق للادريسى والروض المعطـار لابن عبد المنعم الحميرى وأصول أخرى تضم قطعاً أقل أهمية ، وعلى هذه كلها معتمدنا فيما سنذكر عن هؤلاء الكتاب كجغرافيين ، وسنكتفى منهم بمن لدينا من النقول عنهم ما يسمح بتكوين فكرة عنهم كجغرافيين ، أما من أثر عنه السطر والسطران أو لم يرد إلا اسم كتابه مثل اسحاق بن سلمة الليثي (عاش أيام الحكم المستنصر) الذى ألف كتابا فى « أخبار رَيّه وحصونها وولاتها وحروبها وفقهائها وشعرائها[1] » وكتابا آخر فى « أخبار الأندلس[1] » وأبى مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد المعروف بابن المطاهر (توفى ٤٨٩/١٠٩٥) الذى ذكروا له كتابا فى « تاريخ فقهاء طليطلة » وأبى عمر أحمد بن محمد بن عفيف (٣٤٨—٤٢٠/٩٥٩—١٠٢٩) الذى يصفه الضبى بأنه « تاريخى مشهور »[2] فقد استطردنا عن ذكرهم لأن ما لدينا عنهم لا يغنى .

وسنقف عند أربعة من أهل النصف الثانى من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس لدينا من كتاباتهم وأقوال المؤرخين عنهم ما يجعل لهم مكانا فى تاريخ التأليف الجغرافى فى الأندلس ، بل إن إشارات بعضهم تبلغ من الدقة والتفصيل ما لا يستغنى عنه من يجمع أقوال الأندلسيين فى جغرافية بلادهم . وهؤلاء الأربعة هم : ابن الفرضى وابن حيان وابن النظام وابن أبى الفياض ، ولن نطيل الوقوف عند كل منهم ، فهذا مكانه فى الكلام عنهم كمؤرخين ، وإنما سنكتفى بقدر يسير يتناسب مع ما لدينا من الفوائد الجغرافية لكل منهم .

---

(١) الضبى ، تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٥٦

(٢) نفس المرجع رقم ٣٤٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن الفرضى

فأما ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى) (٣٥١—٤٠٣/٩٦٢—١٠١٢) فهو شيخ أصحاب معاجم التراجم الأندلسية ومقرر أصول هذا الفن الذى اتصل فى الأندلس والمغرب بعد ذلك قرونا طويلة ، وكتابه الوحيد الباقى بين أيدينا « تاريخ علماء الأندلس » إن هو إلا ثبت طويل بأسماء علماء الأندلس إلى عصره يتضمن ما كان الناس يحتاجون إليه فى ذلك العصر من المعلومات عن أولئك العلماء . ولسنا فى حاجة إلى التنبيه على أن « تاريخ العلماء » الذى لدينا إنما هو اختصار للكتاب ، فإن ابن الفرضى ينص فى المقدمة على أنه كان يريد أن يؤلف كتابا « موعبا على المدن يشتمل على الأخبار والحكايات ، ثم عاقت عوائق عن بلوغ اعداد فيه ، فجمعنا هذا الكتاب مختصراً . . »[١] ويؤكد فى نهاية تلك المقدمة أن نيته لا زالت معقودة على « جمع الكتاب الذى تقدم ذكره على البلدان وتقصى ما اختصرناه فى كتابنا هذا من الحكايات والأخبار إن تأخرت بنا مدة وصحبتنا من الله معونة »[٢] . وقد كشف ليفى بروفنسال فى مقال ممتع عن طوق الحمامة لابن حزم عن فقرات لابن الفرضى موسعة مفصلة بأكثر مما فى « التاريخ » الذى لدينا بكثير[٣] ، مما يحمل على الظن بأن ابن الفرضى شرع على الأقل فى الكتاب المطول ، ومن الجائز أيضاً أن يكون قد أتمه ، وعاش الكتابان جنباً إلى جنب حتى أخملت المختصرة المطولة كما حدث « لمطمح » ابن خاقان . ومن هذه النسخة المطولة أخذ ابن الخطيب ما أورده فى أعمال الأعلام

---

(١) ابن الفرضى ، المقدمة ، ص ٦ — ٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٧

(٣) E. Lévi-Provençal, *En relisant le «Collier de la Colombe»* Al-Andalus, vol. XV, (1950) fasc. 2, pp. 335—877.

وابن حزم ما أورده فى الطوق . وما يعنينا هنا هو أن رجلا يزمع أن يؤلف معجم تراجم على البلدان ، أى مرتباً بحسب بلدان الرجال الذين يترجم لهم ، لابد أن يتكلم عن هذه البلدان فى ذاتها . ومن هنا على الأغلب أخذ المقرى الفقرات التى أوردها فى الفصل الخاص بقرطبة من النفح ، وهى فقرات طويلة تدور الأولى منها على زيادة المنصور ابن أبى عامر فى جامع قرطبة ، وهى فقرة طويلة من ذلك النوع الذى نجده عن ذلك الجامع عند الجغرافيين من أمثال الرازى وابن عبد المنعم الحميرى[1] . والثانية تدور حول مدينة الزهراء ، قال : « كان يعمل فى جامعها حين شُرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منهم ثلثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأُجَرَاء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه وإتقانه فى ثمانية وأربعين يوماً ، وجاء فى غاية الاتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة إلى الجوف — حاشا المقصورة — ثلاثون ذراعا ، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعاً[2] . . . » وهذه الفقرة وبقيتها لا يكتبها إلا رجل مقتدر على الكتابة فى البلدان وأوصافها والمبانى وهيآتها ومقاييسها ، ولا يحتمل أن يكون ابن الفرضى قد أخذ ذلك الكلام عن غيره ، فإنه هو نفسه معاصر لبناء الزهراء وجامعها ، ومعلوماته تدل على أنه سأل واستقصى وقاس وحقق بنفسه . وأدل على هذه الناحية عند ابن الفرضى قوله فى الفقرة التالية التى نقلها المقري : « وفى صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ٢/٨٦ — ٨٧

(٢) نفس المصدر ، ٢/١٠٠

الملوك فى غابر الدهر[١] . . . » ولا حاجة إلى إيراد بقية الفقرة على تواليها ، فهى فى كتاب مطبوع بأيدى الناس ، ويكفى ما أوردناه لتتجلى موهبة ابن الفرضى الوصاف المدقق المعنى بمجارى المياه ومنابعها ومواردها وأطوالها وما ترويه من أرض .

أبو مروان بن حيان ، جغرافياً

أما أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩ / ٩٨٧ — ١٠٧٠) عميد مؤرخى الأندلس فمن المعروف أن معتمده الأول فى كتابه « المقتبس » كان على أحمد بن محمد الرازى ثم على ابنه عيسى بن أحمد ، وهو يتابعهما فى دقة ، مما يحمل على الظن أنه نقل الجزء الجغرافى الذى صدّر به أحمد بن محمد الرازى تاريخه ، ومن دلائل ذلك أن المقرى أورد فى النفح نقلا عن مقتبس بن حيان الفقرة الطويلة الخاصة بأشبان والأمم التى حكمت الأندلس قبل العرب ، وهى قطعة من المقدمة الجغرافية[٢] للرازى . وقد مضى ابن حيان على هذا المنهج فى بقية تاريخه ، فأورد فى ثناياه فقرات جغرافية طويلة على سبيل الشرح والتوضيح ، فقد نقل عنه المقرى كلامه عن جسر قرطبة[٣] ووصفه لمدينة الزهراء[٤] وكلاماً طويلا عن مساجد قرطبة ودورها وحماماتها[٥] وعن مبانى الزهراء . وهو فى هذه الفقرات يجرى على طريقته فى الاعتماد على الأصول المباشرة ، فهو فى كلامه عن الزهراء يقول : « ألفيت بخط ابن

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ٢/١٠٠ — ١٠١
(٢) نفس المصدر ، ١/١٣٤ وما يليها .
(٣) نفح الطيب ، ١/١٤٧
(٤) نفس المصدر ، ٢/٦٧
(٥) نفس المصدر ، ٢/٧٩

دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ الناصر بعمارة الزهراء أول سنة ٣٢٥ . . »[١] . أما ما يرد فى ثنايا المقتبس من التفاصيل الجغرافية عن المواضع فيمكن أن يكون كتيباً لا بأس به إذ جمع فيه ما فى الأجزاء التي وجدت من هذا الكتاب . ولا يستغنى من يريد أن يتعرف جغرافية الأندلس الإسلامى عن أن يستصفى الفوائد الجغرافية الواردة فى كتابات ابن حيان ، فإنه يعنى بذكر المدن والحصون والقرى والكور وحدودها وما فيها ، ويؤرخ لاختطاط المدن وإنشاء الحصون والموانى والجسور والقناطر والأسوار . وهو فى وصف الغزوات ومسير الجيوش يذكر الطرق التى تمر بها ويصفها ويذكر ما فيها من جبال وهضاب ، وما يلقاه الجيش من حصون ومدن وقرى ، كل ذلك فى دقة كاملة لا نظفر بها فى مرجع آخر . ويكفى أن نذكر أن الجزء الصغير الذى نشره الأب ملشور انطونية من تاريخ ابن حيان خاصاً بإمارة الأمير عبد الله يضم أسماء نحو ٦٠٠ موضع كلها مضبوط برسمه ومكانه ووصفه فى كثير من الأحيان .

أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النظام

ويعتمد ابن حيان فى بعض ما يورد على ابن النظام ، وهو أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النَّظَّام الذى أورد له المقرى فى النفح قطعة طويلة تدل على ملكة جغرافية سليمة ، ولسنا نعلم عن حياته شيئاً ، ولولا أن ابن حيان أخذ عنه وذكره لما عرفنا أنه من المتقدمين عليه . وقد ذكر بونس بويجس أن الضبي اختصه بمادة يقول فيها أن أبا عامر بن مسلمة ذكره (فى كتاب

---

(١) نفس المصدر ، ٢/١٠٣

حديقة الارتياح فى وصف الراح على الأغلب) وأورد له ستة أبيات من شعر فى الخمر ، وقد نقل الضبى هذه المادة عن الحميدى ، ولكن ذلك غير صحيح ، فإن المذكور هناك اسمه عبد الملك أما عبد الله بن النظام الذى يعنينا هنا فقد اختصه ابن بشكوال فى التكملة بمـادة من سطرين ، يقول فيها : « عبد الله بن عبد الحكم من أهل قرطبة يعرف بابن النظام ، ويكنى أبا بكر كان أديباً اخباريا تاريخياً ، يحكى عنه ابن حيان فى كتابه »[1] .

والعبارة التى أوردها المقرى لابن النظام[2] تكاد تكون أحسن ما لدينا عن مناخ شبه الجزيرة وأمطارها وأثر ذلك فى مجارى الماء فيها ، وهى عبارة مشهورة تعتبر توسيعاً وشرحاً لعبارة مماثلة للرازى أوردها المقرى قبلها . والعبارات التاريخية التى يقتبسها ابن حيان منه تحمل أيضاً طابع الرازى ، فكأن ابن النظام ألف كتابه ناسجاً على منوال شيخ مؤرخى الأندلس وآخذاً عنه ومضيفاً إلى مادته ما حضره من شىء جديد ، وليس فى هذا ضير ، فقد كانت هذه طريقة الأجيال المتعاقبة من مؤلفينا ، والمهم لدينا أنه يضيف من عنده إضافات جعلت ابن حيان ينص عليه وينسب إليه فضلها ، ولو أنه كان يكتفى بالنقل عن الرازى لما وجد ابن حيان ما يدعو إلى النص عليه فى بعض المواضع . والعبارة التى أتى بها المقرى مقتبسة دون شك من المقدمة الجغرافية .

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب عبارتى أحمد بن محمد الرازى وابن النظام عن مناخ شبه الجزيرة جنباً إلى جنب (جـ ١ ص ١٢٨ — ١٣٠) مما يغنينا عن إيرادهما هنا . وفيما يلى مقارنة بينهما تبين كيف أن ابن النظام اعتمد على كلام الرازى ، ثم أضاف من عنده ملاحظات تكشف عن ملكة جغرافية أصيلة .

---

(١) الحميدى ، جذوة رقم ٦٣٣ ص ٢٦٧ — الضبى بغية رقم ١٠٧٠ ص ٣٦٨ — ابن الأبار ، التكملة ، رقم ١٢٧٠ ص ٤٤٢ . وانظر أيضاً بولس بويجس رقم ٩٩ ص ١٢٤

(٢) نفح الطيب : ١/١٢٩ — ١٣٠

والعبارتان تختلفان فى اللفظ والتفاصيل ، ولكن الفكرة الرئيسية التى تقومان عليها واحدة ، وهى انقسام شبه الجزيرة من ناحية الأمطار والرياح واتجاه مجارى الأنهار إلى قسمين : غربى وشرقى ، وأن الحد الفاصل بين هذين القسمين منطقة وسطى يختلفون فى تحديدها ، فالرازى يقول إنها تبدأ « مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية طالعاً إلى حوز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب ، ومجاوراً للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنة الحَلْفَاء » وهى عبارة غير دقيقة ومليئة بالمشاكل ، إذ أننا لا نعرف ما هى « المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية » والغالب أن المراد هنا شنتمرية الغرب وهى التى تكتب أحياناً شنتبرية وبالاسبانية Santaver ، فتكون المفازة المرادة هنا هى المنطقة التى تعرف اليوم باسترامادوره ، وهى بالفعل فى امتداد ما كان يعرف بالجوف فى المصطلح الجغرافى الأندلسى ، وهو مساحة واسعة تغطّى فى التقسيم الحالى لاسبانيا الجزء الشمالى من مديرية ولبة Huelva وكل مديريتى بطليوس وقصرش Cáceres وجزءا مما يحاذى هذه المديريات طولا من البرتغال . والتعبير فى استرامادوره بالمفازة تعبير لا بأس به . وعلى هذا التفسير يكون الفاصل بين منطقتى الأمطار الغربية والشرقية هى المنطقة القليلة المطر التى ذكرناها . وبقية عبارة الرازى تتعلق بامتداد هذه المنطقة الفاصلة إلى الشمال : « طالعاً إلى حوز اغريطه المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب » إذ يبدو أن المراد بحوز اغريطه هذه منطقة سلسلة جبال جريدوس Serranía de Gredos . والمراد أن المنطقة التى تمطر بالرياح الغربية وتجرى أنهارها غرباً تقع غرب خط يخترق الجوف والمفازة ماراً بشنتمرية الغرب ومنتهياً عند جبال جريدوس .

أما المنطقة الشرقية التى تمطر بالرياح الشرقية وتجرى أنهارها شرقاً فتقع بناء على كلام الرازى شرق خط يبدأ عند قرطاجنة الحلفاء على الساحل الشرقى ويصعد فى اتجاه شمالى غربى حتى بلدة شنتمرية الشرق المعروفة عند العرب أيضاً بالسهلة أو سهلة بنى رزين (اليوم Albarracín فى مديرية تروبل) حتى

يصل إلى حوض نهر إبره ويسير محاذياً الحافة الشرقية لسلسلة الجبال الايبيرية El Sistema Ibérico ثم يصل إلى جبال البشكنس ، والأغلب أن المراد بها سلسلة جبال كنتبرية Pirineos Cantábrios .

وهذا التحديد — إن صح — يبدو لنا غريباً من الرازى وهو الذى يعرف أن ثلاثة من أكبر أنهار الجزيرة وهى الوادى الكبير والوادى آنة والدويرة لا تنبع من أىّ من الحدين الذين عينهما . ولكن الحقيقة أن الجغرافيين كانوا ينقلون أمثال هذه التصورات العامة عن مراجع سابقة أو يأخذونها عن « علماء أهله » أى علماء الأندلس دون التعرض لها بنقد أو تحقيق .

وعلى هذا الأساس أيضاً نستطيع أن ننظر إلى عبارة ابن النظام وما تضمنته من تحديدات ينقصها التحقيق ، فهو يقرر صراحة أنه أخذها عن علماء الأندلس ، أى أنه لم ينقلها عن الرازى أو غيره من المؤلفين العرب ، وهى أوضح من عبارة الرازى فيما يتصل بتقسيم اسبانيا إلى منطقتين مختلفتين من حيث هبوب الرياح وسقوط الأمطار وجريان الأنهار ، وهى دقيقة فى تصوير اتجاهات الأودية وأنهارها وسلاسل الجبال التى تفصل بينها « هابطة جبلا بعد جبل » أى سلسلة بعد سلسلة ، ولا يمكن فهم عبارته كما تصورها هو إلا إذا تصورنا أيضاً الهيأة المثلثة لشبه الجزيرة على ما وصفناها ، وهو نفسه ينص عليها نصاً صريحاً مفصلا فى الفقرة التالية ، وهى فيما يبدو منقولة عن الرازى . وهو يسترسل فى النقل فيتحدث عن الأمم التى سبقت العرب إلى سكنى شبه الجزيرة على الصورة التقليدية التى قبسها الرازى من كتاب الاسبان النصارى ونقلها عنه من جاء بعده من الجغرافيين والمؤرخين العرب على ما هو معروف .

والأغلب أن المقدمة الجغرافية لتاريخ ابن النظام كانت تستطرد على النحو الذى نجده عند غيره ، موسعاً كما عند الرازى ومختصراً كما نرى عند ابن عذارى ، ولكنه يضيف من علمه كثيراً كما رأينا فى الفقرة التي أوردناها . وفيما عدا التصورات العامة (وقد ظلت مواضع خلاف عند كافة الجغرافيين حتى

نشوء علمى الجغرافية والخرائط نتيجة لحركة الاستكشافات فى مطالع العصر الحديث) فإن الحس الجغرافى لابن النظام سليم وعبارته تدل على ملكة جغرافية أصيلة عرفت كيف تستفيد مما كتب السابقون وتضيف إليها وتخطو بالعلم الجغرافى فى الأندلس خطوة إلى الأمام .

أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبى الفياض

وليس لدينا من كتاب العبر لابن أبى الفيّاض (أبى بكر أحمد بن سعيد ابن محمد بن عبد الله) إلا بضع ورقات اندرجت خطأ فى نهاية مخطوطة « الحلة السيراء » التى لدينا . وهذه الأوراق على قلتها ربما كشفت لنا عن حقيقة هامة تتصل بكتاب العبر هذا ، فهى تبدأ بالتفاصيل الأخيرة لحملة طارق على الأندلس ، وفى نهاية الصفحة الأولى من هذه الأوراق نجد عبارة « تم الجزء الأول » مكتوبة بخط يخالف خط المخطوط ، ثم يلى ذلك عنوان كبير « ذكر استفتاح طارق لجزيرة الأندلس » والسياق يدل على أن هناك خطأ فى ذلك العنوان وأن المراد « ذكر استفتاح موسى لجزيرة الأندلس » . ولا تدل عبارة « تم الجزء الأول » إلا على أن هذا موضع نهاية الجزء الأول من كتاب ابن أبى الفياض وأن الجزء الثانى يبدأ بحملة موسى بن نصير .

فإذا صح هذا فعلام يدور الجزء الأول ؟ قياساً على التقليد الأندلسى الذى أشرنا إليه من التمهيد للتاريخ بالجغرافية نستطيع القول بأن هذا الجزء الأول كان يدور على جغرافية الأندلس ، ولدينا على ذلك دليل وهو أن عبد الواحد المراكشى يقول فى الذيل الجغرافى الذى ألحقه بكتاب المعجب : « . . . هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التأليف ، وداخل فى باب المسالك والممالك ، وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ، ككتاب أبى عبيد البكرى

الأندلسى ، وكتاب ابن فياض الأندلسى أيضاً ، وكتاب ابن خرداذبه الفارسى ، وكتاب الفرغانى ، وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة[1] له » ولم تذكر مراجعنا أن ابن أبى الفياض كتب كتاباً مفرداً فى المسالك والممالك ، أى الجغرافية ، فلم يبق إلا القول بأن المقدمة الجغرافية لتاريخه كانت طويلة مستوعبة جعلت عبد الواحد المراكشى يدرج ابن أبى الفياض ضمن أصحاب كتب المسالك والممالك « المفردة لهذا الشأن المستوعبة له » .

ويؤيد هذا أن مؤلف روض القرطاس يذكر كتابين لابن أبى الفياض نقل عنهما ، الأول مذكور دون تعيين لعنوان (ص ٩ من طبعة أوبسالا) والثانى هو كتاب العبر ، ولم يذكر المؤرخون لابن أبى الفياض إلا كتاباً واحداً فى التاريخ ، فالغالب أن الكتاب الثانى هو المسالك والممالك الذى ذكره عبد الواحد المراكشى ، ويغلب أن ابن أبى الفياض جعل كتابه من قسمين أحدهما خاص بالجغرافية والآخر خاص بالتاريخ ، فاعتبرهما بعض المؤرخين كتابين .

نقول هذا وليس لدينا شىء من كلام ابن أبى الفياض فى الجغرافية ، ولكننا ننبه إلى هذه الحقيقة حتى يتطلب المتخصصون هذا الجزء الأول من تاريخ ابن أبى الفياض ويعرفوا أن معظمه يدور حول جغرافية الأندلس ، فلعلنا نعثر عليه ، فتفيد هذه الإشارة فى التعرف عليه .

---

(١) ابن عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (بتحقيق الأستاذين سعيد العريان ومحمد العلمى العربى ، القاهرة ١٩٤٤) ص ٣٤٦

وقد ولد ابن أبى الفياض فى استجه حوالى سنة ٣٧٩ / ٩٨٩ — ٩٩٠ ولكنه عاش وعمل فى المرية ، أى فى نفس البلد الذى ولد وعاش فيه العذرى ، ولعل لذلك أثراً فى اتجاهه نحو التاريخ والجغرافية ، وقد اختصه ابن الأبار فى الصلة بعادة قال فيها « أصله من استجه وسكن المرية . يكنى أبا بكر . سمع باستجة من يوسف بن عمروس وبالمرية من أبى عمر الطلمنكى وأبى عمر بن عفيف والمهلب ابن أبى صفرة وغيرهم . وله تأليف فى الخبر والتاريخ . وتوفى سنة ٤٥٩ وقد خالق (كذا والأغلب أن صحتها جاوز) الثمانين سنة . ذكره ابن مدير » رقم ١٢٤ ص ٦٣ ، وانظر عنه دوزى مقدمة البيان ، ص ٧٥ وجاينجوس الترجمة الإنجليزية للجزء الأول من النفح ج ١ ص ١٩٤ و ٤٧٤ و كتابات العرب عن بنى عباد ، ج ٢ ص ٣٤ وبونس بويجس رقم ١٠٤ ص ١٣٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبو عبيد البكرى

كان أبو عبيد البكرى من تلاميذ أحمد بن عمر بن أنَس العذرى ، وهو دون شك من أعلام الجغرافية عند العرب ، وهو واحد من هذه الجماعة الباهرة من الفحول الذين أطلعهم الأندلس خلال القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، فهو معاصر للعذرى وابن حزم وابن حيان وابن بسام ومن إليهم . وهو يشترك معهم فى الاتجاه الموسوعى ، سواء فى تحصيل المعارف أو فى الرغبة فى إذاعة هذه المعارف بين الناس . وإذا كانت هذه الموسوعية تتبدى فى كتابات ابن حيان وابن بسام وفى شعر الفحول من شعراء ذلك العصر مثل أبى عمر بن دراج القسطلى وأبى بكر بن عمار والمعتمد بن عباد وعبد المجيد ابن عبدون فى صورة إشارات وكنايات فى ثنايا النثر والنظم تدل على إحاطة تدعو إلى الإعجاب بتاريخ العرب وأدبهم ، حتى ما خفى منهما فى أطواء الشروح والتعليقات ، فإنها تتجلى عند ابن حزم ومعاصره أبى عبيد البكرى فى التأليف والتجويد فى أكثر من صنف من العلوم ، وكما كان ابن حزم فقيهاً مؤرخاً فيلسوفاً متبحراً فى العلم بالأديان والعقائد وعالماً بأسرار النفس الإنسانية وشاعراً فلسفى النزعة والأسلوب ، فإن أبا عبيد البكرى كان عالماً لغوياً ومؤرخاً وجغرافياً ونباتياً وشاعراً أيضاً ، وإن كان شعره أقل أدواته وأضعف ملكاته . وهو يمتاز إلى جانب ذلك بميزة كبرى يشارك فيها ابن حزم وبقية أعلام هذا الجيل

بالاضافة الى كلامنا هذا انظر عما جد من الأبحاث عن البكري بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذيل رقم .

الموسوعى الفريد ، وهى الدقة ، فقد كان محققاً مدققاً لا يكتب شيئاً إلا بعد أن يستوثق منه تمـاماً ، ولا يزال يبحث وينقب حتى يصل إلى آخر شىء في الموضوع ، ونظرة يسيرة فى كتابه معجم ما استعجم تكشف عن هذه الملكة فيه بأجلى بيان ، وهى ليست بالقليلة فى رجل يشتغل بالعلم ويتصدى للتأليف فيه .

وحياة أبى عبيد البكرى صورة من مأساة العصر الذى عاش فيه ، مثلها فى ذلك مثل حَيَوَات معاصريه من أعلام الفكر الأندلسى فى ذلك القرن الخامس الحافل بالمآسى والقلق والحيرة فى الأندلس ، فقد كان أولئك جميعاً من ثمرات عصر الخلافة نشأوا ودرسوا على أيامها ، وأعدوا أنفسهم لحياة حافلة بالنشاط والعمل فى ظلال الأمن والاستقرار ، ثم فاجأتهم الفتنة الكبرى فى مطالع شبابهم ، فإذا الدنيا تنقلب من حولهم وتُصوِّح آمالهم ، وتفرض الظروف القاسية عليهم طريقاً غير التى أرادوا ، وتجرفهم الحوادث فتصبح حياتهم حيرة متصلة وقلقاً دائماً يصورها ابن بسام بأبلغ بيان فى فاتحة « الذخيرة » ، ويصورها ابن حزم فى صفحاته الباكية من « طوق الحمامة » ، ويصورها ابن حيان فى تلك المرارة التى تفيض بها صفحات كتابه « المتين » ويصورها ابن دراج القسطلى فى شعره الذى يتمشى اليأس والألم والموت فى أبياته ، ويصورها عند أبى عبيد البكرى بالاقبال على شرب الخمر اقبالا لا يعلل إلا بالرغبة في النسيان، فقد قضى معظم عمره مثلهم مشرداً متنقلا من ناحية إلى ناحية، لا يكاد يطمئن في بلد حتى يشد رحالة إلى أخرى، يطارده طواغيت الطوائف من بلد لبلد ويطل عليه شبح المصير المحزن الذي كان الأندلس يقترب منه في سرعة مخيفة لم يطامن منها إلا تدارك المرابطين إياه.

وأبو عبيد البكرى ، واسمه الكامل عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو ، من بيت يوصف بأنه بيت إمارة ، على عادة الأندلسيين فى

الحديث عمن استبدوا بأمور نواحيهم عند قيام الفتنة الكبرى . وأول من نعرف أخباره من أجداده هو أيوب بن عمرو البكرى (نسبة إلى بكر وائل) قال فى حقه ابن بشكوال : « صاحب خطة الرد بقرطبة ، والقاضى ببلدة لبلة ، كان ذا علم وفضل وسرو وعفة ومروءة ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، ولقى جماعة من العلماء ، وكان شديداً فى أحكامه ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٣٩٨ (مايو ١٠٠٨) ، ودفن بمقبرة الربض ، وحضره جمع الناس ، فأتبعوه ثناء حسناً جميلا . ذكره ابن حيان[١] » وهى عبارة يفهم منها أن أصل هؤلاء البكريين من لبلة Niebla وأن أيوب بن عمرو سار فى طريق غيره من الراغبين فى العلم فرحل إلى المشرق وحج ودرس ثم عاد ، فتولى القضاء ببلده لبلة ، ثم انتقل إلى قرطبة ، فتولى خطة الرد ، أى إدارة الشكاوى ، واختصاصها النظر فيما يرد إلى مركز الدولة من شكاوى الناس والعمل على إنصافهم ورد المظالم عنهم ، ولهذا تسمى خطة الرد أو رد المظالم ، وهى ليست وظيفة « قاضى القضاة » أو Grand juge كما قال دوزى[٢] . وكان الرجل من أهل النباهة والذكر فى قرطبة ، فقد ذكر ابن الأبار أن ابن حيان سماه فى الذين سمعوا من هشام المؤيد ما أمر بعقده للمنصور محمد بن أبى عامر مجدداً للألفة ، وسمى معه محمد بن عمرو أخاه ، وتاريخ ذلك العقد شهر صفر سنة ٣٨٧ (فبراير مارس ٩٩٧[٣]) . أى أن أيوب وأخاه كانا من شهود العقد الذى كتبه

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة (بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢) رقم ٢٦٣ ص ١١٧

(٢) كتب دوزى فى الطبعة الأولى من أبحاثه المعروفة فصلا طيباً عن البكريين هؤلاء . وقد أسقط هـذا الفصل من الطبعتين الثانية والثالثة . ومرجعنا هنا إلى الطبعة الأولى (لايدن سنة ١٨٤٩) :

R. P. A. Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen-Age* (Leyde 1849), I.

وعنوان الفصل :

Notice sur les Becrites, seigneurs d'Huelva et de Djezirah Schaltisch, et sur la vie et les ouvrages du célèbre Géographe Abou Obaid al-Becri, pp. 282—307.

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، أورده دوزى فى الفصل المذكور فى الهامش السابق ص ٢٨٥

هشام المؤيد على نفسه مفوضاً أمور السلطان فى خلافته للمنصور محمد بن أبى عامر ، بعد جفوة وقعت بينهما عند ما شاء هشام ورجاله استرجاع السلطان من يد محمد بن أبى عامر .

ويبدو أن هذه الواقعة تضع يدنا على حقيقة هامة تتصل بالبكريين ، وهى أنهم كانوا من رجال المنصور بن أبى عامر ومؤيديه فيما سما إليه من الاستئثار بالسلطان ، وإلا فما معنى أن يكون أيوب وأخوه محمد شاهدين على عقد أخرج السلطان من يد الخليفة ورجاله ؟ . ولابن بسام رواية أخرى — عن ابن حيان أيضاً — يمكن تفسيرها بأن أيوب تولى ولبة وشلطيش فى أخريات أيامه ، فقد قال ابن حيان فى حديثه عن ابنه أبى زيد محمد « وكان هذا الفتى أبو زيد البكرى وارث ذلك العمل لأبيه ، وكان أبوه من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة والاتصال بسلطان الجماعة »[1] ، وإذا كان الناس لا يتولون الأعمال فى تلك الأيام إلا إذا كانوا من رجال المنصور وأهل ثقته ، استطعنا أن نقول إن أيوب وابنه كانا أولاً من رجال الخلافة والجماعة ثم دخلا فى زمرة الحزب العامرى الكبير الذى قبض على أزمة الأمور فى الأندلس واستبد بها دون الخليفة وآله . ويؤيد ذلك قول ابن بسام بعد الفقرة التى رويناها : « وكان له — أى لأبى زيد محمد البكرى — وسلفه قِبَل اسماعيل بن عباد جد المعتضد رسائل وأذمة خلفاها فى الأعقاب ، اغتر بها عبد العزيز (بن أبى زيد محمد) البكرى » ومعنى هذا أن أيوب وابنه كانت لهما صلات وثيقة وذمم قديمة مع اسماعيل ابن عباد جد بنى عباد أظهر رجال الحزب العامرى أواخر أيام المنصور ، ومن أول الخارجين على الجماعة والبادئين بالاستبداد ، وضارب المثل السيء لغيره من حكام النواحى فى الانتزاء بنواحيهم والسير فى طريق الفرقة المحزن المخوف .

وخلف أبا زيد محمد البكرى ابنه أبو المصعب عبد العزيز مستبدا بأمر هذا

---

(١) رواه ابن بسام . انظر دوزى : جامع أقوال العرب فى بنى عباد ج ١ ص ٢٥٢

الجزء الصغير من الأندلس الإسلامى ، وهو رقعة صغيرة من الأرض عند ملتقى نهرى التنتو Rio Tinto والأوديل Odiel وتكوينهما مصباً واسعاً بعض الشىء ينتهى فى المحيط الأطلسى . وفى هذا المصب توجد جزائر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيش Saltes وهى جزيرة صغيرة كان يسكنها نفر من الصيادين يعيشون من سمك يستخرجونه من البحر ويملحونه ويصدرونه إلى اشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس كما يقول الإدريسى ، وليس لهم مورد ماء عذب ، لأن مدخل النهر هناك يطغى عليه ماء المحيط ، وهم يجلبون ما يلزمهم من ماء الشرب من الضفة الأخرى لنهر تنتو ، ولا يفصل جزيرتهم عنها إلا مجرى النهر الضيق الذى يقول الإدريسى أن اتساعه لا يزيد على نصف رمية حجر . وهذه هى « الإمارة » التى « اقتعد صهوتها وتسنم ذروتها » أولئك البكريون على حد تعبير ابن بسام .

ومن الطريف أن لبلة المجاورة لولبة ، وهى كانت مهد البكريين ، استبد بأمرها رجل آخر يسمى احمد بن يحيى اليحصبى سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ — ١٠٢٦ بقليل ثم توفى سنة ٤٣٣ / ١٠٤١ — ١٠٤٢ تاركا إياها لابنه يحيى بن احمد ابن يحيى اليحصبى .

ولم يهنأ الأمر للمستبدّين الصغيرين فيما اقتطعاه من تراث الخلافة الأموية ، لأن جارهما المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية طمع فيهما وفى كل جيرانه من أصحاب الإمارات الصغيرة التى قامت غربى الوادى الكبير . ولكنه شغل بحرب طويلة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس عن التفرغ للاستيلاء على هذه الإمارات الصغيرة ، وحرص ابن الأفطس كذلك على أن يعين أصحابها على المعتضد ، وجرت بين الجانبين حروب طويلة حول لبلة خاصة . ولكن أبا الوليد بن جهور صاحب الأمر فى قرطبة خاف مغبة الصراع الطويل بين جاريه المتحاربين والعدو على الأبواب ، فتوسط فى عقد صلح بينهما ، وتم ذلك فى ربيع الأول سنة ٤٤٣/١٠٥١ وكان صلحاً مؤقتاً على دخن ، ككل الاتفاقات التى تمت بين أولئك المستبدين ، وكان المعتضد طامعاً منذ تولى أمر اشبيلية فى لبلة

بسبب ضعفها ، وما زال يضيق الخناق على صاحبها محمد بن يحيى اليحصبى الذى خلف أخاه احمد سنة ٤٣٤/١٠٤٢ ، حتى اضطره إلى التنازل عن الأمر لابن أخيه أبى نصر فتح بن خلف اليحصبى (سنة ٤٤٣/١٠٥١—١٠٥٢) الذى أبى رغم سوء الحـال إلا أن يتلقب بناصر الدولة ، ودام الأمر لهذا الأخير دون السنتين ، واضطره المعتضد إلى تسليم لبلة له ، فتركها بأهله وأمواله ومضى إلى قرطبة ليقضى بقية أيامه فيها (٤٤٥/١٠٥٣) . ومما لا يخلو من معنى أن هذا المسكين الذى تلقب بناصر الدولة لم يجد نفراً من الجند يرافقه إلى ملجئه ، فأرسل إليه المعتضد « قطعة من خيله أوصلته إلى قرطبة » .

وعند ما سقطت لبلة فى يد المعتضد أحس عبد العزيز البكرى أن أيامه فى ولبة وشلطيش قد دنت ، وملكه الخوف ، فأرسل إلى المعتضد يهنئه باستيلائه على لبلة « وذكره بالذمام الموصول بينهما ، واعترف بطاعته ، وعرض عليه التخلى عن ولبة ، واقراره بشلطيش إن شاء ، فوقع له ذلك من المعتضد موقع إرادة ، ورَدَّ الأمر إليه فيما يعزم عليه ، وأظهر الرغبة فى لقائه ، وخرج نحوه يبغى ذلك ، فلم يطمئن عبد العزيز إلى لقائه ، وتحمل يسبقه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش ، وتخلى للمعتضد عن ولبة ، فحازها حوزه للبلة ، وبسط الأمان لأهلها ، واستعمل عليها ثقة من رجاله ، ورسم له القَطْعَ بالبكرى ، ومَنْعَ الناس طرا من الدخول إليه ، فتركه محصوراً فى وسط الماء إلى أن ألقى بيده عن قُرْبٍ ، ولم يعزب عنه الحزم ، فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاق صاحبه ، فأمنه ولحق بقرطبة »[1] .

ويستطرد ابن حيان — برواية ابن بسام فيقول « وبوشر منه رجلا سرياً عاقلا عفيفاً أديباً يفوق صاحبه ابن يحيى جلالا وخلالا ، إلى زيادة عليه ببيت

---

(١) أورد دوزى هذه القطعة من كلام ابن حيان برواية ابن بسام فى مجموع النصوص الخاصة ببنى عباد . *Scriptorum Arabum Loci de Abbadides*, I, 252—253.

السرو والشرف ، وبابن له بذ الاقران جمالا وبهاء وسروا وأدباً ومعرفة يكنى أبا عبيد . وتحدث الناس من حزم عبد العزيز يومئذ أنه لما احتل بشلطيش عَلِم أنه لا يقاوم عَبَّاداً ، فأخذ بالحزم أوّلاً ، وتخلى له عنها بشروط ، وَفَى له بها ، فباع منه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال ، واحتل قرطبة فى كنف ابن جهور ، المأمون على الأموال والأنفس ، وصفت لعباد تلك البلاد ، وإن شاء الله يدوم صفاؤها ، والملك لله وحده »[١] .

تلك هى قصة إمارة البكريين فى ولبة وشلطيش : إمارة صغيرة لم تقم إلا بسبب تلاشى الحكومة المركزية ، فلم يكن لأصحابها من القوة ما يعينهم على الثبات لأول خطر تعرضوا له ، بل لم يكن لديهم أى نوع من القوة العسكرية ، فقد رأينا أبا المصعب عبد العزيز البكرى يفر إلى جزيرة فى مصب النهر لينجو من المعتضد ابن عباد ، وعندما تم الاتفاق على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب لم يجد قوة من الجند ترافقه حتى قرطبة . قال ابن الأبار فى الحلة السيراء : « وحكى غيره — أى غير ابن حيان — أن البكرى فى قصده قرطبة اجتاز بإقليم البصل وطلياطة (Tejada) . وقد أعد له المعتضد النزل والضيافة هنالك ، ومذهبه القبض عليه وعلى نعمته ، فقدم[٢] إلى صاحب قرمونه محمد بن عبد الله البرزالى يعلمه باجتيازه عليه ، وبأنه لا يأمن غائلة عبّاد ، ويسأله مشاركته[٣] وغفارته ، فعجل له قطعة من خيل مجردة لقيته بموضع اتفقا عليه ، ولم يَلْوِ البكرى على موضع النزل ، وحث حمولته حتى لقيته خيل ابن عبد الله (البرزالى) ، فوصل معها إلى قرمونه . ثم توجه منها

---

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) أى أرسل رسالة قبل وصوله .
(٣) يريد مرافقته .

إلى قرطبه ، ونجا من حبائل المعتضد . قال : « وكانت مدة البكريين بشلطيش وما إليها إحدى[1] وأربعين سنة (هجرية) » .

وكان أبو عبيد البكرى فى صحبة أبيه وآله عندما وردوا إلى قرطبة لاجئين على هذه الصورة . وقد ذكر جايانجوس فى احدى تعليقاته على ما ترجمه من نفح الطيب أن أبا عبيد ولد سنة ٤٣٢/١٠٤٠—١٠٤١ أى أن سنه عندما دخل به أبوه قرطبة (سنة ٤٤٣/١٠٥١—١٠٥٢) كانت إحدى عشرة سنة . ولم يورد جايانجوس مصدره الذى اعتمد عليه ، مما جعل دوزى يرفض هذا التاريخ ، ويؤيد دوزى فى ذلك قول ابن حيان أن أبا عبيد فى ذلك الحين « بذ الاقران جمالا وبهاء وسَرْوًا وأدباً ومعرفة » وهو كلام لا يقال عن صبى فى الحادية عشرة أو نحوها . ثم إن الآراء متفقة على أن أبا عبيد البكرى توفى سنة ٤٨٧/١٠٩٤ عن سن عالية ، فإذا كان قد ولد سنة ٤٣٢ فقد كانت سنه يوم توفى ٥٥ سنة على هذا الحساب ، وهى ليست بالسن العالية . ولنضف إلى ذلك أن ابن خاقان يقول فى ترجمته « رأيته وأنا غلام ما أقمر هلالى ، ولا نبغ فى الذكاء كوثرى ولا زلالى ، فى مجلس ابن منظور ، فى هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سَبلة كأنما يروق العينَ إيماضُها . ويفوق السوادَ بياضُها ، وقد بلغ سِنَّ ابن مُحَلِّم » أى أن أبا عبيد كان فى الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلاما ، لأن ابن محلم هذا هو عوف بن محلم الشيبانى صاحب البيت المشهور :

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وما دام ابن حيان يذكر أن أبا عبيد لم يطل مقامه فى قرطبة حتى عرف بسعة العلم ، فإننا نستطيع القول إنه دخلها شابا ، بين العشرين والخامسة والعشرين فى الأغلب ، ومن الغريب أن ابن بشكوال يعد فى « الصلة » أبا

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، روى هذه القطعة دوزى فى مجموعة نصوص بن عباد ، ١/٢٨٧

حيان بين شيوخ البكرى ، ومع هذا فإن ابن حيان لم يختصه إلا بمادة قصيرة لا تغنى كثيراً فى التعريف به ، وقد أوردناها برواية ابن بسام ، وربما يكون قد اختصرها . وهى رغم اقتضابها وانصرافها إلى سجعات قليلة الغناء تنبىء عن المكانة التى وصل إليها أبو عبيد بين علماء عصره ، وتشبهها فى ذلك المادة التى أدارها أبو نصر الفتح بن عبيد الله بن خاقان على أبى عبيد البكرى فى القلائد ، فهى على طولها لا تنقع الغلة ، ولا يكاد الإنسان يستخرج منها شيئاً نافعاً من خلال حجب السجع والتكلف البالغ .

ولا ندرى كم أقام أبو عبيد فى قرطبة ، ولكن الثابت أنه لم يغادرها إلا بعد أن ذاع صيته بالعلم ورغب بعض أمراء النواحى فى أن ينتقل إلى بلادهم ، ولا تكون هذه الشهرة خارج مقامه فى قرطبة إلا نتيجة لكتب ألفها وتناقلها الناس ، ولهذا فيغلب على ظننا أنه ألف إذ ذاك بعض كتبه الأدبية الصغيرة السابقة على « اللآلى » . فأمثال هذه الكتب التى تعرض علم صاحبها باللغة والأدب « ومعانى الأشعار والغريب والأنساب والأخبار » هى التى كانت تقرر للناس مكانهم من العلم والعلماء إلى جانب كتب الفقه والحديث ، أما كتب الجغرافية والفلسفة والطب والأعشاب وما إليها ، فلم يكن يقدرها أو ينظر إليها إلا المعنيون بها ، ونادرا ما كان أهل الفكر وأصحاب التراجم يحتفلون بأصحابها أو يعتبرونها مؤلفات جديرة بالذكر ، إنما كان أصحاب هذه العلوم والفنون يمارسونها لمزاجهم الخاص ، وحتى فى الحالات التى بلغ اهتمام بعض العلماء بها مبلغ التخصص وتكريس الحياة لها ، كان عليهم أن يصرفوا جانباً من نشاطهم إلى علوم الدين والأدب إذا شاءوا أن يكون لهم مكان بين العلماء أو ذكر فى معاجم الرجال .

وأبو عبيد البكرى مثال ظاهر لتلك الحقيقة (التى لاحظناها فى كلامنا عن العذرى وسنلاحظها فى كلامنا عن ابن عبد المنعم الحميرى) ، فإن من ترجموا له أو تحدثوا عنه من معاصريه لا يذكرون إلا كتبه الفقهية واللغوية ، فابن

حيان وابن بسام وابن خاقان لا يشيرون إلا إلى علمه الواسع باللغة والأدب وبلاغته وبيانه ، وابن بشكوال فى الصلة لا يذكر له إلا كتابه فى « أعلام النبوة » والإشارات فى كتب الأدب كثيرة إلى بعض كتبه الأدبية الأخرى مثل « اشتقاق الأسماء » الذى ذكره السيوطى وكتاب « شفاء عليل العربية » الذى ذكره حاجي خليفه ، ثم مؤلفه الأدبى الأكبر « اللآلى » الذى اعتبر منذ تأليفه من الأصول الأساسية فى الأدب واللغة .

ويبدو كذلك أنه كتب فى هذه الفترة كتابه « التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه » فإن الكتاب يحمل طابع الشباب والرغبة فى الظهور عن طريق تعقب شيخ من شيوخ الأدب كأبى على القالى واستدراك أخطاء عليه . وقد أخطأ أبو عبيد فى الكثير من استدراكاته على القالى ، ووقع فى أغلاط أخرى ، مما يدل على أنه لم يكن قد اكتمل علمه بعد ، وأن الرغبة فى ذيوع الاسم هى التى حملته على الإقدام على هذا التأليف ، وكان التعرض بالنقد لكبار أساتذة المشرق أو من قدموا منه ومحاولة اثبات أن الأندلسيين لا يقلون عنهم باعا سمة من سمات التأليف فى ذلك العصر ، وهذا هو الذى دفع ابن فرج الجيانى إلى تأليف كتاب الحدائق وابن بسام إلى تأليف الذخيرة . ويبدو ذلك الاتجاه واضحاً فى قول ابن بسام فى أثناء كلامه عن أبى عبيد البكرى : « ولولا تأخر ولادته لأنسى ذكر كنيِّه المتقدم الأوان » . وكنيه المراد هنا هو أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتابى الأموال والغريب المصنف ، ويلاحظ أن لأبى عبيد البكرى كتاباً يسمى « صلة المفصول فى شرح أبيات الغريب المصنف » ورد ذكره فى « اللآلى » وفى فهرسة ابن خير ، مما يحملنا على الظن أنه أيضاً من نتاج هذه الفترة القرطبية الأولى .

وفى أثناء هذه الفترة الأولى اتصلت الاسباب بينه وبين بعض شعراء قرطبة ، منهم ابراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاط وزير أبى الوليد بن

جهور ، وله فى وداعه بضعة أبيات انشدها ابن حيان فى تاريخه الكبير وأوردها ابن الأبار فى الحلة السيراء مطلعها :

كذا فى بروج السعد ينتقل البدر ويُحْسِنُ حيث احتل آثاره القَطْرُ

وهى من ضعيف الشعر الذى يدل على أن صاحبه كان فى البداية . ولم يكن أبو عبيد بالشاعر ، ولكن قول الشعر كان من لوازم الوجاهة ودلائل العلم فى العالم العربى كله ، وقل أن نجد فقيهاً أو كاتباً أو وزيراً إلا وله أبيات ليس فيها من الشعر فى الغالب إلا الوزن والقافية . وقد ظل أبو عبيد يقول هذا الطراز من الشعر طول حياته دون أن يكون ذلك سبيلا إلى نظمه فى سلك الشعراء .

وأبو عبيد يخاطب ابن السقاط فى هذه الأبيات مخاطبة التابع ، وكان ابن السقاط وزيراً لابن جهور ، ونستنتج من هذا أن أبا عبيد لم يصل إلى درجة الوزارة فى قرطبة على هوان أمرها فى ذلك الحين ، ويرجع هذا دون شك إلى أنه لم يكن ذا هوى بالمناصب وخدمة الأمراء ، ولو شاء لبلغ فى هذه الناحية ما بلغه غيره ممن كانوا أقل منه ، ولكنه كان رجل علم وبحث وأدب واطلاع وانصراف إلى شىء من اللهو والشراب .

وتدل إشارة قلقة لابن الأبار فى « الحلة » على أن أبا عبيد انتقل من قرطبة إلى المرية وعاش ردحا من الزمن فى كنف محمد بن معن صاحبها ، وهذه الاشارة هى قوله : « وحكى الفتح بن عبيد الله (أى ابن خاقان) فيما وَجَدَ بخط ابن حيان على زعمه أن عبيد الله صار إلى محمد بن معن صاحب المرية ، فاصطفاه لصحبته ، وآثر مجالسته والأنس به ورفع مرتبته ووفر طعمته » وهذه العبارة قلقة من ثلاث نواح : أولاها أننا لا نجدها فى واحدٍ من كتابى الفتح بن خاقان المعروفين ، وثانيتها أن الفتح بن خاقان لا يروى عن ابن حيان أبداً والثالثة هى هذا التحفظ الذى يلتزمه ابن الأبار بقوله « على زعمه » ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكننا نعتقد أن لها نصيباً من الحقيقة ، فقد عد ابن بشكوال فى الصلة أبا العباس احمد بن عمر العذرى بين شيوخ أبى عبيد البكرى ، والعذرى من أهل المرية وعلمائها . وربما يكون هذا اللقاء مع العذرى الجغرافى هو الذى حبب الجغرافية إلى البكرى ورغّبه فى التأليف فيها ، فإن اتجاه أديب لغوى كأبى عبيد البكرى إلى التأليف فى الجغرافية لا يأتى عفواً ، وانما التأليف فى هذه الفروع من العلم كان هواية يأخذها رجل عن رجل إذا صادفت من نفسه ميلا ، ومن حسن الحظ أن أبا عبيد كان عظيم الاستعداد للبحث فى هذا العلم ، فأقبل عليه وأجاد فيه حتى صار من أعلامه ، واتصل عن طريقه تقليد التأليف الجغرافى فى الأندلس من الرازى إلى العذرى إليه .

ونمر مسرعين بما لدينا من معلومات عن بقية حياة البكرى لكى نفرغ بعد ذلك لدراسة انتاجه العلمى الوافر .

لم يستقر المقام بأبى عبيد فى المرية ، فقد كان كغيره من أهل العلم والفن فى ذلك العصر قلقاً لا يستقر به المقام طويلا فى بلد واحد ، ثم إن إمارة بنى صمادح فى المرية كانت من أصغر إمارات الطوائف وأضعفها وأفقرها بالتالى ، وكان العلماء وأهل الأدب يتجمعون رويداً رويداً فى اشبيلية فى كنف المعتمد ابن عباد ، وأخذ نجمها يعلو كعاصمة فكرية للأندلس الإسلامى . فشد أبو عبيد رحاله إليها .

لم يتقلد أبو عبيد فى اشبيلية منصباً أو وظيفة ، ويبدو أنه كان فى سعة من المال لا يحوجه الأمر إلى راتب أو مورد عيش ، بل اكتفى بأن يكون من أصحاب المعتمد الذين يحضرون مجلسه ، وقد يقول شيئاً من الشعر فى مديحه ، وانصرف بكليته إلى البحث والتأليف . ويغلب على الظن أن انتقاله إلى اشبيلية كان بعد وفاة المعتضد وولاية المعتمد فى سنة ٤٦١/١٠٦٨ ، إذ أننا نستبعد أن يكون قد ذهب إلى المعتضد بعد الذى فعله بأبيه وآله . وفى اشبيلية

أقام أبو عبيد حتى توفى وقد نيف على الثمانين كما ذكرناه سنة ٤٨٧/١٠٩٤ أى أنه قضى فيها قرابة خمس وعشرين سنة هى دون شك أحفل سنوات عمره بالدراسة والانتاج .

وقد نعم أبو عبيد طوال هذه الفترة بهدوء وصفو لم يعكرها شيء من الاحداث ، ولكن ما أصابه فى الماضى من ضياع ملك أبيه والاضطرار إلى مغادرة وطنه واللجوء إلى قرطبة هارباً مع أبيه وهو بعد فى شبابه الباكر ، ثم ما حاق بالأندلس كله من النكبات وسوء المصير ، وما تهدده من الأخطار ، كل هذا كان حقيقاً بأن يؤثر فى نفسه وفى مزاجه ، وكان بطبعه رجلا مرهف الحس رقيق الحاشية ، لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مأساة وطنه وعصره ، فمال إلى شيء من الخمر يتسلى به ويغرق فيه همومه إذا سئمت نفسه القراءة والكتابة . وقد أسرف بعض من ترجموا له فى نعى هذا العيب عليه ، وأشدهم فى ذلك ابن خاقان فقد قال : « . . . على هنات كانت فيه مستبشعة الذكر ، مستشنعة النكر ، تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر . فإنه كان رحمه الله مباكراً للراح لا يصحو من خمارها ، ولا يمحو رسم إدمانه من مضمارها ، ولا يريح إلا على تعاطيها ، ولا يستريح إلا إلى معاطيها . . . » ولا شك أن الصفدى نقل عن ابن خاقان عند ما قال إن أبا عبيد « كان معاقراً للراح لا يصحو من خُمارها يدمنها أبداً . . . »[1] .

والحقيقة أننا إذا نظرنا فى مؤلفات البكرى تجلى لنا رجل هو أبعد ما يكون عن هذا الادمان الذى رمى به ، فكيف يجمع هذا الجمع الغزير ويصنف هذا التصنيف العلمى الدقيق الرائق رجل لا يفيق من الخمر ؟ أقرب الآراء إلى الصحة — كما قال دوزى — أن أبا عبيد كان ذا طبيعة شاعرة وحب للطبيعة والزهور وميل إلى شيء من اللهو والمسرة ، وأنه لم يكن يتحرج من كأس

---

(١) رواه عبد العزيز الميمنى فى مقدمة سمط اللآلى ، صفحة و .

من الخمر طلباً لمزيد من مسرة أو التماساً للسلوان عن هموم الأيام ، وقد يكون الذى أصابه بهذه السمعة المبالغ فيها شىء من شعر غير متحفظ قاله فى مجلس أنس كقوله :

خليلىَّ إنى قد طربتُ إلى الكاس وتُقت إلى شم البنفسج والآس
فقوما بنـــا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سراً من الناس
(فإنْ نطقوا كنا نصارى ترهبوا وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس)
فليس علينا فى التعلل ساعـــة وإن وقعت فى عُقب شعبان من باس

فهذه ليست أبيات مخمور أو مدمن للشراب ، وإنما أبيات رجل يحب الطبيعة والزهر ولا يجد بأساً من شىء من الشراب ، وليس من الضرورى أن يكون تفسير المصراع الثانى من البيت الأخير أن أبا عبيد كان يستحل الشراب فى رمضان ، وإنما هى مطاوعة للقافية ، وقد كان أمثال البكرى إذا قالوا مثل هذا الشعر افترضوا أن الناس لا يأخذونه بحرفيته ، ثم إن ابن خاقان لم يره يشرب أو مخموراً ، وإنما قال عن خلة الادمان التى رماه بها : « تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر » . أما الذى رؤى يشرب بالفعل ، وحضر مجلس القاضى عياض مخموراً حتى استنكهه ليتثبت قبل أن يوقع عليه الحد ، فهو ابن خاقان نفسه ، والخبر مشهور .

مؤلفات البكرى

أحصى الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته القيمة لكتاب اللآلى اثنى عشر كتاباً لأبى عبيد البكرى ، وهذه المؤلفات تقع فى ثلاثة أنواع : وها هو بيانها مع ملاحظات الأستاذ الميمنى عليها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤلفات لغوية وأدبية

١ — كتاب « الإحصاء لطبقات الشعراء » وهو كبير ذكره فى اللآلى (٢٠ ، ٥٧) ويظهر أنه حَوْكُ كتاب الآمدى (المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء) وقد كان البكرى وقف عليه أيضاً .

٢ — كتاب « اشتقاق الأسماء » ذكره السيوطى .

٣ — « التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه » وطبع قبل بضعة أعوام عن نسخة متقنة الكتابة والضبط جليلة كتبت سنة ٦٦٢ هـ . ولما كان البكرى وقف على الأصول التى أملى منها أبو على « النوادر » فقد أمكنه أن ينبّه على مظان الوهم والخطأ والاختلاف فى « الأمالى » بعد معارضتها بتلك الأصول . . .

٤ — « شفاء عليل العربية » ذكره الحاج خليفة .

٥ — كتاب « صلة المفصول ، فى شرح أبيات الغريب المصنف » (لأبى عبيد القاسم بن سلام) . ويرويه ابن خير عن أبى بكر اللخمى المذكور ، وعن الفقيه الشريف أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن القرشى ، المعروف بابن الأحمر ، قالا : حدثنا به البكرى .

٦ — « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال » يرويه ابن خير بسَنَدَىْ المفصول (فهرسة ص ٣٤٤) ووقف عليه ابن الشيخ البلوى (ألف باء ١/٣٨ و ٤٢٩—٢/٨٥ و ٤٤٤) . وذكره الحاج خليفة أيضاً . توجد منه نسخة فى مكتبة الاسكوريال . رقم ٥٢٦

٧ — « اللآلى فى شرح أمالى القالى » وهو أكبر مؤلفاته فى ميدان اللغة والأدب . نشره الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مجلدين (القاهرة ١٩٣٦) مع إضافات وتعليقات واستدراكات تحت عنوان سمط اللآلى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤلفات جغرافية

٨ — المسالك والممالك .

٩ — معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع .

مؤلفات فى موضوعات أخرى

١٠ — « أعلام نبوة نبينا محمد » . ذكره ابن بشكوال كما تقدم .

١١ — « التدريب والتهذيب فى ضروب أحوال الحروب » . ذكره فى معجمه (٣٩٨) .

١٢ — كتاب « النبات » كذا سماه ابن خير ، ورواه بسند صلة المفصول ، وسماه ابن أبى أصيبعة كتاب « اعيان النبات والشجريات الأندلسية » .

ويهمنا من هذه كلها كتاباه فى الجغرافية ، ومن حسن الحظ أن واحداً منهما وصل إلينا كاملا ، ونشر مرتين (المعجم) والثانى وصلت إلينا قطع كثيرة منه (المسالك والممالك) .

معجم ما استعجم

يبدو لنا أن هذا الكتاب هو أول ما ألف البكرى فى الجغرافية . وإذا كان اتجاهه إلى التأليف فى هذا الفن قد بدأ فى المرية بتأثير شيخه أبى العباس احمد بن عمر بن أنس العذرى ، فإن الأغلب أنه بدأ تأليفه إياه فيها ، ومما يؤيد ذلك أنه وسط بين اللغة والجغرافية أو خطوة انتقال بينهما . ويتضح هذا من قوله فى فاتحة الكتاب معرفا بغرضه من تأليفه : « هذا كتاب « معجم

ما استعجم » ذكرت فيه — إن شاء الله — جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس ، أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف . . » أى أنه إنما وضعه ليستعين به الذين يدرسون الحديث والأدب والأخبار فى التعرف على المواضع التى تستعجم عليهم ، وتحرى أن يقيد كل علم بالضبط الكامل حتى لا يقع فى رسمه ونطقه لبس .

وهذا فيما أعرف أول معجم جغرافى فى تاريخ التأليف الجغرافى عند العرب ، فان التأليف فى ذلك الفن اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك . أما أن يفكر عالم فى وضع معجم أبجدى لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافى عند العرب ، نوع سيتطور ويزهر حتى يصل إلى ذروته فى معجم ياقوت المعروف . نعم إن البكرى قصره على ما ورد فى الحديث والأخبار وكتب الأدب المشرقية من المواضع ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الخطوة التى خطاها أبو عبيد البكرى بالتأليف الجغرافى عند العرب عندما شرع فى تأليف معجمه هذا . ومن الواضح أن التفكير فيه يدل على عقلية منظمة منهجية عند صاحبها ، فإن إحصاء هذه المواضع وضبطها يتطلب قراءة أصول الحديث والسيرة والشعر والنثر لتقييد ما فيها من الأعلام الجغرافية مع ضبطها وما يرد عنها من التعريف فى كل أصل من هذه ، وهذا مطلب عسير لا يعتمد على سعة الاطلاع وحدها ، بل على منهج مقرر فى القراءة والتقييد والمقارنة على مثال ما يفعله العلماء اليوم فى أمثال هذه التآليف .

والأخبار متواردة عن عناية البكرى بالكتب واجتهاده فى نسخ أصوله منها بيده ومراجعة ما ينسخ مراجعة دقيقة ، ثم العناية الكاملة بالمحافظة عليها ، حتى كان يحفظها فى سبانى الشرب ، والسَّبَنِيَّة شىء أشبه بالمنديل من القماش

الرقيق الغالى ، وسبنيات الشرب أغلاهـا وأرقها ، فقد كان الناس يدخرونها للولائم وساعات الشراب ، ومن جل يبلغ به الحب للكتب مبلغ أن يصون كل كتاب فى سبنية لا بد أن يكون ذا حب عظيم للكتب وعناية خاصة بحفظها وصيانتها .

وقد رتب البكرى معجمه على حروف الهجاء حسب ترتيبها عند الأندلسيين فى عصره وهو : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ى « وجعل ترتيب الكلمات فى كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثانى الأصليين من الكلمة ، دون نظر إلى ترتيب ما بعدهما من الحروف ، وإذا كان الحرف الثانى ألفا زائده ، كألف صاحب وفاضل ، أهمله ، ولم ينظر إليه ، واعتبر الحرف الثانى ما بعد الألف ، وفى هذا ما فيه من العسر والتكلف . ولذلك يضطر الباحث عن كلمة فى حرف من الحروف أن يقلب صفحات المعجم فى هذا الحرف حتى يعثر على ضالته بالمصادفة ، لا بأن يطلبها فى موضعها الذى ينبغى أن تستقر فيه ، بحسب نظام الفهرسة الدقيقة لألفاظ المعاجم » كما يقول الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته الجامعة لمعجم ما استعجم واتبـاع البكرى لهذه الطريقة لم يكن تكلفا ، ولكنّ علم المعاجم كان فى طريق التكوين ولم تكن قد تقررت له أصول ثابتة عند العرب ، فكان كل صاحب معجم يتبع الترتيب الذى يحسبه أيسر من غيره وأعون للباحثين . وقد تغلب فرديناند فستنفلد الذى نشر هذا المعجم أول مرة على هذه الصعوبة بأن أورد فى نهـايته ثبتاً أبجديا عاديا للاعلام مع أرقام الصفحات . أما الأستاذ مصطفى السقا الذى نشره مرة أخرى فى القاهرة فقد أعاد ترتيب الأعلام الجغرافية جميعاً ترتيباً أبجدياً حديثاً صرفاً .

وقبل أن يبدأ البكرى فى إيراد ألفاظ معجمه وضع دراسة شاملة لجغرافية شبه الجزيرة العربية ، وهى أوفى ما لدينا فى هذا الباب ، بل إن هذه الدراسة أوفى من صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف

ابن داوود الهمدانى اليمنى المعروف بابن الحائك (توفى ٣٣٤) فمع أن الهمدانى من أبناء شبه الجزيرة العربية وقد جابها من طرف لطرف باحثاً منقباً ، إلا أنه لم يصل إلى دقة البكرى وشموله ، إلا فيما يتصل باليمن وجنوبى الجزيرة . مما يشهد للبكرى بقدرة فائقة على الجمع والاستيعاب والتنسيق والترتيب وسلامة التصور الجغرافى ، فإنه لم يكن من الجغرافيين الرحالة الذين يكتبون عن مشاهدة ومعاناة مباشرتين ، بل كان يكتب فى الجغرافية معتمداً على القراءة والتصنيف والتصور ، وقد فاق فيما وصل إليه من النتائج أهل الرحلة والمشاهدة ، ونستطيع كذلك أن نقرر أن القسم الخاص بمصر مثلا من مسالك البكرى هو أحسن وأوفى ما ألف فى جغرافية مصر قبل المقريزى وهكذا .

وذلك كله يرجع إلى أن البكرى كان يتصف بدقة لا يدانيه فيها إلا القليلون جداً من مؤلفينا القدامى ، فهو لا يكتفى بما يقع تحت يده من الكتب ، بل يبحث عن الأصول ، ثم يرجع إلى المراجع التى استند إليها أصحاب هذه الأصول يدرسها بنفسه درساً دقيقاً عميقاً صبوراً ، وهى خاصيته الأولى التى رافقته فى كل ما ألف . قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته « للآلى » : « لا غرو أن البكرى كان حريصاً على انتقاء الكتب ذوات الخطوط المنسوبة ، مغرماً باقتنائها ، ثبتاً فى ضبط الألفاظ وتقييد الروايات على حسب ما كان يجده مثبتاً فيها . وقد ذكر ابن خير فى فهرسته (ص ٣٩٥) أسماء كتب دخل بها أبو على (القالى) الأندلسى ، ونرى صاحبنا (أى البكرى) وقف على الكتب التى أملى بها أبو على « النوادر » وعلى أصوله « كالابدال » لابن السكيت و « أمالى » ابن الأنبارى و « نوادر » ابن الأعرابى بخط أبى موسى الحامض ، وعلى كثير من المجاميع كالمنتسخة من كتاب أبى سعيد السكرى ، وكتاب أبى على بخطه الذى قرأ فيه على ابن دريد ، والكتاب الذى قرأ فيه على نفطويه ، وهو بخط ابراهيم بن سعدان وشعر ابن أحمر ، وذكر أشعار هذيل رواية القالى ، واصلاح المنطق روايته ، إلى غيرها من أصول القالى ورواياته . وقد وقف على كثير

من غير خطه أيضاً ككتاب بخط ابن الأعرابى ، وآخر بخط ابن السكيت ، وأنساب عبد شمس للأصبهانى بخطه ، وشعر امرىء القيس بخط ابن برد ، وكتاب قرأه الزجاج على اليزيدى وأثبت عليه خطه ، وكتاب بخط ثابت الجرجانى ، وآخر بخط عبد الله بن حسين بن عاصم اللاغوى إلى غيرها[1] » وهذه المعلومات أخذها الميمنى من كلام البكرى فى اللآلى والمعجم ، لأنه — أى البكرى — كان يحرص على الاعتماد على أصول الكتب بخطوط مؤلفيها أو بخطوط رجال موثوق فيما ينقلون وينسخون . وهى مرتبة فى التدقيق والتحقيق نادرة فيمن نعرف من المؤلفين كما قلنا .

ولا يتسع المقام لإيراد فقرات من وصفه لبلاد العرب للتدليل على ضبطه ودقته ووضوحه ، فالكتاب مطبوع طبعتين جيدتين لا يعسر الرجوع إليهما على أحد ، ويكفى أن نشير مثلا إلى تحديده لجبال السراة والحجاز وتهامة ونجد ، فإننا نلاحظ الضبط الكامل فى الكلام والتحديد ، ونلاحظ إلى جانب ذلك شيئاً آخر على أكبر جانب من الأهمية ، وهو دقة تصور البكرى لما يصف ، كأنه كان يرسم لنفسه خرائط ورسوماً يضع عليها أسماء المعالم الجغرافية حتى يعرف بالضبط موضع العَلَم الذى يتحدث عنه . خذ مثلا قوله عن تهامة : « وأما تهامة ، فإنك إذا هبطت من الأُمَاية إلى الفُرُع وغَيْقَة إلى طريق مكة إلى أن تدخل مكة : تهامة ، إلى ما وراء ذلك من بلاد عك ، كلها تهامة ، والمجازَةُ وعُلَيِّب وتَنَوْمَى ويَزَمَن كلها تهامة . وأنت إذا انحدرت فى ثنايا ذات عرق مُتْهِم ، وأنت إذا تَصَوَّبْتَ فى ثنايا العرج إلى أقصى بلاد فزارة أنت مُتْهِم ، فإن جاوزتَ بلاد فزارة إلى أرض كلب فأنت[2] بالجناب . . . » وهذا كلام لا

---

(١) مقدمة سمط اللآلىء ، صفحة ك .

(٢) معجم ما استعجم ، طبعة مصطفى السقا ، ١٣/١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكتبه رجل إلا وأمامه مخطط ينظر فيه ويتكلم بناء عليه ، مخطط عليه الأماكن والطرق واتجاهاتها والجبال ومجاريها والقبائل ومنازلها والبلاد وزمامها .

ولم يكن ذلك ميسوراً للبكرى إلا بعد دراسة طويلة لكل ما ورد من الإشارات الجغرافية فيما قرأ من الكتب ، وهو ينص على مصادره وأصوله بغاية الدقة ، وقائمة مراجعة طويلة ، ويكفى أن نذكر أنه فى الصفحتين الأوليين فحسب من « ذكر جزيرة العرب » يرجع إلى هشام بن محمد بن السائب الكلبى وعبد الله ابن وهب واحمد بن المعذّل والمغيرة بن عبد الرحمن والأصمعى وأبى عبيد عبد الله بن بشر السّكونى والشعبى والخليل وأبى اسحق الحربى . وهو لا يكتفى بذكر المرجع بل يأتى بسنده . هذا إلى إيراد أمثلة من الشعر ورد فيها ذكر المواضع وإشارات طويلة إلى القبائل ومنازلها وحدود هذه المنازل ، وتتخلل ذلك كله إشارات تاريخية طويلة وحكايات قصيرة تتصل بالموضوع .

ويبدو لنا أن البكرى كتب هذه المقدمة الطويلة فى جغرافية الجزيرة بعد أن فرغ من المعجم ، فإنه لا يشير إليها فى خطبة الكتاب التى يصف فيها منهجه فى تأليفه وأسلوبه فى الترتيب الأبجدى ، وهو يقول فيها : فجميع أبواب هذا الكتاب ٧٨٤ بابا وهو ما يجتمع من ضرب ٢٨ فى مثلها » و ٢٨ هو عدد حروف الهجاء فى حسابه ، والرقم الذى أعطاه هو عدد المواد ، ولو كان منهج المعجم كما وضعه البكرى قبل التأليف يتضمن تلك المقدمة الفريدة لأشار إليها أو لأضاف لها بابا فى الحساب على الأقل .

هذا ومن الملاحظ إلى جانب ذلك أن النسخ المخطوطة للمعجم تختلف فيما بينهم اختلافا يسيراً ، ففى بعضها مواضع وتحديدات لا تبدو فى بعضها الآخر ، « وقد علل فستنفلد ذلك فى مقدمته القيمة لطبعته بأن البكرى كتب المعجم أولا ، ثم أذاعه وتهاداه الناس والرؤساء ، ثم ردد النظر فى المعجم متصفحاً منقحاً ، فبدت له فيه أشياء لم يفطن لها أول الأمر ، فأصلحها على هامش بعض النسخ ، أو كما يقول العلامة فستنفلد فى أوراق وجزازات ، وألحقها بموضعها

من الكتاب ، ثم جاء الناسخون ينقلون الكتاب ، فبعضهم عثر على نسخة منه قبل التنقيح ، فنقلها ناقصة ، وآخر عثر على نسخة منه منقحة ، فنقلها كاملة ، وبعضهم نقل الجزازات كلها ، وبعضهم وجدها ناقصة ، فاختلفت نسخ الكتاب فى أيدى الناس ، وهذا أمر عهدنا مثله فى مقدمة ابن خلدون ، وفى دواوين كثير من الشعراء[١] » .

فإذا انتقلنا إلى المعجم نفسه وجدنا تحديداً وضبطاً ودقة تشفى غلة أكثر الباحثين طموحاً وتدقيقاً ، ولقد أصاب راينهارت دوزى عند ما قال عنه : « لقد أصدر عالم مشهور هو البارون دى سلان[٢] حكماً غير منصف لهذا الكتاب عند ما قال : « فبدلا من كتاب طيب فى الجغرافية ، وهو ما كنا ننتظره من مؤلف ممتاز مثل أبى عبيد البكرى ، تبينت أن كتابه هذا إن هو إلا معجم للأعلام الجغرافية الواردة فى أشعار العرب القديمة » ولكننى لا أستطيع أن أعتبر هذا الكلام نتيجة لدراسة نهائية . إن الفكرة العالية عندى عن علم البارون دى سلان وذوقه وذكائه لا تسمح لى بذلك . وليس ذنب البكرى قطعاً أنه لم يؤلف كتابه على النحو الذى يريده السيد دى سلان ، خاصة وأن البكرى كتب كتابه الكامل فى الجغرافية الذى تحدثت عنه (الإشارة هنا إلى المسالك) . وعلى هذا فلا بد أن ننظر إلى الكتاب من زاوية أخرى ، لكى نستطيع أن نصدر عليه حكماً أقرب إلى الإنصاف . وإننى لأشعر نحو البكرى بشعور عميق من العرفان ، وهو شعور صادر عن انتفاع طويل بالمعجم يحتم على الاعتراف له بالفضل ، وما دمنا لن نتطلب فى هذا الكتاب أشياء لا ينتظر أن توجد فيه ، نتيجة للخطة التى رسمها المؤلف لنفسه

---

(١) رواه الأستاذ السقا فى مقدمة معجم ما استعجم .

(٢) يشير دوزى فى الهامش إلى الموضع الذى أصدر فيه دى سلان هذا الرأى وهو :
Rapport adressé à M. le ministre de l'instruction publique sur les manuscrits de la Bibl. de Cid Hammouda à Constantine. Voyer aussi M. Reinaud, Introduction à la traduction française d'Abou-l-feda, p CIV.

فى تأليفه ، فإننا نستطيع القول بأنه أحسن فى نوعه من « المسالك » . ومن البديهى أن المعجم لا يهم بنفس الدرجة عامة القراء الأوربيين ، ولكن لدينا كتباً عربية كثيرة من ذلك النوع (المسالك والممالك) ، ولا بد من تجاوز كثير حتى يمكن القول بأنها كلها أقل قيمة من كتاب البكرى (فى المسالك) . وعلى العكس من ذلك نجد « المعجم » فريداً فى نوعه ، ومن المؤكد الثابت أننا لا نملك أى مؤلف آخر نستطيع أن نقارنه به سواء من ناحية الشمول أو ناحية الدقة والتحقيق فى التفاصيل ، فهو يضم أسماء حشد من أسماء أعلام الأماكن والجبال والأنهار وما إلى ذلك مما يرد فى كتب التاريخ العربية القديمة والأحاديث النبوية والأشعار خاصة ، مرتبة بحسب ترتيب الابجدية المغربية . وهو يدرسها برسمها الدقيق ويعين مواضعها ويورد عدداً لا حصر له من الأبيات الشعرية التى يرد فيها ذكر هذه المواضع . وليس هناك ما يحير من يقرأون الشعر العربى القديم أكثر من أسماء المواضع التى لا نعرف فى الغالب نطقها وأماكنها . وهذا الكتاب إذن ذو فائدة لا تقدر فى حل هذه الصعوبات . ولا غنى عنه لكل من يدرسون تاريخ العرب القديم وجغرافية بلادهم وأشعارهم والأحاديث النبوية ذات المعنى التاريخى ، وقصارى القول أننى أقرر أنه فريد فى نوعه ، وقد سبق أن قلت ذلك ، ولكنى أعيد قوله . وكل ما لدينا سواه فى هذا الموضوع ضئيل هزيل وغير دقيق بصفة خاصة إذا قورن بهذا المؤلف الجليل الحافل بالتفاصيل الغريبة والذى اعتمد مؤلفه فى تأليفه على ألوف من الأصول تعتبر اليوم فى حكم المفقودة ، ثم إنه — أى المؤلف — أديب وجغرافى كفء كل الكفاية للقيام بالعمل العسير الذى اضطلع به . هذا ولا يخرج الإنسان من كتب الجغرافيين الآخرين إلا بمزيد من الحيرة ، فهم يكدسون الأخطاء فوق الأخطاء والمتناقضات فوق المتناقضات . وخذ مثلا اسم موضع يرد فى قصيدة قديمة وابحث عنه — لا أقول فى « مراصد الاطلاع » فهذا الكتاب فوق النقد فى هذا المجال — وإنما فى أى مؤلف جغرافى آخر ،

وعلى فرض أنك تجد فيه اسم ذلك الموضع (وهو ما يندر وقوعه) فقارن ما عنده بما عند البكرى ، وهنا ستجد — وأنا لا أتردد فى ذلك القول — أن المعلومات التى يقدمها الكتاب الأول خاطئة ، أو على الأقل مضطربة ، فى حين أن معلومات البكرى واضحة ناصعة دقيقة وصحيحة بعد ذلك كله . وتزيد قيمة هذا الكتاب بسبب مقدمته التى يعين البكرى فيها حدود جزيرة العرب وأقسامها : الحجاز وتهامة واليمن ويتحدث عن القبائل العربية التى نزلت هذه النواحى ، وما أصاب هذه المنازل من تغيير[١] » .

وهذا أحسن تقدير لمعجم البكرى ، وقد نقله بنصه الفرنسى فرديناند فستنفلد فى مقدمته لتحقيقه ونشره له ، وأورد ترجمة موجزة له الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته لطبعته للمعجم ، وهذا الحكم يضع البكرى فى مكانه الصحيح بين جغرافيينا ، ويبين أهمية معجمه كنوع فريد لا نظير له فى المكتبة العربية ، وهذا يكفى لإفساح مكان ممتاز للبكرى بين الجغرافيين ، ولكننا سنرى أن فضله فى « المسالك والممالك » لا يقل عن فضله فى المعجم بل يزيد .

وقد نشر المعجم مرتين ، أولاهما على يد فرديناند فستنفلد ، اعتمد فيها على أربع مخطوطات ، وانتسخها بيده وطبعها طبعة حجر فى مجلدين ، صدر أولهما سنة ١٨٧٦ والثانى سنة ١٨٧٧ فى جوتنجن فى المانيا[٢] . والثانية قام بها الأستاذ مصطفى السقا اعتمد فيها على مخطوطات أخرى وقابلها بطبعة فستنفلد فجاءت غاية فى الدقة والكمال وصدرت فى أربعة أجزاء فى القاهرة سنة ١٩٤٥ .

---

(١) Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age* (première édition, Leyde 1840) tome I, 303—305.

(٢) Ferdinand Wűstenfeld, *Geographische Wőrterbuch des Abū Obeid Allah ibn Abd el-Aziz al-Bekri, nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand* (Göttingen — Paris, 1876—1877).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسالك والممالك

ونتنقل الآن لدراسة كتاب البكرى الثانى فى الجغرافية ، وهو المسالك والممالك .

لم يدرس هذا الكتاب إلى الآن ككل واحد ، لأن القطع التى وجدت منه متفرقة فى مكاتب ومجموعات شتى ، مما حال دون تكوين فكرة كاملة عنه ، ولهذا فيحسن أن نحصى الموجود منه إلى الآن ، سواء فى صورة مخطوطات أو قطع منشورة أو فى صورة نقول فى كتب أخرى .

١ — أكبر القطع التى لدينا من هذا الكتاب محفوظة فى مكتبة نور عثمانية (رقم ٣٠٣٤) ، وتقع فى ٢٤٦ ورقة ، ومنها نسخة مصورة فى دار الكتب بالقاهرة ، وقد تفضل المسئولون فى الدار فوافونا بصورة منها وعليها معتمدنا فى هذا الكلام .

وهذه القطعة أطول ما لدينا من قطع هذا الكتاب ، ومن أسف أن البكرى أنفق معظمها فى مقدمات طويلة تتناول موضوعات لا تدخل فى صلب الجغرافية ، فهى تتناول « القول فى مدة عمارة الأرض » و « كيفية خلق الجنين » و « القول فى ذرية نوح عليه السلام » و « ذكر زرادشت الذى يدعى موبذ المجوس » و « عيسى وزكريا عليهما السلام » و « من كان فى الفترة من أصحاب الأخدود » وما إلى ذلك ؛ وهذه كلها فصول معلومات عامة وحكايات ونقول تشبه ما نجده عند المسعودى فى « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » ، ولكنها أقل تفصيلا وأقل ترابطا ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى الناسخ ، فإننا نلاحظ انتقالات سريعة من مبحث لمبحث دون تمهيد . وليست لدينا فاتحة الكتاب حتى نعرف منهج البكرى فى تأليفه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير أن بعض المباحث التى ترد فى هذه المقدمة الطويلة ذات قيمة جغرافية ، فهناك فصل عنوانه « جملة القول فى جزيرة العرب وشىء من أخبارها » يورد البكرى فيه ملخصاً لوصف شبه الجزيرة الذى أورده فى « معجم ما استعجم » ، ثم ينتقل إلى « ذكر أخبار العرب العاربة والأمم الداثرة ومذاهبهم وديانتهم وسيرهم » ثم « ذكر معبودات العرب وعلة عبادتهم الأصنام » ثم « ذكر بيوت النيران » .

وفى هذا الفصل نجد إسم تيتوس (ليفيوس) مذكوراً لأول مرة فى العربية إلى جانب نفر من الجغرافيين والرياضيين اليونانيين ، وهو يأخذ فيه عن العذرى مباشرة ويقول « أخبرنى العذرى » . وهو يجمع فى هذا الباب أخباراً وغرائب نقلها من الكثير مما نعرف من كتب الجغرافيين والأخباريين .

وبعد ذلك ، وفيما نعتقد ، يبدأ القسم الجغرافى من هذه المقدمة ، وهو قسم يدل على تصور جغرافى سليم واطلاع واسع على المهم مما كُتب قبله فى المباحث التى تعرض لها . وإذا كان « معجم ما استعجم » يضع البكرى فى الصف الأول من الباحثين فى الجغرافية فى العصر الوسيط ، أولئك الذين يجمعون المعلومات الجغرافية ثم يرتبونها على النحو الذى يختارونه ، فإن هذا القسم من المقدمة يقرر بوضوح كيف كانت صورة الأرض واضحة فى ذهن أبى عبيد ، وكيف كانت هيأتها وتقاسيمها — بحسب ما انتهى إليه علم العصور التى سبقته — قد تجمعت فى ذهنه وعرف كيف يعرضها عرضاً سهلا مبسطاً يذكرنا بأحسن ما كتب المنقطعون لهذا الشأن من أمثال أحمد النهاوندى والخوارزمى وأبى معشر والبتانى وأبى محمد بن زكريا الرازى وعلى بن يونس وغيرهم . بل عرف كيف يختار من أقوال أولئك الفلكيين والرياضيين وأصحاب الزيوج أقرب ما لديهم إلى فهم القارىء العادى ، ويعرضه عرضاً حسناً يستكمل به صورة الكون والأرض وأقاليمها ، وعلاقة هذه الأخيرة بالبروج دون تكلف أو تعقيد .

وللبكرى فى ثنايا ذلك لمحات يكشف بها عن حقائق سبق بها زمانه بكثير ، خذ مثلا قوله : « وأقيانُس البحر المحيط ، لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين طلعت فى الجزائر (الخالدات) وبالضد » وهذه — ولا زيادة — هى الفكرة التى جعلت من كولومبوس ما هو فى تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم . وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون أبو عبيد من أبناء ولبة على أميال قليلة من الرابطة La Rábida وفيها الدير الذى لجأ كولومبوس إلى أحباره لكى ييسروا له مقابلة فرناندو وإيزابلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيلية ، البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمنا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء سان لوكار San Lúcar أقرب بلد إلى ولبة ، والمسافة بينهما بضعة كيلومترات .

والبكرى يعتمد فى كلامه فى هذا الفصل على كتابى بطليموس : الجغرافية والمجسطى ، ويحقق كلام ايراتوستنيز (يكتبه ارذوستانس) عن محيط الأرض وقطرها ، و يُجمِل بعد ذلك أقوال الجغرافيين والرياضيين عن أطوال محيط الأرض قائلا : « فهى كَوْرُ كَوْرَةِ الأرض المحيطة بالبر والبحر ، فقطرها على هذا $\frac{1}{5}$ ٦٤٢٤ ميلا بتقريب» وهو تقدير صحيح لِقَطَر كرة الأرض، ولو جمعنا هذه العبارة إلى عبارته السابقة عن إقيانس تبينا أن فكرة خروج السفن من غربى أوروبا لتصل إلى شرق الصين كانت عند البكرى بديهية من البديهيات . ومع ذلك فهو يقول فى تواضع عظيم : « وإنما ننقل فى كل موضع من هذا الكتاب ما يُسْتَنْسَخُ لنا ، وعندنا كتب الناس فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده ، لا ما نقع على صحته » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونؤكد ما قلناه آنفاً من معرفة البكرى بأن الخارج من غرب أوروبا يصل شواطىء الصين بهذا الخبر الذى يرويه عن بحر الظلمات أو البحر الأخضر أو المحيط : « وقد خاطر بنفسه فتى من أهل الأندلس يسمى خشخاش . وكان من فتيان قرطبة فى جماعة من أحداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ودخلوا هذا البحر وغابوا مدة ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة » ولا ندرى إن كان هذا هو خبر الفتية المغررين (أو المغربين) أو خبر آخر ، وعلى أى حال فهو دليل على أن الخروج فى المحيط الأطلسى والإيغال إلى الغرب والوصول إلى سواحل بعيدة كان أمراً يستهوى نفوس الأندلسيين وربما تكرر مراراً .

وهو يتحدث فى ذلك الفصل عن علة المد والجزر فيقول إنها « القمر على ما بيَّن أبو معشر » ويستطرد إلى أحاديث عجائب كثيرة معظمها نجده عند غيره . ولكننا نجد فيه فصلا قائماً عن أنهار الأرض ، هو أحسن ما لدينا إلى الآن فى ذلك الباب ، وهو يتحدث فيه عن دجلة والفرات حديثاً طويلا ، ثم عن النيل ويقول « فأما النيل فإن منبعثه من تحت جبل القمر وراء خط الاستواء بسبع درجات ونصف من اثنتى عشرة عين فيجتمع من بحيرتين كالبطائح » ، وكلامه عن هذه الأنهار هو الأصل الذى نقل عنه الإدريسى ، فإن كلامهما يتطابق فى بعض الفقرات حرفياً ، وفى ذلك الباب نجد فصلا طويلا عن أنهار الأندلس ، وهو أوسع فى بعض المواضع مما لدينا فى القطعة الباقية بين أيدينا من وصفه للأندلس[1] .

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ كلامه عن الممالك والمسالك ، فهو يبدأ فصلا عنوانه : « ابتداء الممالك » ثم يتكلم من مملكة الهند . وقد أخذ البكرى مصطلح الممالك والمسالك بحرفيته ، فهو يبدأ بالكلام عن المملكة ثم يذكر مسالكها . والمملكة هنا هى القطر ، وأبو عبيد يتحدث عن كل مملكة يذكرها

---

(١) سبق أن أشرنا إلى هذه القطعة وتحقيق ليفى بروفنسال إياها .

بتفصيل ، فيصفها ويذكر حدودها ويأتى بشىء من تاريخها ، ويذكر عادات أهلها وخصائصهم ، وبعد ذلك يتحدث عن الطرق ويذكر المسافات ، فيبدأ بالهند كما قلنا ، ثم الصين ثم فارس ، وكلامه عن هذه الثلاثة شديد الشبه بكلام المسعودى ، وهو ينص عليه فى أكثر من موضع . ثم يتحدث عن الروم ، وهنا نراه يأخذ عن هروشيش دون أن يشير إليه ، ثم ينتقل إلى بلاد الصقالبة والروس ؛ ومعتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى ، وهنا موضع القطعة الطويلة التى نشرها فون روزن وكونك وأشرنا إليها آنفاً .

ويختم كلامه عن أوروبا بالكلام على مملكة الجلالقة ، ويبدو أن معتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب وأصول عربية أخرى ، لأنه يذكر فى نهاية كلامه عن مملكة الجلالقة وقائع عبد الرحمن الناصر معهم ويختمها بقوله : « وهى للمسلمين عليهم إلى وقت التاريخ » ، ولا يمكن أن يكون البكرى صاحب هذه العبارة .

٢ — وتلى ذلك قطعة محفوظة فى مكتبة القرويين بفاس تحت رقم ٤٨٨ وفيها جغرافية إيران (ايرانشهر) ومصر والمغرب وقطعة من وصف الأندلس .

٣ — ثم قطعة أصغر محفوظة فى مكتبة لا له لى (رقم ٢١٤٤) ، عدد أوراقها ٧٧ ورقة وتشمل جزءا من جغرافية الشام والجزيرة العربية .

٤ — قطعة تبدأ بنهاية وصف مصر ثم تورد وصف المغرب ثم صفحات من صفة الأندلس ، محفوظة فى المكتبة الأهلية فى باريس تحت رقم ٥٨٠ (anciens fonds) ، وهى أسوأ ما لدينا من مخطوطات البكرى .

٥ — قطعة تشبه الأولى عثر عليها المسيو Berbrugger وضمها لمكتبة الجزائر .

٦ — نسخة ثالثة من نفس القطعة محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى تحت رقم ٣٧٤ وهذه القطع الثلاث هى التى اعتمد عليها البارون ماك جوكين دى

سلان فى نشر صفة المغرب للبكرى المعروفة فى النسخة المطبوعة باسم كتاب صفة المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب وبالفرنسية باسم :

Description de l'Afrique Septentrionale par Abou Obeid el Bekri (Paris 1875)

ثم أعيد طبعها سنة ١٩١١ وكان قد ترجمها إلى الفرنسية قبل ذلك ونشر الترجمة بنفس العنوان سنة ١٨٥٨ فى باريس .

٧ — قطعة تتناول جغرافية بلاد الروس والصقالبة نشرت مع ترجمة روسية بتحقيق كونيك والبارون فون روزن فى بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقد تحدثنا عنها وأتينا بعنوانها فى كلامنا عن ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى .

٨ — نُقول من الأجزاء الأولى من الكتاب تتناول هيئة الأرض والكون وردت فى الجزء الأول من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى . وقطع أخرى منه تتصل بصفة بعض نواحى الأندلس أوردها ياقوت فى معجمه والمقرى فى نفح الطيب .

ومن هذه القطع والنقول نستطيع أن نقول إن المسالك والممالك للبكرى يتناول فى نسخته الكاملة جغرافية الدنيا كلها على طريقة المسالك والممالك . ولكن منهجه فيها يختلف بعض الشىء عن مناهج الآخرين كما قلناه ؛ والأجزاء الخاصة ببلاد العرب ومصر والمغرب تنفرد بميزة كبرى ، وهى أنه يقف عند كل موضع وقعت فيه حادثة تاريخية ويتحدث عنها بتفصيل . ومن أسف أن معظم الجزء الخاص ببلده هو — أى الأندلس — لم يعثر عليه إلى الآن . ومن الطبيعى أن يكون هذا الجزء أحفل أجزاء كتابه بالقيمة والفائدة ، وهو دون شك معتمد كل من كتب فى جغرافية المغرب بعده وخاصة الإدريسى وابن سعيد . فإذا ذكرنا أن الجزء المطبوع الخاص بالمغرب وحده يعدل نصف حجم « صورة الأرض » لابن حوقل ، وهو أوسع كتب المسالك والممالك التى بين يدينا وأكثرها تفصيلا ، تبينا أن كتاب البكرى هو أوسع ما ألف العرب فى هذا الباب وأشمله على الإطلاق .

وللبكرى ميزة أخرى تؤيد ما قلناه ، وهى دقته فى رسم الأعلام وحرصه على التثبت منها والرجوع فيها إلى مظانها وسؤال الناس عنها . ومثالا لهذا نناقش الفقرة الخاصة بأسماء شبه جزيرة إيبيريا ، وهى فى فاتحة الجزء الخاص بالأندلس :

« ذِكر جزيرة الأندلس وجمل من أخبارها : يُذكَر أن اسمها فى القديم إباريه (Iberia) من وادى إبره (Ebro) ثم سميت بعد ذلك باطقه (Baetica) من وادى بيطى (Baetis) ، وهو نهر قرطبة ، ثم سميت إشبانية (Hispania) من إسم رجل ملكها فى القديم ، كان اسمه إشبان ، وقيل سميت بالإشبان ، سكنوها فى أول الزمان على حرمة النهر (يقصد الوادى الكبير) وما والاه . وقيل إن اسمها فى الحقيقة إشبارية (Hesperia) ، مسماة من أَشْبَرُشْ (Haspéros) ، وهو الكوكب المعروف بالأحمر ، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش (Vandali) الذين سكنوها على ما يأتى ذكره » .

وقد وضعت بين قوسين إلى جانب كل علم غير عربى أصله اللاتينى حتى تتبين دقة البكرى فى رسم هذه الأعلام ، بيد أن هذه الدقة تتجلى بصورة أوضح إذا نحن بحثنا عن أصول هذه الأسماء التى كانت تطلق على شبه جزيرة إيبيريا فى كتابات الجغرافيين الإغريقيين والرومان .

فأما قوله إن « اسمها فى القديم إبارية من وادى إبره » فقد كان القدماء من الإغريق والرومان يقولون هذا ويجعلون إيبيريا مشتق من إبرو ، وعنهم أخذه البكرى (ربما بطريق الرازى) . أما الحقيقة فهى أن إيبيريا نسبة إلى إيبيروس Ιβηρος وهو الاسم الذى أطلقه الإغريق القدامى على سكان شبه الجزيرة . وقد ظهر لفظ إيبيريا Ιβηρια للمرة الأولى خلال القرن السادس قبل الميلاد . وكان هذا الإسم يطلق على جزء من شاطىء شبه الجزيرة محصور بين مصب الوادى الكبير ومصب النهر الأحمر Guadalahmar وهو الجزء الذى نزل فيه الإيبيريون

عند هجرتهم الأولى من شمال إفريقية إلى شبه الجزيرة ، ثم شمل الإسم شبه الجزيرة كله بعد ذلك تبعاً لانتشار الإيبيريين فى البلاد .

وقوله أنها كانت تسمى فى القديم « باسم باطقة نسبة إلى وادى بيطى » مأخوذ عن كتاب اليونان والرومان أيضاً ، فإن اليونان نزلوا الجزيرة أول الأمر فى الجنوب وسكنوا على ضفة نهر بيطى Baetis الذى عرف فيما بعد بالوادى الكبير ، وأطلقوا على هذا الجزء من شبه الجزيرة اسم Baetica ، ثم غلب هذا الاسم على شبه الجزيرة عند بعض كتابهم ، أما الرومان فقد قصروه على جنوب شبه الجزيرة فحسب .

أما قوله « ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه اشبان ، وقيل سميت بالاشبان الذين سكنوها من أول الزمان » فقد أخذه البكرى عن كتاب الاسبان فى العصر القوطى ، وخاصة عن ايزيدور الباجى ، فقد ورد ذلك فى كتابه المسمى Etimologiae أى أصول الكلمات . والشك كثير فى حقيقة إيزيدور نفسه ، فهناك من يقولون إنه اسم منتحل ابتكره نفر من الوضاع فى العصر القوطى ونسبوا إليه ما وصل إلينا من الكتب باسمه . وقد اطلع العرب الأندلسيون على كتاباته ، وهم مشكورون على هذا الاطلاع ، ولا ذنب لهم إذا قبلوا ما فيها على أنه معلومات صحيحة قالها عالم من أكبر علماء اسبانيا المسيحية كما قيل لهم .

أما الحقيقة فهى أن لفظ اسبانيا هو أقدم أسماء الجزيرة التى عثرنا عليها ، فهو مذكور فى كتابات الفينيقيين قبل سنة ١١٠٠ قبل الميلاد ، أى قبل إنشائهم لمدينة قادش Cádiz . وهو مذكور فى هذه الكتابات فى صورة ʾi-sch-phannim ومعناه « ساحل الأرانب البرية » وكان شبه الجزيرة مشهوراً بهذه الأرانب حتى أصبحت صورة الأرنب البرى رمزاً عليه فى بعض العصور ، كما نجد فى بعض قطع العملة التى ضربها الامبراطور هادريان . واللفظ سامى قديم ، فهو فى العبرية القديمة « شْفَهَان » وفى اليمنية القديمة طَفَنْ ، وجمعه فى العبرية

القديمة شفانيم Shphannim . وعن الفينيقيين أخذ اللفظ القرطاجنيون ، ثم الرومان بعد استيلائهم على ما كان بيد هؤلاء الأخيرين من شبه الجزيرة وحرفوه إلى اسبانيا I-spania أو هسبانيا Hispania وقالوا إن الإسم منسوب إلى سْبَانْ أو سْفَهان Sphan . وأطلقوا الاسم على شبه الجزيرة . ومنهم من جعل « اسبانيا » مشتقاً من اسم الاله « بان » أو نسبة إلى رجل يسمى هيسبالوس Hispalus وهذه النسبات الثلاث الأخيرة واردة فى كتاب « الاتيمولوجيا » لإيزيدور الباجى . وعنه أخذها العرب . وقد وقف البكرى عليها عند ما نقل ، أما غيره فقد أطلق لخياله العنان ، فجعل سْفَهان أصبهان وقالوا إن أصله من أصبهان ، وأضافوا قصصاً طويلا لا يخلو من طرافة .

والإسبان ، أهل اسبانيا ، هى الصيغة العربية لثلاث من الصور كانت تستعمل فى مقابله فى اللاتينية : Hispani (مفرده us-) و Hispanici (مفرده cus-) و Hispalenses (مفرده is-) ، وورد أيضاً فى صيغ أخرى مثل : Hispalis للمذكر Hispalia للمؤنث ، ومن هذه الصورة الأخيرة أخذ العرب اسم اشبيلية .

وكذلك قوله : « وقال قوم إن اسمها إنما هو فى الحقيقة اشبارية ، مسماة من إشبِرُش وهو الكوكب المعروف بالأحمر » يرجع إلى إيزيدور الباجى ، فقد استنتجه البكرى من قول إيزيدور ab Hespero, Hispaniae rege وهو خطأ ، لأن اشبارية من Hesperia أى أرض الغروب ، وهو لفظ شاعرى استعمله الإغريق للدلالة على إيطاليا أولا ثم على اسبانيا أيضاً . أما اشتقاقه من Hesperus الذى يعرف فى العربية بالنجم الأحمر فقد دل التحقيق الاشتقاق على أنه غير صحيح (١) .

---

(١) مرجعنا فى ذلك التحقيق اللغوى إلى آدولف شولتن فى كتابه الذى أشرنا إليه قبل ذلك مراراً .

والعبارة الأخيرة من كلامه « وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها » تدل على أن البكرى ومن أخذ عنه كانوا عارفين بأصل الإسم الذى استعمله العرب للدلالة على البلاد كلها .

وواضح من هذا كله أن البكرى بحث ونقب عن أصل الاسم وأتى بروايات شتى كلها له أصول فى كتابات قديمة لها مكانها من الاحترام ، وهو لم يقل فى أثناء ذلك أن أندلس من الدلس أو التدليس كما فعل غيره ، لأنه يعرف بطبيعة العالم المفكر أن هذه الأسماء لا تفسر هذه التفسيرات اللغوية اليسيرة التى لا يأخذ بها إلا السطحى من الكتاب .

وكذلك يقال فيما بقى لنا من أوراق صفة الأندلس للبكرى التى ثبت أنه نقلها عن الرازى ، فسواء نظرنا فى قسمة قسطنطين أو فى كلامه عن أنهار اسبانيا وجبالها ، فكلامه دقيق واضح مضبوط . أما القطع الخاصة بالكور والمدن وأقاليمها فواضح أنه أخذها عن العذرى واختصرها اختصاراً جيداً لا يقلل من قيمتها .

وتتجلى لنا دقة البكرى الجغرافى ووضوح الصور الجغرافية فى ذهنه وادراكه لما يتطلب الناس فى كتاب فى صفة البلدان إذا نحن نظرنا فى جزء مما بين أيدينا من مسالكه وممالكه ، وإلى أن تُنشَر الأجزاء المخطوطة منه نكتفى هنا بالنظر فى القسم الخاص بالمغرب ، فهو مطبوع متداول بين أيدى الناس .

من الواضح أن البكرى اعتمد فى هذا الجزء اعتماداً كبيراً على ما كتبه محمد ابن يوسف الوراق ، وهو يقرر ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكننا نلمح فى كل فقرة أثر البكرى وطريقته ودقته . فيقول مثلا : « برقة : واسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس ، تفسيره خمس مدن (Penta-Polis) » ثم يقول بعد قليل فى وصف الجبل المعروف اليوم بالجبل الأخضر : « وعلى ستة أميال منها — أى من برقة — الجبل ، وهى (أى منطقة برقة) دائمة الرخاء ، كثيرة الخير ، تصلح بها السائمة ، وتنمى على مراعيها ، وأكثر ذبايح أهل

مصر منها ، ويحمل إلى مصر منها الصوف والعسل والقطران ، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها « مقة » فوق جبل وعر ، لا يرقى إليها فارس على حال ، وهى كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه ، وبمدينة برقة قبر رويفع (بن ثابت الأنصارى) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحول برقة قبائل من لواته ومن الأفارق»[١] فإذا قارنا ذلك بما عند ابن حوقل — وقد زار برقة وأقام فيها — تبينا امتياز البكرى ، فهو يبحث عن أصل اسم البلد ويفسره ، ويفرق بصورة واضحة بين برقة البلد والجبل الأخضر الذى يبعد عنها ستة أميال ، فى حين أن ابن حوقل لا يفرق ، ويتحدث كما لو كان الجبل ملاصقاً لبرقة تماما . ومع أن ياقوت قد اعتمد على البكرى فى هذا الموضع إلا أنه أيضاً لم يفرق بين البلد والجبل ولا يعطى هذه الصورة الواضحة[٢] .

ويتجلى ذلك أيضاً إذا قارنا ما كتبه البكرى بما كتبه ابن حوقل عن طرابلس ، فهو يقول « ويذكر أن تفسير اطرابلس باللاعجمية الإغريقية ثلاث مدن (Tri-polis) وسماها اليونانيون طِرِبُلِيطَه (Tripolitania) لأن طِرِ (tre) معناه ثلاث وبليطة politis يعنى مدينة . ويُذكر أن أشفاروش قيصر (Septemius Severus) هو الذى بناها ، وتسمى أيضاً مدينة اطرابلس مدينة أناس . . »[٣] وأظن أن أناس هذه مصحفة وأن صحتها أياس ، لأن إسم طرابلس فى القديم كان أويا Oea وهى ثالثة المدائن التى نشأ عن جمعها معا إسم طرابلس (الاثنتان الأخريان لبده Leptis Magna و صبره Sabratha) . ثم يصف المدينة وصفاً عاماً يعقبه شىء من الاستطراد التاريخى ، ويعود إلى البلد فيذكر موارد مائه فى تفصيل دقيق ويسمى الآبار واحداً واحداً ، ثم

---

(١) صفة افريقية للبكرى ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١٠ ، ص ٤ — ٥

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ٦٦/١ — ياقوت : ١٣٤/٢

(٣) صفة افريقية للبكرى ، ص ٦ — ٧

يتكلم عن فحص البلد المسمى سويجين ويذكر حاصلاته ، ويلم بذكر جبل نفوسه فيصفه ويذكر قراه واحدة واحدة ، ويستطرد حتى زويلة وما فيها من القرى مثل ودان وكاوار والقبائل التى تسكنها ، وينفرد بمعلومات غاية فى الأهمية عن هذه النواحى الصحراوية ، ويتحدث فى أثناء ذلك حديث الباحث المدقق فيقول عن ودان أنها مدينتان ، ويسمى كلا منهما ويذكر سكانها وجنسهم ويقول « وأكثر معيشتهم من التمر ، ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح » وهو التعبير العربى الفنى المقابل لقولهم culture à sec أو al secano . ولم أجد هذا التعبير إلا عند البكرى ، وكذلك المعلومات عن واحات الصحراء هذه لا نجدها إلا عند هذا الجغرافى المدقق .

وبينما نجد ابن حوقل لا يذكر القيروان إلا ضمنا أثناء حديثه عن المهدية[1] نجد البكرى يقف عندها طويلا مخصصاً لها ست صفحات لا يدع فيها شيئاً إلا ذكره ، ويصف مسجدها وصفاً مفصلا مع تواريخ بنائه وما مر عليها من تطورات ، وهذه الفقرة الخاصة بالمسجد هى أحسن وأدق ما لدينا عن ذلك الجامع إلى أيام البكرى .

وهكذا ينتقل بنا البكرى فى بلاد المغرب من مرحلة لمرحلة لا يكاد يغادر مدينة أو قرية أو محرساً أو حصناً أو رباطاً أو جبلا أو بحيرة أو نهراً إلا ذكره بتفصيل يدل على جهد كبير فى البحث والاستقصاء ، مع ما لابد منه من الإشارات إلى الموارد والمحصولات والمعادن والصناعات وأصناف الناس وما تيسر له من المعلومات عن طباعهم . فهو فى الواقع ليس مجرد كتاب مسالك وممالك ، وإنما هو جغرافية وصفية بشرية اقتصادية من الطراز الأول . ولم يعتمد البكرى فيه على كتاب محمد بن يوسف الوراق وحده كما يظن ، بل إنه — جرياً على طريقته — جمع كل ما وصل إليه من المراجع وانتفع به انتفاعاً

---

(١) ابن حوقل ، ١/٧١

طيباً ، ودقق فى كل ما قرأ فلم يأخذ منه إلا ما تراءى له أنه الصحيح ، وضبط الأعلام ضبطاً محكما ، ورجع إلى أصولها ما أمكن . وقد اتبع البكرى هذه الخطة أيضاً فيما كتبه عن مصر والشام وغيرها مما عثرنا عليه من كتابه . والنسب بين الأجزاء التى خصصها لكل قطر معقولة ، وهو فى هذا يمتاز على غيره من أصحاب كتب المسالك التى يغلب عليها التفصيل الشامل فى ناحية والإيجاز المخل فى ناحية ، لأن البكرى لم يكتب بحسب ما اتفق له من الأصول ، فما حضرته عنه وفرة أطال فيه وما لم يحضره عبر به مسرعا ، وإنما جمع جمعاً شاملا وقرأ قراءة واسعة ودوّن جزازاته ورتبها قبل أن يكتب ، وبهذا وحده استطاع أن يقدم لنا أوسع جغرافية للدنيا قبل الإدريسى .

وللبكرى فى سياق كلامه عناية بالتاريخ ، فهو يرى أن الكلام على ناحية أو موضع لا يتم إلا بذكر طرف من تاريخه ، وهو يتعمد أن تكون هذه الأطراف التاريخية إما متصلة بفتح العرب للبلد أو ذات علاقة بمعالم عمارته كسوره ومساجده وأبوابه وأسواقه وما إلى ذلك ، فأما ما يتصل بالفتح فمصدره فيه فتوح ابن عبد الحكم أو بعض أصوله (الليث بن سعد ومسلمة بن عبد الملك واين لهيعة خاصة) والبلاذرى ، وقلما يأخذ عن غيرهم ، وأما ما يتصل بسواه فمراجعه شتى يصعب تحديدها ، والغالب أنه استمدها من الوراق ، وهى لهذا على جانب كبير من الأهمية ، إذ أن كتب الوراق لم يعثر عليها إلى الآن .

ومن أغرب ما نجد فى هذه القطعة من مسالك البكرى الباب الذى خصصه لذكر مراسى ساحل المغرب من أسْلِن (إلى غربى تلمسان بقليل) حتى ساحل الشام ، واستطراده فى وصف ذلك الساحل حتى مدخل بحر ايجه ، فهذا هو أقدم وصف للشواطئ والموانئ الإسلامية على البحر الأبيض ، خاصة وهو يعنى بذكر ما يقابل المراسى الإفريقية من مراسى الأندلس ، حتى إذا وصل إلى مرسى بجاية قال : « قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس » وهو يذكر كل مرسى ويصفه ويتكلم عن صلاحيته للسفن شتاء وصيفاً ، ويشير إلى درجة

عمران الميناء وموارد مائه وعدد المجارى التى بينه وبين المرسى الذى يليه ، وبينه وما يقابله من مراسى الأندلس ، فكأنه بذلك يصف المسالك البحرية بالإضافة إلى البرية ، وهو منحى فريد فى بابه لم يسبقه إليه جغرافى آخر . وهذا الفصل من كتابه (ص ٨١ — ٨٨) جدير بدراسة وحده ، نظراً لما يضمه من التفاصيل الكثيرة التى تحتاج إلى أن تحقق وتناقش . ومما هو جدير بالملاحظة أنه بعد أن يصل فى الطريق البحرى إلى ساحل الشام ثم يصعد معه إلى أنطاكية يقول : « ثم إلى انطالية (Anatolia) ومن أنطالية تدخل إلى « الجزائر المؤلفة » وهى تسمية لطيفة لأرخبيل بحر إيجه . وبعد أن ينتهى من الحوض الشرقى للبحر الأبيض يعود إلى ساحل تلمسان الذى بدأ منه ، فيذكر مرسى بجزيرة آواى ويصفه ، ثم يعبر عن طريق البر إلى ساحل الأطلسى عند نول ، ثم يأخذ فى ذكر مراسى المغرب الأطلسية واحداً واحداً بدلا من أن يسير مع الساحل من تلمسان إلى سبتة فطنجة ، ثم ينحدر مساحلا إلى الجنوب . ولا يعلل هذا إلا بأنه اتبع طريق التجارة ، وقد كان التجار البحريون الذين يصلون إلى مراسى شاطىء تلمسان يتلاقون فى مرسى جزيرة آواى ، ومن هناك تخرج الرفاق (القوافل) « مواجهةً للمشرق شهرين مَشْىَ الإبل إلى مدينة نول ، ومدينة نول آخر بلد الإسلام وأول العمران من الصحراء ، وتسير السفن من ساحل نول إلى وادى السوس ثلاثة أيام[1] . . . » ثم يعود مرة أخرى إلى الشرق حتى وجدة ، ثم يذكر الطريق من وجدة إلى سجلماسة ، ويعود بعد ذلك ليصف الطريق من وجدة إلى فاس ، وهنا يذكر الطريق البحرى إلى مليلة ونكور وسبتة حتى طنجة ويعود إلى ذكر مراسى الأندلس التى تقابل كل واحد من مراسى افريقية التى يذكرها فى تدقيق بالغ . وهو يعتمد هنا على محمد بن يوسف الوراق ، فإن له تواليف عن

---

(١) صفة افريقية للبكرى ، ص ٨٦

هذه النواحى كما ذكرنا ، ولكنه لا يقف عنده ، بل يستمر فى رواية الحوادث إلى ما بعد وفاة الوراق بزمن طويل ، فهو يذكر مثلا حوادث وقعت سنة ٤٤٠/١٠٤٨—١٠٤٩ بل يصل فى رواية بعض الحوادث إلى سنة ٤٦٠/١٠٦٧

وهو يقف بمدينة فاس وقوفاً طويلا ، ويتسع استطراده التاريخى فيتناول قيام دولة الأدارسة وجانباً كبيراً من تاريخهم بتفصيل ، ثم يتبع ذلك بفصل عن « ممالك برغواطة وملوكهم » وهو تاريخ صرف رواه عن « أبى صالح زمور ابن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطى ، وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكم المستنصر رسولا من قبل صاحب برغواطة أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار . . . بن طريف ، وكان وصوله إلى قرطبة فى شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذى قدم معه ، وهو أبو موسى عيسى بن داوود بن عشرين السطاسى ، من أهل شَلّه ، مسلم من بيت خيرون بن خير ، فأخبر زمور أن . . . » وهذه المقدمة وما يليها من الخبر أشبه بأن تكون نص وثيقة بتاريخ برغواطة كتبت للحكم المستنصر لتحفظ فى سجلاته . والغالب أن يكون البكرى قد أخذ نصها عن محمد بن يوسف الوراق ، لأن ابن عذارى يأتى بها فى صورة مشوهة مبتورة ، ومع أن ابن عذارى مؤرخ وهذا الخبر أدخل فى موضوع تاريخه إلا أن البكرى أدرك أهميته بحسه العلمى المرهف ، فأتى به كاملا ، فأدى لتاريخ المغرب بذلك خدمة لها قدرها[1] . وقد سبق أن أشرنا إلى طريقة ابن عذارى فى النقل عن الوراق .

وابتداء من الفصل الذى عنوانه « الطريق من فاس إلى مدينة سجلماسة[2] » تزداد أهمية هذا الجزء من مسالك البكرى من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ، فهو يصف هنا الحدود الجنوبية للاسلام المغربى من سجلماسة إلى الجنوب وكيف

---

(١) انظر البيان المغرب لابن عذارى (طبعة برونسال وكولان) ، ١/٢٢٢—٢٢٧

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٦

امتدت حتى وصلت إلى بلاد غانة . وفى فصل من الفصول التالية توجد القطعة الفريدة التى كانت إلى حين قريب أوثق مراجعنا عن أصل المرابطين وكيف نشأوا ، وهو يعتمد فى بعض تفاصيل هذه الفصول على محمد بن يوسف الوراق ولكنه يرجع أيضاً إلى أصول مغربية أوثق معرفة بجغرافيـة هذه النواحى وتاريخها ، فهو يقول مثلا فى ص ١٦٠ « الطريق من مدينة أغمات إلى السوس على ما ذكره مؤمن بن يومر الهوارى » .

ويقف البكرى بهذه القطعة من تاريخ المرابطين عند سنة ٤٦٠/١٠٦٧ أى عند ولاية أبى بكر بن عمر اللمتونى ، وهذا أمر يستدعى النظر ، لأن البكرى توفى سنة ٤٨٧ ، أى أنه عاش حتى اكتمل تكوين دولة المرابطين أيام يوسف ابن تاشفين ، بل كان أحد الذين كانوا فى وداع المعتمد بن عباد حين عبر إلى المغرب لإقناع يوسف بن تاشفين بضرورة العبور إلى الأندلس بجيوشه مرة ثانية[1] أوائل سنة ٤٧٨/١٠٨٨ أى قبل وفاة البكرى بتسع سنوات ، فكيف وقف فى رواية تاريخ المرابطين عند سنة ٤٦٠/١٠٦٧ أى سبعة وعشرين سنة قبل وفاته ؟ لا يعلل ذلك إلا بإذن البكرى كتب هذا الجزء من جغرافيته فى تلك السنة ، وأثبت فيه آخر ما وصله من أنباء المرابطين ، ثم انتقل إلى أجزاء أخرى وأعمال أخرى ، ومضت السنون دون أن تتاح له الفرصة ليعود إلى إكمال ما كتب ، ولعله أكمله فى نسخ أخرى لم تصلنا ، فقد رأينا مثل ذلك فيما لدينا من نسخ معجم ما استعجم . وقد كان البكرى يؤلف بعض كتبه على مراحل ، أى يكتب ما حضره فإذا أعياه شىء ترك له بياضاً حتى يعثر عليه أو يذكره فيقيده ، قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته لشرح اللآلى إن

---

(١) ذكر ذلك ابن الأبار فى ترجمته لأبى عبيد البكرى (انظر النص فى أبحاث دوزى الطبعة الأولى ، ٢٨٦) وقد ذكرت أن هذا العبور كان بعد موقعة الزلاقة معتمداً على ما ورد فى مذكرات الأمير عبد الله الزيرى أمير غرناطة (نشرها ليفى بروفنسال فى القاهرة سنة ١٩٥٥) ص ١٠٨ ، وهذا يسمح لنا بتأريخ هذا الحادث بأوائل ٤٧٨/١٠٨٨

البكرى « بقى يقيد كل ما يمر به من الفوائد برهة ، وما لم يقف له من الأبيات على أثر أخلى له بياضاً ، وقد بقى من هذا النوع كثير لم يستطع سد خلله ، أو لم يتسن له ذلك[1] » . فلعل مثل هذا حدث فى هذا الجزء من جغرافيته . وقف به عند سنة ٤٦٠ التى كتبه بها ، ولم يتسن له العود إليه ، فظل كما هو .

ومهما يكن من الأمر فإن مسالك البكرى تعتبر قمة من قمم التأليف الجغرافى فى هذا النوع عند المسلمين ، فقد وصل بهذا الفن إلى درجة من الشمول والاتساع والدقة لم يصل إليها أحد قبله فى الشرق أو الغرب . واتصل على يده التأليف الجغرافى فى الأندلس خطاً متكاملا يخطو كل جيل من الجغرافيين به خطوة . وسيستمر ذلك بعد البكرى على أيدى من جاء بعده .

---

(١) مقدمة سمط اللآلى ، صفحة س .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى

يصعب الكلام عن الحجارى مؤرخاً وجغرافياً ، لأن بنى سعيد الذين اتخذوا كتابه « المسهب فى فضائل (أو غرائب) المغرب » أساساً لكتابهم الكبير « المغرب فى حلى المغرب » أحسنوا إليه من ناحية وأساءوا إليه من أخرى : أحسنوا إذ عرفوا فضله وحفظوا اسمه ، وأساءوا إذ خلطوا كلامه بكلامهم وغيروا وبدلوا فيه ، فلم نعد نعرف على وجه التحديد ماذا قال . وربما كان كتاب « المغرب » حالة فريدة فى تاريخ الفكر العربى ، فهو تأليف بالمشاركة ، أو كتاب جماعى ، قام على أصل كتبه الحجارى ثم تبنته أسرة من الأدباء وهواة التأليف ، فأضاف كل منهم إليه ما تيسر له ، فأصبح الكتاب وكأنه قصة شعبية ، لا تعرف كيف كانت أول ما قيلت ولا ما أضيف إليها بتعاقب الرواية والانشاد . نقول هذا مع أن بنى سعيد نسبوا إليه فى كتابهم ما يزيد على ٢٥٠ نقلا ، ولكننا لا نعرف إن كان النقل بحرفه أو مع تعديل وحذف وإضافة . وقد أورد له المقرى فى الفصل الأول الخاص بجغرافية الأندلس من النفح ما يزيد على ٢٠ قطعة كبيرة هى من أحسن ما نقرؤه فى هذا الفصل ، ويندر أن نجد مؤلفاً أندلسياً كتب بعد الحجارى دون أن يشير إليه مما يدل على أن كتابه كان مرجعاً وحجة ، وأنه أضاف إلى المكتبة الأندلسية شيئاً فريداً تميز به عمن سواه ، مما جعل الرجوع إليه والأخذ عنه ضرورة لا معدى عنها لكل من تعرض للتأليف فى أدب الأندلس وجغرافيته وتاريخه .

ويتجلى مما لدينا من المعلومات أن هذا الامتياز لم يقتصر على كتابه بل كان ثمرة من ثمرات شخصيته الفذة وحياته القلقة ، فقد كان الحجارى كبقية

الأفذاذ من أبناء ما بعد الخلافة قلقاً مروعاً جوالا يجوب آفاق الأندلس المتلاشى والعلم يملأ صدره والحسرة تثقل على نفسه ولا يدرى أين يذهب أو أين يستقر له قرار ، وهو من أبناء القرن السادس ، أى من أبناء عصر زاد الحال فيه سوءً عما كان عليه فى القرن السابق ، وقد صور لنا الحجارى حال هذا العصر وبينه فى « المسهب » فى عبارة أوردها المقرى فى النفح ، قال : « وذكر الحافظ الحجارى فى المسهب أنه سأل أبا محمد عبد الله بن ابراهيم عن أفضل من لقى من أجواد تلك الحلبة ، فقال : يا بن أخى ، لم يُقَدَّرْ أن يُقْضى لى الانتصار لهم فى شباب أمرهم وعنفوان رغبتهم فى المكارم ، ولكن اجتمعت بهم وأمرهم قد هرم ، وساءت بتغير الأحوال ظنونهم ، وملوا الشكر وضجروا من المروءة ، وشغلتهم المحن والفتن ، فلم يبق فيهم فضل للافضال ، وكانوا كما قال أبو الطيب :

أتى الزمانَ بنوه فى شبيبته فَسَرَّهُمْ وأتيناه على الهرم

وإن يكن أتاه على الهرم فانا أتيناه وهو[1] فى سياق الموت . . . » . وفى ظلال الموت والخوف والحاجة عاش أبو عبد الله الحجارى وقال ما قال من الشعر وألف ما ألف من الكتب .

ومع أن ما يربو على ثلث كتاب « المغرب » لبنى سعيد مأخوذ عن الحجارى إلا أن المادة التى نجدها عنه فى مخطوطة المغرب التى حققها الدكتور شوقى ضيف صغيرة لا تقدم كثيراً فى تعريفنا به ، ومعظمها مع ذلك يبين فضل بنى سعيد عليه ، فعلى بن سعيد مثلا يسميه « جاحظ المغرب » ويقول : « هو أول من أسمى هذا التصنيف ، وفتح بابه لمن بعده من بنى سعيد ، وقد أطنب والدى فى الثناء عليه من طريق البلاغة نظما ونثراً ومعرفة التصنيف ،

---

(١) رواه أيضاً دوزى فى Abbadidis, II, 147 برواية ابن الأبار .

وقال فيه : « وَبِمَ أصفه ؟ وقدرة اللسان لا تنصفه . . . » ثم تلى ذلك قصة وروده على جده عبد الملك[١] بن سعيد .

ومن الواضح أن هذه المادة الصغيرة التى احتفظ لنا المقري بنصها إنما كانت بداية زاد عليها على بن سعيد وتوسع فيما كتب من نسخ المغرب بعد ذلك ، ودليل ذلك أن لسان الدين بن الخطيب أفرد للحجارى مادة أطول وأكثر تفصيلا نسب معظمها إلى على بن سعيد ونص على ذلك[٢] ، وقد نقل هذه المادة بالنص مع (تغيير لبعض الألفاظ) بدر الدين البشتكى فى مختصره للاحاطة المسمى « مركز الإحاطة » وهذا النص الأخير هو الذى نشره دوزى فى « جامع أخبار بنى عباد » نقلا عن مخطوطة[٣] باريس .

وخلاصة كلام ابن الخطيب أن والد عبد الله الحجارى وهو ابراهيم بن وزمر الحجارى كان « أديب مدينة الفرج بوادى الحجارة ، المصنِّف للمأمون ابن ذى النون كتاب « مغنطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار » .

وقد هاجر عبد الله الحجارى من بلده مدينة الفرج بعد استيلاء النصارى عليها . وقد كان الذى استولى على وادى الحجارة وتوابعها هو ألفونسو السادس ملك قشتاله وليون سنة ٤٧٨/١٠٨٥ فقد صارت إليه هذه الناحية مع غيرها من توابع إمارة طليطلة عند ما تخلى له عنها القادر بن ذى النون فى تلك السنة ، وهذا يعين لنا تاريخ هجرة عبد الله الحجارى من بلده ، ويبدو أنه كان شابا مكتمل التكوين عندما وقع له ذلك ، لأنه وجد طريقه إلى الحياة فى شلب التى هاجر إليها عن طريق الأدب والكتابة .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ، ٢/٣٥

(٢) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد ، ص ٢٣٠ — ٢٣١

(٣) Dozy, *Abbadidis*, II, 141 sqq.

وقد كانت هذه الهجرة بعيدة الأثر فى نفسه ، فقد مضى بعد ذلك يضرب فى نواحى الأندلس لا يستقر فى بلد حتى يشد رحاله إلى آخر حتى اشتهر بالتجول والرحلة ، قال ابن الخطيب : « وله فى التجول أشعار وأخبار » نعم إن هذه الحالة من القلق والرحلة الدائمة كان يشاركه فيها غيره من أهل الأدب والفكر فى ذلك العصر على ما ذكرناه ، ولكنها ظهرت عند عبد الله الحجارى فى صورة قلق عظيم لا يجعله يطيق المقام طويلا فى ناحية واحدة ، حتى لو وجد فيها سلام العيش ورخاءه كما سنرى ، وقد ألقاه هذا الهيام الدائم فى أهوال وأخطار .

لم يطل به المقام فى شاب ، إذ خلفها إلى غرناطة ، ومنها إلى قلعة بنى سعيد المعروفة بقلعة يحصب ، وتعرف اليوم باسم Alcalá La Real وكانت إذ ذاك من « بنات » غرناطة كما يقول ابن الخطيب ، أى من توابعها ، وكان بنو سعيد قد استبدوا بها بعد انتثار أمر الخلافة كما فعل غيرهم من رؤساء النواحى ، وأول من فعل ذلك منهم خلف بن سعيد الذى يرجع نسبه إلى الصحابى عمار بن ياسر ، ثم جاء بعده ابنه سعيد بن خلف ثم ابن هذا أبو مروان عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد « وصادف الفتنة على الملثمين ، فامتنع فيها إلى أن تولى لعبد المؤمن ، وخطب له فيها ، وسجنه عبد المؤمن فى مراكش ثم سَرَّحه ، وجل[1] قدره عنده » .

وعلى أبى مروان عبد الملك بن خلف بن سعيد هذا وفد الحجارى ، ويذكر ابن الخطيب أنه استأذن عليه فى زى موحش[2] [من زى البوادى]

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، ٢/١٦١

(٢) انتقل هذه الفقرة عن كلام ابن الأبار فى الحلة السيراء ، وقد نقلها ابن الخطيب فى الإحاطة . والعبارة الواردة بين حواصر لا توجد فى مخطوط الإحاطة ، ولكنها واردة فى مختصر الإحاطة المعروف باسم مركز الإحاطة لبدر الدين البشتكى ، وقد أورد نصها دوزى : Abbadidis, II, 141

فاستخف به القاعدون ببابه إلى أن لاطف بعضهم وسأله أن يعرف به القائد ، فلما بُلِّغَ عنه أمر بإدخاله فأنشده قصيدة مطلعها :

عليك أحالنى الذكر الجميل ... فجئت ومن ثنائك لى دليل
أتيتُ ولم أقدِّمْ من رسول ... لأن القلبَ كان هو الرسولُ

فأكرمه وأحسن إليه ، وأقام عنده سنةً حتى ألف بالقلعة كتابه « المُسهِب فى غرائب المغرب » ثم « انصرف إلى قصد ابن هود بروطة بعد أن أعزله على التحول عنه ، فقال « النفسُ تَوَّاقة وما لى بغير التغرب طاقة » ثم قال يبتين شبه نفسه فيهما بالحمام الذى لا يكاد يحط على فنن حتى ينتقل إلى آخر . وهو تشبيه ضعيف ، لأن الحمام من أكثر المخلوقات إلفاً لعشه وحنيناً إلى وطنه .

والمهم أن عبد الله بن ابراهيم الحجارى أقام سنة عند عبد الملك بن سعيد ألف له خلالها كتاب المسهب ، وسنتحدث عنه بعد قليل .

ويذكر على بن سعيد أن الحجارى بعد أن غادر قلعة بنى سعيد صار إلى روطة ، وكانت روطة آخر ما بقى لبنى هود من بلاد الثغر الأعلى بعد سقوط سرقسطة فى يد الفونسو الأول المعروف بالمحارب ملك أرجون فى سنة ٥١٢/ ١١١٨ . فانتقل إليها عماد الدولة عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بالمستعين ، وأقام يحكمها تابعاً لألفونسو المحارب ، ثم توفى فى سنة ٥٢٤/١١٣٠ وخلفه ابنه سيف الدولة أبو جعفر احمد بن عبد الملك بن هود الملقب بالمستنصر ، وظل على ولائه لألفونسو المحارب زمناً ، ثم اختلف معه ووقعت بينهما الحرب ، واستعان احمد المستنصر بن هود على ألفونسو المحارب بمنافسه ألفونسو رايموندیث ملك قشتاله الذى تسميه المراجع العربية بالسليطين ، فارتد طمع ألفونسو المحارب عن روطة ، ولكن احمد المستنصر بن هود أحس أنه عاجز عن الاستمرار فى المحافظة عليها فنزل عنها لملك قشتاله ، ومنحه هذا عوضاً عنها « نصف تطيلة » أو

حصة من مدينة تطيلة[١]. كما تقول مراجعنا العربية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضى المجاورة لطليطلة بصفة اقطاع ، فانتقل إليها .

وفى أثناء هذه الخلافات والحرب بين ألفونسو المحارب واحمد المستنصر بن هود ، وصل الحجارى إلى روطة ، ولم يكن هذا الجوّال الدائم الرحلة ليجد بلداً هو أقل من روطة أماناً ، فقد رأينا حال صاحبها مع جيرانه النصارى ، ويبدو أن المستنصر بن هود قربه وأحظاه ، لأنه خرج معه فى إحدى مواقعه مع ألفونسو المحارب ، ومن سوء الحظ أن المستنصر انهزم ، ووقع الحجارى أسيراً فنقلوه إلى بسقاية وهى بلاد البشكنس حيث « بقى يحرك ابن هود بالأشعار ويحثه على تخليصه من الاسار ، فلم يُجْدِ عنده ذمامُه ولا تحرك له اهتمامه[٢] » وهذا طبيعى ، فإن أحمد المستنصر بن هود نفسه كان فى حاجة إلى من يسعفه وينجده ، وقد آل أمره إلى التخلى عن معقله والمسير إلى بعض نواحى طليطلة والاستقرار بها تابعاً اقطاعياً صغيراً على ما قلناه .

فإذا بلغ به اليأس مبلغه من احمد المستنصر بن هود ذكر صاحبه القديم وراعيه عبد الملك بن سعيد فكتب إليه شعراً يستنجده فيه :

أصبحتُ فى بسقاية مسلَماً ... إلى الأعادى ، لا أرى مسلِماً
مكلَّفاً ما ليس فى طاقتى ... مصفداً منتهراً مُرْغَماً
أُطلَبُ بالخدمة ، واحسرتى ! ... وحالتى تقضى بأن أُخْدَما
فهل كريمٌ يُتَرَجَّى لها ... إلاك يا أكرمهم[٣] منتمى؟

وانتظر الحجارى أن يأتيه الفرج فلم يأت ، فعاد فكتب إلى عبد الملك ابن سعيد بشعر آخر « فاجتهد فى فدائه فلم يمر شهر إلا وهو قد تخلص من

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، مخطوط ، ص ١٧١ وانظر بحثنا عن الثغر الأعلى الأندلسى وسقوط سرقسطة ، ص ١١٨
(٢) الإحاطة ، ص ٢٣٠
(٣) الإحاطة ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ و Abbadidis II, 142

والشطر الاول من البيت الاخير مكسور. والغالب ان صحته : فهل من كريم يترجى لها.

أسره ، واستقر لديه ، فكان طليق آل[1] سعيد وفيهم يقول . . . » وهنا تنتهى أخبار الرجل ، فلا نعود نسمع عنه شيئاً .

وقد ذكر بونس بويجس أن عبد الله بن ابراهيم الحجارى ولد سنة ٥٠٠ وتوفى ٥٥٠ هـ . ولسنا نعلم مصدره الذى اعتمد عليه ، ومن الواضح أن هناك خطأ ظاهراً فى تاريخ ميلاده ، لأنه إذا كان قد غادر مدينة الفرج بعد استيلاء الفونسو المحارب عليها ، فلا بد أنه كان فى قيد الحياة وبل فى سن من يهاجر فى سنة ٤٨٧/١٠٨٥ ، فلو فرضنا أن سنه كانت عشرين سنة إذ ذاك فهو على هذا الحساب من مواليد ٤٦٧/١٠٦٥ أو نحوها ، أما وفاته سنة ٥٥٠/١١٥٥ فممكنة وإن كانت غير مؤكدة ، وقد عاش الرجل برهة قصيرة من عمره فى ظل عبد الملك بن سعيد ، وكان هذا هو الذى افتكه من الاسر ، وقد توفى هذا سنة ٥٦٠/١١٩٤

وإذن فقد عاش الحجارى حياة حَظُّها من الراحة والمتاع قليل ، فقد تشرد فى صدر شبابه عن وطنه واضطر إلى الالتجاء إلى شلب ، وفيها قضى سنوات طويلة يغلب أنها سنوات التحصيل والتكوين ثم التأليف ، فقد وردها بعد سقوط وادى الحجارة أى فى سنة ٤٧٩ أو ٤٨٠ ، وإذا صدق تقديرنا لتاريخ ميلاده بسنة ٤٦٧ فتكون سنه عند ما دخل شلب ١٢ سنة ، ولم يبارحها إلى غرناطة إلا قبيل ٥٣٠ ، وهى السنة التى ورد فيها على عبد الملك بن سعيد ، وقد رأينا ابن الخطيب يقول إن عبد الملك بن سعيد لم يكد يعلم بوصول الحجارى إلى بابه ويعرف اسمه حتى أمر بإدخاله ورحب به ، مما يدل على أنه كان قد سمع به وبمكانه من العلم ، ثم إن على بن سعيد يصفه فى خطبة « المغرب » بأنه « نجاحظ الأندلس » ، أى أن الحجارى كان من أهل العلم الواسع الذين يوصفون بلقب الحافظ ، وهذا ظاهر من فقرات كتابه التى بقيت

---

(١) نفس المرجعين السابقين .

لنا ، ثم يقول على بن سعيد : « وصنف له كتاب « المسهب فى غرائب المغرب » فى نحو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذى ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة(١)» ولا يفهم من هذه العبارة إلا إلى أن المسهب كتاب تاريخ للأندلس خلال هذه الفترة الطويلة ، والفقرات الباقية بين أيدينا منه تدل على أنه لم يكن تاريخا صرفا ، بل تاريخا وجغرافية مع تراجم أدباء وشعراء وقطع مما أثر عنهم من النثر والشعر ، ومن هذه الفقرات أيضاً نستنتج أنه كان كتابا ضخما — « مسهبا » كما سماه — يقع فى أجزاء كثيرة يجعلها ابن سعيد ستة أو نحوها ، ومثل هذا الكتاب لا يؤلف فى عام ، والأغلب أنه وضعه فى أكثر من العام بكثير ، وأودعه علمه الواسع وما جمع وحفظ على مر السنين .

فلنلق نظرة على ما يتضمنه كلامه من هذه العناصر الثلاثة — التاريخ والجغرافية والأدب — حتى نعرف مكان الحجارى بين الجغرافيين والمؤرخين ، وإنصافاً له من الخمول الذى وقع فيه عند ما أرادت الظروف أن يتناول بنو سعيد كتابه بالتغيير والتبديل والزيادة والحذف ليظهر أخيراً باسم « المغرب فى حلى المغرب » .

وتهمنا هنا الناحية الجغرافية : ينقل المقرى فى نفح الطيب فقرات كثيرة من مسهب الحجارى ، بعضها يتصل بالجغرافية العامة للأندلس وبعضها متصل بأوصاف المدن والنواحى وخواصها ؛ فأما ما يتصل منها بالجغرافية العامة فينفرد به المقرى ، وأما ما يتصل بالنواحى فنجده فى مغرب بنى سعيد ، كل فقرة فى موضعها من ترتيب الكتاب .

ونعتقد أن الفقرات الخاصة بالوصف الجغرافى العام للأندلس كانت أيضاً فى مغرب بنى سعيد ، فى الفصل الناقص من مخطوطته المنشورة المسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » ، فإن ما لدينا من المغرب يبدأ بإمارة الحكم

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ٣/٩٥

الربضى من الجزء المسمى « كتاب النغم المطربة فى حلى حضرة قرطبة » وقد نبه الدكتور شوقى ضيف ناشر الكتاب على ذلك فى التعليق رقم ١ من صفحة ٣٨ من النص المنشور بقوله : « بهذه الترجمة يبدأ الجزء الحادى عشر من كتاب المغرب ، فهى أول الأوراق التى بقيت من الأندلس فى النسخة التى ننشرها . وبينا فى المدخل أن الجزء العاشر من الكتاب فقد كله ، وهو أول الأجزاء الخاصة بالأندلس ، وفيه كانت المنصة وحديث واسع عن فضائل الأندلس ، ثم القسم الأول من التاج ، ويتضمن ولاة الأندلس الذين اتخذوا قرطبة حاضرتهم ، ثم عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وفى النفح أكثر هذا الجزء ، نقله المقرى بنصه ، ولم نر إعادة نشره » ونعتقد أن الناقص من المخطوط الذى وصل إلينا هو كتاب وشى الطرس كله ومنصة كتاب الحلة المذهبة فى حلى مملكة قرطبة وجزء من « تاجها » .

وقد استعملت هنا مصطلحى المنصة والتاج مجاراة لبنى سعيد فى تنظيمهم الغريب للمغرب وهو كما يلى على وجه التقريب : المنصة وهى الوصف الجغرافى للناحية أو البلد والتاج وهو يتضمن ذكر حكامه من أمراء أو خلفاء أو سلاطين ووزراء وقواد وعمال وما إلى ذلك ، والسلك ويندرج تحته الكُتاب والشعراء والحلة وهى تتضمن العلماء الذين ليس لهم نظم ولا نثر ، ولا ينبغى إهمال تراجمهم ، والأهداب وهى مختصة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه . وهذا كله مصطلح غريب لا ندرى إن كان صاحبه الحجارى أو بنى سعيد ، وإن كنا نستبعد أن يكون هذا تصور الحجارى الذى يوصف بالبداوة والخشونة ، ونستبعد أيضاً أن يكون من اختراع عبد الملك بن سعيد أو ابنيه أحمد ومحمد أو موسى ابن هذا الأخير ، ويغلب على الظن أنه من ابتكار على بن موسى بن سعيد فقد كان رجلا ذا غرام بالزينة اللفظيه وبهارجها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من مؤلفى العرب لم يبتكر من الأسامى المسجوعة المزركشة قدر ما ابتكر هذا « المصنف الأديب الرحال الطرفة الأخبارى العجيب الشأن » كما وصفه ابن الخطيب .

المهم لدينا أن الحجارى وضع أساس ذلك كله ، والأغلب أنه جعل كتابه قسمين : قسما للجغرافية وآخر للتاريخ ، وتحت التاريخ أدرج أخبار الأدب والأدباء والعلم والعلماء على طريقة سنراها بعد قليل .

فأما جغرافيته فكانت تحتوى على كلام عام عن صفة الأندلس وفضائله وهذا هو القسم الأكبر من الجزء الناقص من مخطوطة المغرب المنشورة ، وليس بغريب أن يكون هذا الجزء ناقصاً من مخطوطة وصلت إلينا بخط على بن سعيد نفسه ، لأن هذه كانت نسخة أولى أو مسودة ، عاد على بن سعيد فملأ فراغاتها وتممها فى نسخ أخرى لم تصل إلينا ، وقد اعتمد المقرى وغيره على بعض هذه النسخ الكاملة وأوردوا منها تلك النقول الطوال التى لا نجدها فى الأصل الذى بين يدينا .

ومن الفقرات التى نقلها المقرى نتبين أن القسم الأول العام من وصف الأندلس من كتاب الحجارى كان يمضى على نفس الخطوط التى مضى عليها الرازى والبكرى ومن أخذ عنهما ، فهو يذكر أن « طول الأندلس من الحاجز إلى المحيط ١٠٠٠ ميل وأن عرضها فى موسطها عند طليطلة ١٦ يوما » ثم يأخذ كلام الرازى وابن حيان عن أركان الجزيرة ، وفى القطعة التى لدينا يتدخل ابن سعيد شارحا أو مفصلا أو مضيفا تفصيلات نقلها عن الإدريسى . ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن بقية ما أورده المقرى منسوباً إلى ابن سعيد من الأوصاف العامة للأندلس ، فما كان منه منسوبا إلى مؤلفين سابقين على الحجارى أو غير منسوب أصلا فهو منقول عن كتاب الحجارى ، وما كان منه لمؤلفين بعد الحجارى كالإدريسى والشقندى وابن اليسع وأبى الفضل التيفاشى وغيرهم فهو من إضافات بنى سعيد ، أما ما ينسب إلى مؤلفين عاشوا بعد على بن سعيد فهو من جمع المقرى نفسه وتصنيفه .

وبعد هذا الوصف العام للأندلس يتحدث الحجارى فى مسهبه عن كور الأندلس كورة كورة ، وفى كل كورة يتحدث عن مدائنها وقراها وحصونها ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه هى « المنصات » التي نجدها فى مغرب بنى سعيد ، وهى المقدمات الجغرافية التى يبدأون بها الكلام عن النواحى ، وهى كما تبدو فى المغرب لا تجرى على نظام واحد ، فهناك مدن كبار لا نجد فى وصفها غير سطر أو بعض سطر ، وهناك قرى أو أرياض نجد عنها الفقرات الطوال، مثل ذلك أنه يقول عن مورور وكانت من أعظم كور الأندلس وأكثرها عمارة ومكانا : « ذكر الرازى أنها اشتملت على[١] فوائد كثيرة » وهى عبارة لا تقدم ولا تؤخر ، وعن أشونه : « من كور اشبيلية فيما بينها وبين[٢] غرناطة » وهى عبارة غير صحيحة على قصرها ، فإن أشونة لم تكن كورة ، بل مدينه كبيرة ، وعن تاكُرُنّا « هي كانت قصبة من الكور ثم خربت[٣]» ثم يقول عن طَرَيَانه وهى من ضواحى اشبيلية « هى مدينة ممتدة على شاطىء النهر الأعظم فى مقابلة النصف من حضرة اشبيلية ، وهى مسورة من جهة الصحراء (أى من جهة البر) وفيها الأسواق والحمامات الضخمة ، وقد بنيت على تاج مطل على النهر ، ومناظرها التى من جهة النهر سَنَّ فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس ، لئلا تنبو العين عنها ، ومن لا ينهض إلى ذلك فيبنى من جهة الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر ، أكثر شراجيبها (أى شرفاتها) منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون فيها من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ما هو مشهور فى[٤] البلاد » أما عن شذونة ، وهى كورة كبيرة فيقولون : « من أجل كور اشبيلية محرثا وشجراً ومياهاً وماشية ، وهى إلى جانب[٥] البحر المحيط » وهى عبارة عامة لا تحديد فيها وفيها خطأ واضح أيضاً ، فى حين يقول عن حصن العُقْبين وهو حصن صغير من توابع قلعة بنى سعيد:

---

(١) المغرب ، ١/٣١٢
(٢) المغرب ، ١/٣١٧
(٣) المغرب ، ١/٣٣٠
(٤) المغرب ، ١/١٩٣
(٥) المغرب ، ١/٣٠١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« حصن من حصون القلعة على وادى فُرجة ونضارة ، أخبرنى والدى أنه كان كثيراً ما يلم به للصيد فى صباه مع أقاربه وأصحابه ، وكان لهم على الوادى قصر جرُّوا فيه ذيول الصبا ، وهبوا فى جنباته هبوب الصبا[1] . . . » والسبب فى ذلك التفاوت والتناقض أن بنى سعيد ، وخاصة آخرهم علياً ، حوروا المادة الجغرافية التى أخذوها عن الحجارى إلى شىء نستطيع أن نسميه الجغرافية الأدبية أو الفكرية ، فأهمية البلد أو الموضع لا تتوقف عندهم على خصائصه الجغرافية ، بل على من أنجب من الأدباء والشعراء وأهل العلم ، فرب بلد كبير لم ينجب فى رأيهم من هؤلاء ما لا يستحق به إلا سطراً من الوصف ، ورب ضاحية من بلد انجبت عدداً عظيما منهم ، فاستحقت لهذا وصفا طويلا ، وهذا الطول فى الوصف لا يتناول الخصائص الجغرافية الحقيقية ، بل تلك الخصائص التى تهم الكتاب والشعراء : المناظر الجميلة والأنهار وأماكن الفرجة والنزهة وما إليها مما كان يعتبر مواضع للإلهام الأدبى والشعرى .

ولكننا نستطيع أن نتبين من المواد التى بقيت كما كتبها الحجارى أن طريقته تتلخص فى الاتيان بشىء من وصف البلد من الرازى أو ابن حيان (نقلا عن الرازى) وغيرهما ، ثم يورد ما لديه من المعلومات ، وهذه المعلومات على جانب كبير من الأهمية لأنها تعطينا فكرة عن أحوال هذه البلاد وأوضاعها الجغرافية فى الوقت الذى كتب الحجارى فيه ، وهو سنة ٥٣٠/١٠٣٥—١٠٣٦ وما بعدها بقليل . حقيقة أن بنى سعيد غيروا وبدلوا فيما كتب الحجارى ، وأضافوا من عندهم أشياء كثيرة ، ولكننا نستطيع بالرجوع إلى تواريخ الحوادث أن نفرق بين ما وقع إلى أيام الحجارى ، وما جد بعدها ، وعلى أى حال فإن الصورة الجغرافية للأندلس كما تبدو فى كتاب المغرب هى صورته خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على وجه التقريب ، فإن ميزان

---

(١) المغرب ، ٢/١٨٥

القوى بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس لم يختلف كثيراً خلال القرن السادس الهجرى إنما وقع الاضطراب الشديد بعد موقعة العقاب سنة ١٢١٢/٦١٩ وكان على بن سعيد قد غادر الأندلس ، ولم يدخل على الكتاب من هذه الناحية الجغرافية تعديل على ما أثبته أبوه موسى .

ومن الواضح أن هيكل كتاب المغرب هو نفس الهيكل الذى وضعه الحجارى للمسهب ، فإن على بن سعيد لم يقل إن جده عبد الملك أعاد تنظيم الكتاب ، بل قال بعد أن ذكر تأليف الحجارى للمسهب : « ثم ثار فى خاطر عبد الملك (ابن سعيد) أن يضيف إليه ما أغفله الحجارى ، وتولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل يزيد إلى أن استبد به محمد ، فاعتنى به أشد اعتناء ، ثم استبد به والدى . وكان أعلمهم بهذا الشأن . . . » وليس فى هذا كله إشارة إلى وضع نظام جديد للكتاب ، بل مجرد زيادات وإضافات ، والواقع أن تصنيف هذا الكتاب على أساس التوزيع الجغرافى للأعلام وأهل الأدب شىء طريف مبتكر ، فهو أشبه بخريطة أدبية للأندلس إلى أيام موسى بن سعيد ، وهنا موضع الأهمية بالنسبة لبحثنا هذا ، وما دام الكتاب يشير إلى ما أصاب كل بلد يذكره إلى أيام موسى بن سعيد فأمامنا خريطة جغرافية للأندلس فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى والنصف الأول من السابع ، وهى وثيقة ذات قيمة عظمى فى هذا الشأن .

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن الحجارى هو صاحب الفضل فى رسم هذه الخريطة ، وأن بنى سعيد لم يفعلوا أكثر من تجويدها وإكمالها وإضافة ما فات الحجارى من الأعلام فى هذه الناحية أو تلك أو ما سقط من البلاد فى يد النصارى بعد أيام الحجارى فلنأخذ كلام على بن سعيد فى مقدمة « المشرق فى حلى المشرق » شارحاً لمنهجه فى تأليفه على أنه شرح للطريقة التى رسمها الحجارى لتأليف « المسهب » فهو يقول : « كل من التصنيفين مرتب على البلاد ، متى ذُكر بَلَدٌ ذَكَرْتُ كُوره ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه ،

وابتدىء بكرسي مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمى] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، ومن بناها وما يحف بها من نهر أو منزه أو خاصة معدنية ونباتية ، ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها ، ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهى خمس . . . »[1] أى أن خطة الكتاب الأساسية هى أن يكون كتاب تقسيم جغرافى أولا وعلى هذا الأساس الجغرافى يقوم كل شىء بعد ذلك ، وهذا طبيعى من رجل رحالة طلعة مثل الحجارى .

ولكن الحجارى لم يضع هذا التقسيم الجغرافى على أساس الأوضاع الجغرافية السياسية الخاصة بأيامه ، بل وضعه على أساس أقسام الأندلس الكبير بحدوده أيام الخلافة ، وهو معذور فى ذلك ، إذ أنه لو اقتصر على أندلس القرن السادس لأسقط أدباء وعلماء كثيرين ينتسبون إلى نواح كانت قد ضاعت فى ذلك الحين ، ولا نلاحظ عنده من معالم التقسيم الجغرافى الذى جَدَّ بعد سقوط الخلافة إلا تقسيمه الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب ، وهو تقسيم ظهر أولا عند ابن بسام ، وهو تقسيم نظرى صرف ، أى لم تكن تقابله حقيقة سياسية ، ويبدو أن المرابطين اتخذوه أساساً فى التعيينات فى الوظائف الكبرى ، فمن الثابت أنه كان لهم قائد لجيوشهم فى شرق الأندلس ، وقاضى قضاة خاص بهذا القسم ، ولسنا متيقنين مما إذا كان هناك قائد أو قاضى قضاة للغرب أو للموسطة ، فذلك رهين بالعثور على أصول لتاريخ المرابطين أوسع وأدق ما لدينا . وقد عوضنا الحجارى عن إهماله للوضع فى أيامه بملاحظات طيبة أضافها إلى ما نقل من الأوصاف الجغرافية عن القدماء ، ثم أكملها بنو سعيد وهى ملاحظات تعين على تصور الأوضاع فى منتصف القرن السادس وأوائل السابع الهجريين ، فنحن نقرأ مثلا عن رندة مثلا : « كورة خصبة ، كانت أولا

---

(١) رواه الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة تحقيقه المشكور للمغرب : ٩/١

من كور قرطبة ثم صارت فى الأخير من كور اشبيلية وفيها مزارع القطن كثيرة »[١] وعن رَمَادَه : « إنها من قرى شلب »[٢] وعن قرية الزاوية : إنها « من أعمال أونبة وينسب إليها بنو حزم »[٣] ويضيف على بن سعيد فى بعض الأحيان إلى مصطلحه القائم على حلية العروس (المنصة ، التاج ، السلك . . . الخ) مصطلحاً يسميه « البساط » وهو يريد البساط الذى تمشى عليه العروس حين زفافها ، والمقصود به هنا زمام البلد ، فيقول مثلا فى بساط أونبة : « غرب من مدينة لبلة إلى جهة البحر ، وهى قاعدة عملها »[٤] .

وبهذه المناسبة نذكر أن المصطلحات الإدارية التى تستعمل فى ذلك الكتاب اعتبارية صرفة لا يمكن التعويل عليها ، فهو لا يستعمل فى دقة مصطلحات مثل كورة ومملكة وقرية وحصن ، وقد حاولت أن أتبين له قاعدة فى هذه الناحية فلم أستطع ، وقد كان من المنتظر من رجال تولوا القيادة والحكم والإدارة كعبد الملك بن سعيد وموسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أن يضيفوا ما فات الحجارى الأديب فى هذه الناحية ، ولكن يبدو أن النزعة الأدبية غلبت على ما عداها فى تصنيف ذلك الكتاب ، ومن ثم فقد استعملت الألفاظ بمعانيها الأدبية لا الإدارية ، وليس أدل على ذلك من قولهم عن بلد مثل شلب « هى[٥] عروس » ويريدون أنها قاعدة لها زمام وتوابع ، ومثل ذلك قولهم عن كثير من المواضع ، أنها « حالية » والمراد عروس حالية لها منصة وتاج وسلك وحلة وأهداب .

والخلاصة أن الحجارى فى مسهبه أضاف تفصيلات جغرافية كثيرة إلى ما وجدناه عند سابقيه من الجغرافيين ، وإضافاته نتيجة مشاهداته وملاحظاته ،

---

(١) المغرب ، ١/٣١٠
(٢) نفس المصدر ، ١/٣٩٢
(٣) نفس المصدر ، ١/٣٥٤
(٤) نفس المصدر ، ١/٣٣٩
(٥) نفس المصدر ، ١/٣٨٠

فقد كان رحالة طلعة زار جانباً كبيراً من نواحى الأندلس وأثبت بعض ما رأى ، وهو لا يصل فى هذه الناحية إلى شأو العذرى ، ولا يقارن بمعاصره الشريف الإدريسى ، ولكن دارس جغرافية الأندلس الإسلامى لابد أن يجمع ملاحظاته وإضافاته كلها معاً حتى تكتمل لديه الصورة التى يريد رسمها .

وحسب الحجارى أنه حدد معالم ما سميناه بالجغرافية الأدبية أو الفكرية وسار بها شوطاً بعيداً نحو الجغرافية بعد أن كان ابن بسام قد بدأ بها على أنها مجرد تقسيم للتسهيل والتيسير . وإذا كنا نجمع أطراف ما لدينا من جغرافية الرازى فإن مسهب الحجارى يعتبر من المراجع الرئيسية لهذه الجغرافية . ولو أننا وجدنا الفصل الأول من مغرب بنى سعيد المسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » لاستطعنا أن نعطى صورة أوفى عن الحجارى الجغرافى ، ولو أن بنى سعيد تركوا كلامه على حاله ثم أضافوا ما أرادوا لكان ذلك أشبه بمقام الرجل وأقرب إلى إنصافه ، ولكنه رغم ذلك كله يحتل مكاناً مرموقاً فى تاريخ الجغرافية فى الأندلس .

وقد أطلت الوقوف عند عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، لأنه باعتراف بنى سعيد أنفسهم صاحب الفضل الأول فى كتابهم المشهور الذى يعتبر من أحسن ما لدينا من المراجع عن تاريخ الأندلس وحضارته ، وقد كانت مشاركتهم إياه فى كتابه داعية إلى التقليل من شأنه ومن مكانه فى تاريخ الفكر الأندلسى ، مع أنه كما رأينا صاحب طريقة ومنهج ومبتدعُ لون طريف من ألوان التأليف الجغرافى والتاريخى والأدبى فى الأندلس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشريف الادريسي

قصة علم الجغرافية عند المسلمين

فى تاريخ الفكر الأندلسى يمثل القرن الممتد من ٤٥٠ إلى ٥٥٠ هجرية (١٠٥٨ — ١١٥٥ ميلادية) حقبة متميزة بخصائصها عما سبقها أو لحقها من مراحل هذا التاريخ العامر بالفتوح الفكرية . فخلال هذه الأعوام المائة وصل التأليف فى شتى ضروب العلوم فى الأندلس إلى ذروته ، وإذا نحن درسنا ما ظهر من الأعمال قبلها تبينا أنها تمهيد أو خطوات نحو النضوج الذى ظهر خلالها ، وما ظهر بعدها كذلك كان نسجاً على طراز ما ظهر فيها ، فيما خلا استثناءات لا تضعف هذا الرأى ، وفى موضوعات الإنتاج الفكرى لا يمكن إصدار أحكام جامعة مانعة ، إنما هى محاولات للتأريخ لجانب من جوانب النشاط البشرى قلما يخضع لقاعدة مطلقة أو حكم لا يقبل الاستثناء .

والخصائص المميزة للانتاج الفكرى الأندلسى خلال هذا القرن هى : التجويد والإحكام فى التأليف ، ثم وفرة الإنتاج المنسوب إلى كل عَلَمٍ من الأعلام ، وتكامل الجهود فى شتى ضروب العلم حتى لا يكاد يخلو ضرب منه من مؤلفات مجيدة تعتبر معالم واضحة فى تاريخه كله . وخلال هذا القرن أيضاً نرى كيف وصلت الرسائل المختصرة التى تكتب فى موضوع بعينه إلى ذروة لم تعرفها هذه الرسائل قبل ذلك ، ونلاحظ اتجاهاً واضحاً نحو التخصص .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد عرف تاريخ الفكر الإسلامى التخصصَ من زمن بعيد ولكن فى ميادين معينة كالفقه والحديث واللغة وعلوم القرآن ، أما التخصص فى غير هذه العلوم كالجغرافية والفلسفة والطب والنبات والعقاقير وما إليها فهو الجديد فى الأندلس خلال هذه الفترة . حتى العلوم التى عرف الأندلسيون الانقطاع لها قبل هذه الفترة نجد التخصص فيها يصل بها إلى ذروات لم تعرفها قبلها أو بعدها ، ورجال مثل أبى محمد على بن حزم وعياض بن موسى بن عياض وأبى الوليد الباجى وأبى عمرو الدانى وأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى وابن سيدة المرسى يعينون دون نزاع المرقاة العليا التى وصل إليها الفكر الأندلسى فى الفقه وعلوم الدين والحديث واللغة فى الأندلس .

ومن المعروف أن الإزهار الأدبى فى أندلس القرن الخامس وما تلاه كان ثمرة غراس عصرى الإمارة والخلافة ، وخلال القرن الرابع على الخصوص ، عند ما استقرت أمور الأندلس استقراراً كاملاً وسادها الأمن والنظام والعدالة قرابة قرن متصل من الزمان ، نشطت النفوس خلاله فتفتحت الآمال ، وانصرف الراغبون فى العلم إلى الدرس والتحصيل ، واستقرت أصول العلم ومراكز الدراسة وانتشرت حلقات الشيوخ وكثرت الكتب فى أيدى الناس ، وأطل القرن الخامس والناس آمن ما يكونون ، تتطلع نفوسهم إلى مستقبل أحفل بدواعى الاجتهاد فى العمل والطلب ، فإذا بهم فى هذا الاطمئنان إذ وقعت الواقعة بغتة ، وانقلب كلُّ شىء رأساً على عقب ، وتفرقت الجماعة وانتشبت الفتنة وصوّحت الآمال . وقدجرفت العواصف أهل العلم والأدب ، وآذنهم أذى شديداً ، فانزوى بعضهم من أول الأمر وانصرف إلى درسه ، واجتهد آخرون فى تلافى الكارثة ، ثم أدركهم اليأس فاعتكفوا هم الآخرون . وخلال النصف الثانى من القرن الخامس ، وهى حقبة قصيرة شهدت كارثة طليطلة وزوال ملك معظم أمراء الطوائف واجتماع ما بقى من الأندلس تحت راية المرابطين ، أصبح انصراف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهل العلم إلى علمهم وابتعادهم عن السياسة وأهلها هو القاعدة التى اتبعتها الأغلبية ، وعلى آثارهم سار من خلفهم من تلاميذهم .

ومعنى ذلك أن العلم أصبح يدرس للعلم نفسه ، فيما عدا ما تدعو إليه مطالب العيش من قبول وظائف القضاء والكتابة دون أن يكون ذلك صارفاً عن الدرس والتأليف . وما دام العلم يطلب لذاته فقد انصرف كل عالم إلى ما أحب ، وأعان على ذلك ضعف أصحاب السلطان وانشغالهم بالحروب والأخطار المتلاحقة ، فأقبل أهل العلم على ما تهوى إليه نفوسهم من ضروبه دون حرج ، ومن هنا ظهر التخصص والتجويد لا فى العلوم الأساسية التقليدية بل فى غيرها أيضاً ، فنجد أنفسنا أمام عدد كبير من العلماء انقطعوا انقطاعاً تاماً إلى الفلسفة والجغرافية والطب والعقاقير والفلك وما إليها ، ووصلوا بها — نتيجة لهذا الانقطاع — إلى ذروتها العليا .

بهذا يكون ظهور الشريف الإدريسى وتخصصه فى الجغرافية وانصرافه إليها عمره كله معقولا ومفهوماً ، ولو لم تكن الظروف التى ذكرناها — وأرجو أن يكون الاستقراء هنا صحيحاً — لما كان من الممكن أن ينصرف رجل كالإدريسى إلى الجغرافية هذا الانصراف الكامل الذى يجعل منه بحق أول جغرافىّ متخصص فى هذا الفن فى التاريخ ، ولقد فاق فى ذلك الميدان بطلميوس وزاد عليه ، فقد كان هذا الأخير فلكياً رياضياً ، وكان اشتغاله بالجغرافية تطبيقاً لما درس من الفلك والرياضة ، أما الإدريسى فجغرافى خالص ، وهب نفسه لهذا العلم وأخرج فيه ما لم يخرجه عالم قبله ، ورفع الجغرافية بذلك إلى مصاف العلوم الكبرى ، وهذا فيما أعتقد هو الذى يحدد مكانة هذا العالم الفذ فى تاريخ الفكر الإنسانى قاطبة .

وليس بين الجغرافيين العرب من طارت شهرته مطار الشريف الإدريسى ، ولم يظفر واحد منهم بجزء مما ظفر به من دراسات ، فقد عُنِى كل بلد بنشر

ما كتبه الإدريسى عنه فى كتابه الأشهر «نزهة المشتاق» وترجمته إلى إحدى اللغات الحية والتعليق عليه ، وتخصص فى الدراسات الإدريسية نفر كبير من الباحثين فى الغرب ، ولكننا لا زلنا إلى الآن بالنسبة للرجل وكتابه فى نفس الموقف الذى كنا فيه من نحو ثلاثين سنة . لا زالت المشاكل الرئيسية المتصلة بترجمة حياته وتكوينه الجغرافى دون حل ، ولا زال موضوع مصادر معلوماته غامضاً مبهما كما كان ، فيما عدا بعض الفروض والاستنتاجات التي وصل إليها نفر من الباحثين من أمثال ميكيلى أمارى وكونراد ميلر وجويسيبى فورلانى وتادُوِيتْسْ ليفيكى وسيزار دوبلر وفلهلم هونرباخ ، وهى افتراضات واستنتاجات لا تستند على دليل ثابت أو سند صحيح من نص كلام الإدريسى أو مَن كتبوا عنه من المسلمين ، وسنعرض لها فى مكانها من هذا البحث .

والسبب الرئيسى فى ذلك أن كل ما لدينا عن حياة الإدريسى لا يخرج عن سطور قليلة أدارها عليه حاجى خليفة فى كشف الظنون وصلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدى فى الوافى بالوفيات والعماد الأصفهانى فى الخريدة . وفيما عدا هذه السطور لم يظفر الإدريسى بترجمة مفصلة فى أىّ من كتب التراجم فى المغرب أو المشرق ، وقد رد نفر من الباحثين هذا الإهمال إلى أن المسلمين أغفلوا ذكر الإدريسى لأنهم لم يرضوا عن اتصاله بملك نصرانى ودخوله فى خدمته[1] ، وذلك غير صحيح ، لأن ذلك لم يقلل من قدر الإدريسى فى نظر أهل العلم عندنا ، ولقيت كتبه من التقدير عند علماء العرب ما هى جديرة به ، فلا يخلو كتاب جغرافية كتب بعده من ذكره ، واختصته كتب المختارات الأدبية والموسوعات الكبرى بمديح طويل وأكثرت النقل عنه . أما خلو معاجم التراجم من ذكره فيرجع إلى طبيعة حياته نفسها ، فهذا رجل قضى معظم

---

(١) صاحب هذا الرأى هو المستشرق اتيين كترمير فى مقال نشره فى « صحيفة العلماء » *Journal des Savants* مجلد سنة ١٨٤٣ ص ٢١٤ — ٢١٥

عمره سائحاً جوالا أو مغترباً عن بلاد المسلمين ، وربما يكون قد مات فى الغربة أيضاً كما سنرى ، فلم يقع أصحاب التراجم على سيرته وتفاصيل حياته ، أما كتابه فيكفى للدلالة على ذيوعه أن لدينا من مخطوطاته الجيدة الكاملة قرابة العشرة ، خلا القطع والأجزاء التى لا تخلو منها مكتبة كبرى فى الشرق أو الغرب .

والوقائع الثابتة لدينا من حياة الإدريسى قليلة جداً ، وبعض هذا القليل لا يستند إلى أساس متين يمكن أن نطمئن إليه تماماً ، فالشائع عند أهل العلم أنه ولد فى سبتة سنة ٤٩٣/١١٠٠ وأصل هذا القول عند ميخائيل الغزيرى ، فقد ذكر ذلك التاريخ فى الفهرس الذى وضعه لمخطوطات الاسكوريال دون أن يعين المرجع الذى استند إليه[١] ، وأنه كان يتجول فى المشرق سنة ٥١٠/١١١٦ —١١١٧ وأنه أتم كتابه سنة ٥٤٨/١١٥٣—١١٥٤ وتوفى سنة ٥٦٠/١١٦٤ —١١٦٥ ؛ وهذا التاريخ الأخير مرجعه إشارة أوردها الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقى فى وصف رحلته ، وقد عاش الحسن الوزان بعد وفاة الإدريسى بثلاثة قرون ، وإشارته مع ذلك غير واضحة كل الوضوح[٢] . ويمكن أن يضاف إلى هذه التواريخ الأربعة خامساً نستنتجه من كلام الإدريسى ، فقد ذكر أنه أنفق ١٥ سنة فى تأليف كتابه ، ومعنى ذلك أنه بدأ عمله العلمى الكبير فى صقلية سنة ٥٣٣/١١٣٨—١١٣٩ ، ومن الممكن أن يكون هذا هو تاريخ وفوده على صقلية ودخوله فى خدمة رجار الثانى .

---

(١) Casiri, *Biblioteca Arabico-Hispana Escurialensis*, II, 13.
وانظر مقدمة الترجمة الفرنسية للقسم الخاص بالمغرب والأندلس وجزء من مصر :
R. Dozy et M. J. de Goeje, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, Leyde, 1866, p. III.
وسنشير إلى هذه الترجمة كما يلى : Dozy, *Espagne...*

(٢) Cf. Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia* (Firenze, 1872) IV, p. 665, n. 3.
وقد ذكر الحسن الوزان أن الوفاة كانت سنة ٥١٦ هجرية ، ولاحظ البارون دى سلان أن هذا التاريخ لا بد أن يكون مصحفاً ، وأن صحته فى الغالب ٥٦٠/١١٦٤—١١٦٥ ، وهذا هو الأساس الذى نستند إليه فى القول بأن الإدريسى توفى فى هذه السنة . والحسن الوزان ولد سنة ٨٩٣/١٤٨٧ —١٤٨٨ . وتوفى حوالى ٩٤٤/١٥٣٧ ، أى أن بينه وبين الإدريسى أكثر من ثلاثة قرون .

وما عدا ذلك من وقائع حياته التي يذكرها مترجموه إنما هى استنتاجات وفروض ، فقد ذهبوا إلى أنه أقام فى قرطبة ودرس فيها ، بدليل أنه وصفها وصفاً دقيقاً وأورد لمسجدها وصفاً لا يصدر إلا عمن عاينه بنفسه ، وهذا التقدير صحيح ، لأن ذلك الوصف فريد فى بابه لا نجده عند واحد ممن سبق الإدريسى من الجغرافيين والكتاب ، وقد نقله عن الإدريسى بعد ذلك نفر ممن أتوا بعده ، وأصبح من الأصول التي لا يستغنى عن دراستها من يعنون بدراسة تاريخ العمارة الأندلسية .

ولكن هذه الطريقة فى الاستنتاج ليست مأمونة دائماً ، فقد ذهب رينو فى تعليقاته على ترجمته لجغرافية أبى الفدا إلى أن الإدريسى زار شمال غربى فرنسا المعروف ببريطانيا وجنوبى انجلترا مستندا إلى وصفه الدقيق لهاتين الناحيتين[١] ثم تبين بعد ذلك أنه لم يزر أيا منهما ، بل اعتمد فى وصفهما على أقوال نفر من أهلها ، وفى دراستى لوصف مصر فى « نزهة المشتاق » تبينت اضطرابا واضحاً فى تحديد المواقع مع أن الثابت أن الإدريسى زار مصر وأقام فيها . أى أن دقة الوصف ليست دائماً دليلا على المشاهدة الشخصية ، وانعدامها ليس دليلا على أن الإدريسى لم يكن فى الموضع وفى حالات قليلة جداً كان الوصف الدقيق دليلا على المعاينة الشخصية ، كما أثبت ذلك رامزى وتوماتشيك فيما يتصل بجزء الإدريسى الخاص بآسيا الصغرى[٢] وكما يتبين بوضوح من كلام

---

(١) M. Reinaud, *Géographie d'Aboulféda*, tome I, *Introduction générale à la géographie des orientaux*, Paris 1848, pp. CXIII-CXXII, CCCX-CCCXVI.

César A. Dublen, *Los Caminos a Compostela en la Obra de Idrisi*, al-Andalus, XIV, 1949, fasc. 1, p. 70, n. 3.

(٢) W. M. Ramsay, *The historical Geography of Asia Minor* in *Royal Geographical Society*, Supplementery papers, IV, London, 1890.

Wilhelm Tonaschek, *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter* Apud *Sitzungsberichte der Kais. Akademie der Wissenschaften in Wien* (phil-hist. Classe), 124 (1891).

وانظر لنفس المؤلف أيضاً :

Zur Kunde der Hámus - Halbinsel - Die Handelswege im 12. Jahrhundert Nach der Erhundigungen des Arabers Idrîsî Apud *Sitzungsberichte der Philosophisch- Historischen Classe der Kais. Akademie der Wissenschaften*, vol. 113, Vienna, pp. 275-373.

الإدريسى على صقلية وسواحل إفريقية القريبة منهـا والجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايبيرية ، فى هذه الأجزاء يتجلى أن الوصف الدقيق دليل المشاهدة الشخصية، ولا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الأجزاء بالذات أحسن جغرافية الإدريسى كلها .

لهذا كله لا بد من التحفظ فى الاستنتاج من النص ، حتى لا تختلط الحقائق الواضحة بالفروض والتصورات فى حياة رجل له مقام الإدريسى . فمن الأقوال الشائعة مثلا أن الإدريسى ابنٌ لإدريس العالى سابع الخلفاء من بيت بنى حمود ، وهو خطأ واضح لأن إدريس هذا توفى سنة ٤٤٤/١٠٥٢ — ١٠٥٣[١] فلا يمكن أن يولد له ولد سنة ٤٩٣/١١٠٠ . ومن الممكن تفسير هذا القول على أنه من أحفاد إدريس العالى هذا ، ويؤيد ذلك أن اسم الإدريسى ورد فى مخطوطة أوكسفورد : « أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس أمير المؤمنين العالى بأمر الله » .

وإدريس العالى هذا من أواخر الأدارسة الحموديين الذين أوضعوا فى الفتنة الأندلسية الكبرى عقب انتثار عقد الخلافة الأندلسية وكان لهم فيها دور غير محمود ، فقد هجم جدهم علىّ بن حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس على الخلافة فى آخر دولة سليمان بن الحكم المستعين الثانية ، وادعى أن هشاماً المؤيد عهد إليه بها سراً ، واتخذ لقب الناصر لدين الله وبدأ بداية حسنة ، ولكن أمره لم يلبث أن اضطرب وتخلى عنه أنصاره ونفرت منه الأحزاب المتنافسة حول الخلافة ، وانتهى أمره بأن قتله نفر من غلمانه فى الحمام أول ذى القعدة سنة ٤٠٨ الموافق أول يوليو ١٠١٨[٢] ثم توالى على طلب الخلافة نفر من أهل بيته ، ادعى منهم الخلافة وحمل القابها ثمانية منهم ، لا يكاد الواحد منهم يظهر على مسرح

---

(١) ابن القطان ، برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٣/٢١٧

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٣/١٢١ — ١٢٤

الحوادث حتى يختفى قتيلا أو هاربا أو معزولا ، وإدريس العالى هذا سابعهم ، ويعرف بإدريس الثانى ، وهو ابن يحيى المعتلى وحفيد على الناصر لدين الله الذى ذكرناه ، نادى بنفسه فى ٦ جمادى الثانية ٤٣٤/٢١ يناير ١٠٤٣ فى مالقة ، ولم يلبث أن قام عليه ابن عمه محمد بن إدريس المتأيد بن على الناصر لدين الله فى شعبان ٤٣٨/ فبراير ١٠٤٦ ، ففر إلى سبتة لاجئاً إلى سوّاجات البرغواطى ، وكان من رجال بنى حمود هؤلاء يتولى لهم سبتة ، وسواجات هذا هو الذى يسمى أيضاً سقوت أو سكوت ، وقد أصبح هو الآخر أميراً من أمراء الطوائف ، ولكن على سبتة ، وكان له دور كبير فى الفتنة إلى أن قضى عليه المرابطون . وأصله غُمارى ثم دخل فى قبيلة برغواطة ، وهذا يعلل صلته بآل حمود الإدريسيين ، لأن دولة الأدارسة قامت في دورها القاني على أكتاف قبيلة غمارة[١].

المهم لدينا هنا أن إدريس العالي هذا لجأ إلى سواجات إلى أن مات سنة ٤٤٤ كما قلنا ، ولا يستبعد أن يكون نفر من أولاده ظلوا فيها منصرفين إلى مطالب العيش بعيداً عن السياسة ومتاعبها . ولاشك أن حياتهم كانت قلقة غير آمنة طالما عاش سواجات ، فقد كان رجلا قاسياً أنانياً ، قتل إدريس بن يحيى الثانى الملقب بالقائم بن إدريس الحمودى الأول الملقب بالمتأيد فى سنة ٤٤٤/١٠٥٢—١٠٥٣ ، وإدريس هذا هو المعروف بالثالث وهو تاسع من تلقب بالخلافة من الأدارسة الحموديين وآخرهم[٢]، وكان سواجات حريصاً على أن يعفى آثار هذا البيت حتى يستقيم المُلك له ، وقد انفرد بالأمر فعلا ابتداء من سنة ٤٥٣/١٠٦١ وخلفه ابن له يسمى سواجات أو سقوت أيضاً وتلقب بعز الدولة ، وظل إلى أن قضى عليه المرابطون[٣]. وتحت سلطان هؤلاء فى سبتة ولد الشريف الإدريسى ، فهو على هذا أندلسى مغربى ، ومن هنا كان مكانه

---

(١) ابن خلدون.

(٢) جمع الأستاذ سيكو دى لوثينا أخبار أولئك الحموديين فى رسالة صغيرة عظيمة الفائدة : Luis Seco de Lucena, *Los Hamūdies de Málaga y Algeciras*. Málaga, 1955.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣/٢٥٠

بين أهل الجغرافية فى الأندلس ، وسنرى بعد قليل أنه درس فى الأندلس بعد أن درس فى المغرب ، وأن تكوينه الجغرافى استمرار للتقليد الأندلسى الذى نؤرخ له .

ولا نعلم شيئاً عن الادريسى حتى سنة ٥١٠ /١٠١٦ — ١١١٧ ، فقد كان فى ذلك العام فى آسية الصغرى كما تدل عليه إشارة له فى نزهة المشتاق ، وكانت سنه إذ ذاك — إذا صح أن تاريخ ميلاده سنة ٤٩٣ — سبع عشرة سنة هجرية ، وإننا لنتساءل هنا كيف كان فى آسية الصغرى فى هذه السن الباكرة ؟ إذا كان قد خرج من المغرب الأقصى لطلب العلم أو الحج ، أليس من المنطق أن يكون قد ذهب إلى مصر والحجاز والشام قبل أن يصل إلى آسية الصغرى ؟ أو هل يكون المركب الذى استقله قد أرسى به فى إحدى موانى آسية الصغرى ، فمر بناحية اضنه التى يقول إنه شهدها بنفسه سنة ٤١٠ ومن هناك توجه إلى بقية بلاد المشرق ؟ ، وحتى لو استقام هذا الفرض الأخير ، فإن معناه أنه بارح المغرب الأقصى وسنه ١٥ أو ١٦ سنة هجرية ، ولا يصح تبعاً لهذا أن يكون قد درس دراسة واسعة فى المغرب الأقصى ، ثم خرج إلى المشرق وحده للاستزادة من العلم ، لأن العلم الواسع لا يحصل فى هذه السن الباكرة ، ولا يعقل خروج شاب صغير مثله إلى المشرق إلا إذا كان ذلك فى صحبة أبيه أو نفر من آله كما حدث للعذرى ، ونحن هنا أمام أحد أمرين : اما أن نقبل فرضاً كهذا أو نشك أصلا فى تاريخ مولده كما ذكره ميخائيل الغزيرى ، وربما كان هذا الحل الأخير أقرب إلى المعقول .

ويذهب سيزار دوبلر وعبد الله كنون إلى أن الإدريسى أقام فى رحلته المشرقية هذه سنتين[١] ، أى أن سنه عند العودة كانت دون العشرين ، وهذا

---

(١) César Dubler, *Los Caminos a Compostela en Idrīsī*, al-Andalus, XIV, 1949, fasc. 1, p. 70.

وسنشير إلى هذا البحث هكذا : Dubler, *Compostela*...

عبد الله كنون ، الشريف الإدريسى ، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، رقم ٢٤ ، تطوان ، بدون تاريخ ، ص ١١

أيضاً رأى ضعيف ، فان الإدريسى قال عند عودته من المشرق أبياتاً من الشعر تجعلنا نستبعد عودته فى هذه السن :

إن عَيْباً على المشارق أن أر ... جع عنها إلى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب ... بعدما جاء فكره بالغرائب
ويقاسى الظما خلال أناس ... قسموا بينهم هدايا السحائب

فهذه شكوى لا تصدر عن شاب دون العشرين بعد سنتين قضاها فى المشرق ، فماذا كان يريد أن يبلغ وهو بعدُ دون العشرين ؟ وأى غرائب هذه التى جاد بها ذهنه ولم يقدرها الناس ؟ هذه شكوى لا تصدر إلا عن رجل أقام فى المشرق فأطال الإقامة ، ودرس وحصل الكثير وجاء ذهنه بالغرائب ثم لم يجد من الناس تقديراً ، ولهذا كله فاننا مضطرون إلى القول — تمشياً مع المنطق — إن إقامته فى المشرق طالت أكثر من هاتين السنتين ، وإنه عندما أخذ طريقه إلى المغرب يائساً من إدراك شىء فى المشرق كان فوق سن العشرين بكثير ، ربما كان يقارب الثلاثين ، وهذا هو المعقول بالنسبة للنضج الذى سنراه عليه بعد قليل .

ثم إن الإدريسى لم يطلب فى المشرق تلك العلوم التى كانت تفتح لأصحابها الأبواب كالفقه والحديث واللغة ، وإنما هو كان يطلب الحساب والهندسة والجغرافية والفلك ، فتلك هى العلوم التى « جاء فكره بالغرائب » فيها حقاً كما يتجلى من مؤلفاته ، وهذه « الغرائب » لم تكن تبهر الناس أو تمهد لهم طريقاً ، إنما كانت هوايات ، ولا شك أن الإدريسى كان يعرف ذلك ، ومن ثم فإن شكواه غير مفهومة ، اللهم إلا إذا كانت من النوع التقليدى الذى تعود أهل المغرب فى تلك العصور أن يقولوه بعد إقامة يسيرة فى المشرق ، ونجد أمثلة من ذلك عند ابن سعيد المغربى والمقرى ، بل إن كثيراً من الأندلسيين

والمغاربة الذين وجدوا المكانة وسعة العيش فى المشرق قالوا مثل هذا الشعر على سبيل التقليد كما نجد عند أثير الدين أبى حيان الغرناطى .

وليس من الواضح إن كان الإدريسى قد عاد من المشرق إلى وطنه سبتة أو ذهب إلى صقلية رأساً ، وربما كان افتراض عودته إلى العدوة أقرب إلى المعقول لأن ذلك يفسح المجال لامكان سياحته بالمغرب الأقصى وإلمامه بأحواله ومعرفته جهاته من ناحية ثم زيارته للأندلس وإقامته فى قرطبة وتجوله فى بعض نواحى شبه الجزيرة ، والأمران حقيقتان تدل عليهما اشارات كثيرة فى جغرافيته ، ولا يمكن أن نفترض تجوله فى المغرب وزيارته للأندلس قبل ذهابه إلى المشرق ، فإن ملاحظاته واشاراته التى ذكرناها ليست لشاب دون السابعة عشرة ، بل هى لرجل ناضج جيد التكوين واسع العلم بعيد الملاحظة ، وهنا أي بعد عودته من المشرق يمكن القول إنه درس فى قرطبة ، فقد كانت أحوالها قد استقرت وعاد إليها شىء من رونقها فى ظل المرابطين ، وإلى هذه الاقامة يمكن أن نُرجح ما نلاحظه فى كتابه من ميل للمرابطين وامتداحه إياهم كلما أتيحت له فرصة ذلك ، وإليها أيضاً يمكن أن ننسب نفوره من الموحدين وحملته عليهم ، فإن الرجل بعد أن أقام فى الأندلس ولمس اجتهاد المرابطين فى الدفاع عن الدين وحماية الأندلس الإسلامي كره أولئك الذين قاموا عليهم وحاربوهم وقضوا على سلطانهم . هذا بالإضافة إلى أن المرابطين هم الذين قضوا على سلطان سواجات فى سبتة وأراحوا آل إدريس منهم ، فى حين أن محمد بن تومرت مهدى الموحدين زعم لنفسة نسباً إدريسياً[1] وهو أمر ينكره الأدارسة ولا يقرونه .

من العدوة ، والأرجح من سبتة ، كما يذهب من ترجموا للادريسى ، استدعاه رجار الثانى ملك صقلية ليؤلف له كتابا فى الجغرافية ، وتلك هى الحلقة غير

---

(١) كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب ، نشر قطعاً منه ليفى بروفنسال فى نفس المجلد الذى يضم أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق ، باريس ١٩٢٨ ، ص ٢٦

الواضحة حقاً فى حياة الإدريسى ، إذ كيف علم الملك النورمندى أن هناك فى العُدْوَة رجلا يسمى الإدريسى ماهراً فى الجغرافية قادراً على تأليف كتاب جامع شامل فيها ؟ إلى ذلك الوقت لم يكن الإدريسى معروفاً بالجغرافية ، ولم يكن قد كتب فيها كتابا حتى يمكن القول بأن رجار اطلع عليه فاستدعاه ، وليس فى مقدمة « نزهة المشتاق » ما يفهم منه أنه كتب إلى رجار يعرض عليه تأليف كتاب فى الجغرافية له ، فكيف يمكن تفسير هذا الاستدعاء ؟ إن الإدريسى رجل صريح ، ولو أنه كان قد طلب إلى رجار أن يعمل له كتابا فى الجغرافية لقال ذلك ، وخاصة والكتاب كله مهدى إليه . لابد أن يكون هناك طريق ما مهد للاتصال بين الرجلين ، فعرف رجار أن الإدريسى جغرافى متضلع ، وأنه قادر على أن يؤلف له الكتاب الذى كان يحلم به ، فبعث يستدعيه .

وهناك نقطة أخرى تزيد المسألة تعقيداً ، فإنه يستنتج من كلام الإدريسى أنه بدأ تأليف كتابه سنة ٥٣٣/١١٣٨—١١٣٩ ، فإذا افترضنا أنه وفد على صقلية قبل هذه السنة بقليل ، سنة ٥٣٠/١١٣٥—١١٣٦ مثلا ، وجدنا أن تلك السنة وما بعدها إلى سنة ٥٤٠/١١٤٦ توافق السنوات التى اشتدت فيها حملات رجار الثانى على افريقية وطرابلس ، وفى ٥٣٠/١١٣٥ بالذات استولى على جزيرة جِرْبه ، وفى مثل ذلك الجو المشحون بالعداوة بين الملك النصرانى والمسلمين يستبعد أن يكون الإدريسى قد رغب فى خدمته أو سعى إليه ، ويستبعد أيضاً أن يستدعى رجار الثانى عالماً مسلماً ، كان فى نظره من أبناء الملوك ، ليؤلف له كتابا فى الجغرافية ، وربما كان هذا حافزاً لنا على القول بأن الإدريسى وفد على الجزيرة قبل ذلك ، وأن وفود الإدريسى على رجار للعمل معه كان أمراً متفقاً عليه من قبل ، فى أيام لم تكن العداوة قد بلغت فيها هذا المبلغ بين رجار الثانى والمسلمين .

وهناك رأى ذهب إليه تَادُوْيْتس ليفيكى[١] يبدو معقولا ومقبولا لأول وهلة ، ولكنه لا يثبت للمناقشة طويلا . وخلاصة رأيه أن اهتمام رجار الثانى (١١١٢/٥٠٦—١١٥٢/٥٤٤—٥٤٣) باستدعاء الإدريسى لم يكن سببه علمه بالجغرافية ، وإنما بشخصه كرجل من بيت الأدارسة يمكن أن يكون مطالباً بعرش أو منافساً فيه ، أى الانتفاع به فى تحقيق مآربه فى غزو الأندلس والسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط . ويعلل ليفيكى ذلك بأن مكانة الإدريسي كجغرافى لم تكن قد تقررت بعد ، بل إن أمره لم يكن قد اشتهر كرحالة[٢] .

ويعلل ليفيكى رأيه هذا بما يحكيه الصفدى من أن الإدريسى عندما وفد على صقلية لم يكن ينوى الاقامة الطويلة فيها ، ولكن رجار رغّبه فى ذلك وقال له : «أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين عَمِل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنتَ على نفسك[٣]»

والأساس التاريخى الذى يقوم عليه هذا الرأى ضعيف ، فإن رجار الثانى لم يكن يفكر فى غزو الأندلس أو سيادة حوض البحر الأبيض ، إنما كان هدفه الأقصى توطيد مركزه فى صقلية ، لأن دولة النورمان فى صقلية كانت فرعا من دولتهم التى أنشأها روبرت جِسْكارد فى جنوبى إيطاليا ، ولم يكن لهذه الدولة من سند إلا أذن البابوية لأصحابها فى الاستيلاء على جنوبى إيطاليا

---

(١) Todeusz Lewicki, *Polska i Kraje Sasiedmie w Swietle «Ksiegi Rogera», geografa arabeskiego* 2. XII w. al-Idrīsī 'ego. Czesc I, Krakow 1945, Czesc. II, Warsawa, 1945.
وقد نشر ليفيكى فى هذين المجلدين نص جغرافية الادريسى لبولندا والأراضى المجاورة لها وترجمتها إلى البولونية مع تعليقات ضافية . وقد استعنت فى قراءة مقدمة الكتاب وتعليقات المؤلف على الترجمة بزميل بولونى .

(٢) ليفيكى ، ج ١ ص ١١ . وقد أيد هذا الرأى مقبول أحمد العالم الهندى ، انظر :
S. Maqbūl Aḥmad, *India and the neighbouring tenitories in the Kitāb Nuzhat al-Mushtāk fi 'Khtirāq al-Āfāq* (Leiden, Brill, 1961) p. 3.

(٣) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، نشر التراجم الخاصة بصقلية ميكيلى أمارى فى المكتبة الصقلية ، لايبسك ١٨٥٧ ، ص ٦٥٨

(أبُولْيَا وكَلاَبْرْيا) وانتزاعه من أيدى البيزنطيين وإقامة دولة كاثوليكية فيه ، ولم تعترف الدولة البيزنطية باغتصابهم لهذا الجزء من أراضيها وظلت تعاديهم وتعمل على القضاء عليهم ، بل لم يعترف بهم أباطرة الهوهنشتاوفن الألمـان ، وكانوا يدعون السيادة على ايطاليا كلها ، ولهذا ظلت دولتهم فى جنوبى ايطاليا قلقة مهددة بعواصف الحروب ، حتى قضى عليها هنرى السـادس امبراطور الهوهنشتاوفن سنة ١١٩٤ (٥٩٠ هـ.) وقضى تبعاً لذلك على دولتهم فى صقلية وتُوج ملكا على هذه الجزيرة فى بلرم فى نفس السنة . ولما كانت دولتهم فى صقلية امتداداً لدولتهم في جنوبي ايطاليا، إذ أن البابوية كانت قد أذنت كذلك لروبرت جسكارد في غزوها وانتزاعها من أيدي العرب فندب روبرت أخاه روجَر للقيام بذلك وبدأ الغزو في سنة ١٠٦٠ (٤٥٢) وتم له الاستيلاء على الجزيرة سنة ١٠٩١ (٤٨٣) ، واعلن نفسه ملكا على صقلية عقب ذلك بعد أن منح العرب ضمانات وعهوداً . وبعد أن توفى روجر الأول سنة ١١٠١ (٤٩٥ هـ.) خلفه ابنه سيمون ثم ابنه الثانى روجر الثانى الذى عرفه العرب باسم رُجَار أو لجُار تحت وصاية أمه أدِيلِيد ، ثم بلغ سن الرشد وحكم بنفسه سنة ١١١٢ (٥٠٦) ، ثم تمكن من أن يضم جنوب ايطاليا إلى ملكه ويصبح ملكا على دولة النورمان كلها فى إيطاليا وصقلية فى سنة ١١٣٠ (٥٢٦ هـ.) وهنا انتهت اطماعه السياسية ، واقتصر همّه كله على الحفاظ على مابيده وتأمينه .

أما حروبه مع بنى زيرى أصحاب إفريقية (تونس) فقد كان هدفه منها تأمين دولته لا إضافة شىء من بلاد المسلمين إليها ، ولم يقصد له بنو زيرى أصحاب إفريقية ولا قاوموه ، لأن صقلية لم تكن جزءً من ولايتهم على إفريقية ، فإن التفكير السياسى الماكر الذى جرى عليه الفـاطميون جعلهم يفصلون بين صقلية والقاعدة الاسلامية الوحيدة التى كان يمكن الدفاع عنها منها ، وهى إفريقية ، فكانت صقلية ولاية منفصلة تابعة للخليفة الفاطمى فى مصر وكذلك كانت طرابلس واجدابيه وصرت وما إليها ، والفاطميون هم الذين ولوا على

صقلية حسن بن على بن أبى الحسين الكلابى ، وكان الفاطميون عاجزين عن تأييده ، ولهذا فقد اضطرب الأمر عليه وساءت أحوال صقلية ، وعندما أخذ النورمان فى غزوها لم يحرك بنو زيرى ساكناً إلا بعد فوات الفرصة ، وكان همهم بعد ذلك أن يعيشوا فى سلام إلى جانب هذا الخطر الجديد ، وكل ما فعله الفاطميون للدفاع عن الجزيرة مكاتبات تعبر عن الاستنكار ، كهذه المراسلة التى جرت بين المعز الفاطمى ورجار الثانى عقب استيلاء هذا الأخير على جربة سنة ١١٣٤—١١٣٥ (٥٢٩—٥٣٠ هـ.) ؛ وتأميناً لصقلية من الفاطميين استولى رجار على مدينة طرابلس سنة ١١٤٦ (٥٤٠ هـ.) والمهدية سنة ١١٤٨ (٥٤٣—٥٤٤) ، ولكنه لم يغز إفريقية ولم يضم إقليم طرابلس إلى ملكه ، إنما احتفظ بهذه المواقع ، وأقام فيها الحاميات لمجرد تأمين صقلية[1] ، وقد أزال الموحدون هذه المواقع كلها واستردوها لدولة الإسلام سنة ١١٦١ (٥٥٥ هـ.) وفى اثناء ذلك كله كان رجار مشغولا بصراع البيزنطيين والألمان ، ثم مع البابوية ، وقد مُنِىَ فى كل من هذه الميادين بخسائر وهزائم كثيرة .

ودولة هذه ظروفها لا يمكن القول بأن صاحبها كان يرمى بنظره إلى الأندلس ويمنى نفسه بغزوه أو أنه كان يسعى إلى السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولكن رأى ليفيكى يوحى بفكرة أخرى قد تكون أقرب إلى المنطق ، فإن الدولة التى أقامها النورمان فى صقلية لم تكن نورمانية إلا بالاسم والرياسة ، أما العناصر التى قامت عليها فقد كانت غير نورمانية فى الغالب ، وفى صقلية بالذات كانت تلك العناصر بيزنطية عربية ، وقد حلل مؤرخون مثل شالاندون وفرديناند لوت و س. هـ. هاسكنجز طبيعة هذه الدولة تحليلا دقيقاً لا بأس

---

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٧
وقد أوجز ابن الأثير فى الصفحات التالية الظروف التى استولى النورمان خلالها على صقلية .

من إيراد خلاصته هنا لأنه يلقى ضوءً كاشفاً على طبيعة علاقاتهم بعرب صقلية وجنوب إيطاليا ، ويوقفنا بالتالى على نوع الصلة التى قامت بين رجار الثانى والجغرافى العربى الأكبر .

وخلاصة آراء أولئك الباحثين أن روح المغامرة التى أتت بالنورمان إلى شمال غرب فرنسا هى التى فرّقتهم بعد ذلك من هذه الناحية التى سميت بعد ذلك باسم نورماندیا (نورماندى) إلى كل مكان ، وأن خير من صور خلقهم هو معاصرهم جُوذْفْرُوَا مالاتيرا ، وهو يصورهم لنا كشعب ميزته الأولى هي المكر وإهمال ما ورثوه عن أجدادهم طمعاً فى الحصول على ما هو أعظم منه ، ويقول : كانوا دائماً فى شوق إلى الكسب والسيادة ، ودأبهم تقليد غيرهم فى كل شىء ، وقد جمعوا فى خلقهم صفتين متناقضتين : السخاء والجشع ، واستطاعوا أن يوفّقوا بين هذين المتناقضين فى مهارة كبيرة . وكانوا إلى جانب ذلك شعباً ماهراً فى التملق مغرمين بدراسة البلاغة ، حتى أن صبيانهم كانوا خطباء ، وكانوا لا يضبطهم ضابط إذا تُركوا على حريتهم ، أما إذا أمسكتهم يد حازمة أذعنوا بالطاعة للقانون ، وهم بسبب ولعهم بالتقاليد لم يبتكروا شيئاً ، وقد أدى بهم هذا إلى اصطناع الرجال وكسب الصداقات واستخدام المبرزين فى كل علم وفن ، ومن الغريب أن شعباً جمع هذه الصفات كلها وأدى للناس خدمات كبرى بسبب الولع باصطناع ذوى الملكات ، قد زال من قيد الوجود كشعب ، ولم تبق منه بقية خالصة فى مكانٍ مّا ، ولقد اتخذ النورمان اللغة الفرنسية فى فرنسا وبذلوا جهداً كبيراً فى نشرها خارج فرنسا (يريد فى انجلترا) ، وقبسوا من نورماندیا أصول طراز خاص من العمارة واجتهدوا فى النهوض به وتنميته حتى أصبح طرازاً معماريا معروفاً بخصائصه فى تاريخ ذلك الفن يعرف بفن العمارة النورمانية . وفيما يتصل بالنورمان فى صقلية يقرر أولئك المؤرخون أنهم كانوا أمراء على بلد غريب عنهم ، وأنهم كانوا غرباء عن كل عناصر السكان فيه ، فقد

وجدوا فى الجزيرة شعباً مسيحياً يتكلم اليونانية وآخر مسلماً يتكلم العربية ، وكانت العلاقات بين الشعبين تختلف من مكان لمكان فى الجزيرة ، ولكن السيادة كانت للمسلمين بوجه عام ، وكان أولئك المسلمون طوائف شتى ما بين عرب أصلاء ومغاربة استعربوا وصقليين أسلموا ، وإذا كان العرب الأصلاء أقلية فى جماعة المسلمين فى صقلية ، فكذلك كان النورمان الأصلاء أقلية فى الجماعة التى قادوها إلى الغزوات واستولوا بسواعدها على البلاد ، فقد كان النورمان الأصلاء فى ذلك الحشد قليلين جداً ، وكان معظم كبار قادتهم وأمراء بحرهم إيطاليين أو فرنسيين أو ألمان ، وعندما استقروا فى صقلية لم يميزوا لهذا بين مسيحىّ ومسلم من رعاياهم الجدد ، فاعتمدوا على النابهين من الجانبين ، فكان الكثير من نصحائهم وأهل بلاطهم وقادتهم وأمراء بحرهم يونان ومسلمين ، ولم يكن للدين سلطان كبير على نفوسهم ، وإذا كانوا قد حاربوا المسلمين فى المغرب فإن دافعهم إلى ذلك لم يكن الدين ، بل المحافظة على الملك ، وعندما شاركوا فى الصليبيات كان المكر والحرص والطمع دوافعهم الأولى ، ثم يأتى الدين بعد ذلك ، ولهذا فقد عاش معهم الناس فى صقلية فى مأمن من عصبيات الدين ، وأصبح الملك النرمانى قاعدة التوازن بين المسيحية والإسلام فى الجزيرة ، وقد خف عصب الدين عند النرمان أكثر وأكثر بعد أن اختلف رجار الثانى مع البابوية ووقع العداء بينه وبينها . وقد خسر المسلمون سيادتهم على الجزيرة بعد الغزو النرمانى ، ولكنهم لم يخسروا الأرض والأموال والعقار ، ولم يَصدُر عن الملك شىء يضير حريتهم الدينية ، فدخلوا فى خدمة النظام الجديد دون مضاضة . وفى عالَم القرن الثانى عشر المسيحى كانت صقلية شيئاً فريداً فى بابه وملجأ آمناً لمن أرادوا العيش بعيداً عن عصبيات الدين التى عمت القرن كله . وما وقع من اضطهاد للمسلمين فى بعض نواحى صقلية كان سببه رجال الدين من النصارى الذين اجتهدوا فى نقل الروح الصليبية إلى أرض لم تشأ أن تعرفها ،

وسببه كذلك خوف النورمان من المسلمين من أهل الشمال الإفريقى الذين لم ينسوا ضياع صقلية من أيديهم طوال القرن[١] .

هذه اللمحات عن النورمان تعيننا على فهم طبيعة العلاقة بين الملك النورمانى والجغرافى العربى الذى دخل فى خدمته ، وتضع هذه الخدمة فى إطارها الصحيح ، وتفهمنا كيف استجاز الإدريسى — وهو شريف علوى — أن يعمل فى بلاط صقلية ، فقد قصد باباً مفتحاً على مصراعيه لأمثاله من النابهين ، وكان إلى جانبه مسلمون كثيرون يعملون فى البلاط النورمانى ويشاركون فى شئون القيادة والإدارة ، وكانت الجزيرة عامرة بالمسلمين ومعالم الإسلام ، وكان شعور الإدريسى أنه عالم يُهدى العلم إلى من يقدره . وربما كانت علوية الإدريسى وشرف محتده من أسباب إقبال رجار عليه ، فإن وجود ذلك الشريف العلامة إلى جانبه يُعلى جاهه بين رعاياه من المسلمين ويؤيد سلطانه فى نظرهم ، ولاشك فى أن رجار استفاد سياسياً من ثناء الإدريسى عليه فى مقدمة كتابه ووصفه إياه « بالملك المعظم المعتز بالله المقتدر بقدرته » وليس بغريب أن يتناقل الناس شائعة إسلام رجار سراً[٢] ، فإن المسلم الصقلى الذى يقرأ هذا عن لسان رجل مثل الإدريسى لا يخطر بباله إلا أن الموصوف ملك مسلم ، وقد اجتهد رجار فى دفع هذا الظن عن نفسه خوفاً من تذمر رعاياه المسيحيين ، فأقبل على بناء الكنائس وشجع تنصر المسلمين واليهود فى أواخر أيامه ، بل قتل قائده على

---

(١) انظر عن النورمان فى صقلية :

E. A. Freeman, *History of Sicily*, London, 1891-1894.

A. F. von Schack, *Geschichte der Normannen in Sâcilien*, Stuttgart, 1889.

F. Chalendon, *La domination normande en Italie, et Sicile*, 1009-1094, Paris 1907.

C. H. Haskins, *The Normans in European History*, Boston- New York, 1915.

ويضاف إلى هذه المراجع كتاب ميكيلى أمارى « تاريخ المسلمين فى صقلية » فهو العمدة فى ذلك الباب ، وسنشير إليه أكثر من مرة فيما يلى من البحث . وليس لدينا فى العربية إلا كتاب الدكتور إحسان عباس : « العرب فى صقلية » ، القاهرة سنة ١٩٥٩ وهو كتاب جيد أفدنا منه كثيراً .

(٢) راجع إشارة ابن الأثير إلى ذلك ، ص ٢٨٨ فى المكتبة الصقلية .

البحر فيليب الملقب بالمهدوى ، لأنه عندما استولى على بونه ترك نفراً من عُبّاد المسلمين وصالحيهم يخرجون من المدينة بأهلهم دون أذى[١] .

بقيت مسألة الطريق التى وصل بها الإدريسى إلى رجار الثانى ونوع الصلة التى قامت بينهما ، وقد استبعدنا فيما سبق أن يكون الادريسى سعى بنفسه إلى الدخول فى خدمة رجار ، أو أن يكون هذا قد سمع بعلمه بالجغرافية فاستدعاه ، ولم يبق إلا أن نبحث عن سبيل أخرى لهذا الاتصال ، وليس أمامنا ، ونحن لا نملك شيئاً ثابتاً ، إلا أن نستخرج مما لدينا ما عساه أن يحل لنا هذه المشكلة .

أدارسة صقليـــة

ولا بد على أى حال أن رجار عرف من أمر الإدريسى شيئاً قبل أن يدعوه للعمل معه ، ووسيلة هذه المعرفة لا يمكن أن تكون كتابا فى الجغرافية كتبه الشريف ووصل إلى يد رجار ، فوقف منه على مكانه من العلم ، وقد تبادر إلى ذهنى أن يكون الإدريسى قد كتب كتابه المختصر فى الجغرافية «أنس المهج وروض الفرج»[٢] قبل أن يكتب كتابه الكبير ، ولكنى تبينت بعد دراسة نص هذا الكتاب أن ذلك الفرض مستبعد ، فالكتاب موجز لنزهة المشتاق ، والاشارات إلى هذا الأخير فيه كثيرة ؛ ولكن من الممكن أن يكون كتاب الإدريسى فى النبات والأعشاب[٢] سابقاً على كتبه فى الجغرافية ، ومن الممكن أن يكون هذا هو الذى وصل إلى رجار ونبهه إلى مكان الإدريسى من العلم ، ولا يمكن على أى حال القطع بهذا ، لأن أصل ذلك الكتاب فقيد ، وما لدينا منه نُقولٌ يصعب معها تحديد تاريخ تأليفه ولو على وجه التقريب .

---

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٩٩

(٢) سنتحدث عن هذا الكتاب فيما بعد .

لم يبق إذن إلا أن نفترض أن يكون رجار قد عرف الشريف الإدريسى معرفة شخصية قبل أن يدعوه إلى العمل معه . وهذا الرأى يبدو مستبعداً أول وهلة ، ولكننا إذا درسنا تاريخ المسلمين فى صقلية خلال العصر الذى عاش الادريسى فيه رأينا شعاعاً من الضوء يمكن أن ينير لنا جوانب هذه المشكلة بعض الشىء ، بل يضع يدنا على حقيقة هامة جديرة بعناية المهتمين بدراسات صقلية الاسلامية ، وهى وجود بيت إدريسى حمودى فيها ، كان له سلطان كبير ودور واسع فى تاريخها من النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى إلى أواخر القرن السادس .

وأول ما نسمع بهذا البيت فى أخبار غزو النورمان لصقلية ، فعندما وصل هذا الغزو إلى وسط الجزيرة وبدأ الصراع حول جرجنت Girgente وقَصْرِيَانه Castrogiovanni وما حولهما من الأراضى كان صاحب الأمر هناك الذى تولى أمر الدفاع رجلا يسمى أبا القاسم بن حمود ، وكان ذلك سنة ١٠٨٦/٤٧٩ .

ومن أسف أن مؤرخينا لم يذكروا شيئاً عن الدور الذى قام به بنو حمود هؤلاء فى الدفاع عن ناحيتهم ، ولكن ابن الأثير يذكر أن المسلمين قاوموا مقاومة عنيفة فى الموضعين ، قال : «ولم يبق للفرنج ممانع ، فاستولوا على الجزيرة ، ولم يثبت بين أيديهم غير قصريانة وجِرْجِنت ، فحصرها الفرنج ، وضيقوا على المسلمين بهما ، فضاق الأمر على أهلهما حتى أكلوا الميتة ، ولم يبق عندهم ما يأكلونه ، فأما أهل جرجنت فسلموها إلى الفرنج ، وبقيت قصريانة بعدها ثلاث سنين ، فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم ، فتسلمها الفرنج لعنهم الله سنة ٤٨٤ . . .»[1] ، ولم يذكر ابن الأثير شيئاً عن قائد هذه المقاومة فى تلك الناحية ، ولكن جودفروا مالاتيرّا مؤرخ الغزو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، الأجزاء الخاصة بصقلية ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٨

النورمانى لصقلية[١] ذكر أن اسمه Chamut ، وقد رده ميكيلى أمارى إلى أصله وهو حمود[٢] ، والمراد به أبو القاسم بن حمود من سلائل بنى حمود الأدارسة ، واسم هذا البيت مذكور فى تاريخ صقلية من ذلك الحين وبعده مدة قرن من الزمان على الأقل ، وقد ورد فى النصوص اللاتينية تحت هذه الصورة وصور أخرى مقاربة : Hamus أو Hamutus

وقد ذكر أمارى أن منشىء هذا البيت الحمودى الصقلى لابد قد بارح وطنه فى المغرب أو الأندلس بعد ضيـاع أمر بنى حمود فى منتصف القرن الخامس الهجرى كما ذكر ابن حزم . وليس هناك ما يمنع قبول هذا الرأى ، ففى ذلك الحين كان المرابطون قد ثبتوا أقدامهم فى جنوب المغرب الأقصى وتطلعوا للامتداد شمالا ، ففى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ تمت بيعة أبى بكر بن عمر اللمتونى على جنوبى المغرب الأقصى حتى وادى دِرْعة ، وفى سنة ١٠٦٩/٤٦٢ — ١٠٧٠ كانوا قد تمكنوا من الأراضى الممتدة شمالا إلى مجرى نهر تانسفت ، وضاقت بهم أغمات وَريكة ، فبدئ فى بناء مراكش فى رجب من تلك السنة ، وفى أواخر سنة ١٠٧٠/٤٦٢ تقدم يوسف بن تاشفين ابن عم الأمير أبى بكر بن عمر شمالا حتى وصل وادى ملوية ، وفى ربيع الأول سنة ٤٥٦/ فبراير ١٠٦٣ تنازل أبو بكر بن عمر عن الإمارة ليوسف بن تاشفين ، وانفرد هذا بالملك ، وبدأ التوسع السريع إلى الشمال ، فاستولى المرابطون على فاس سنة ١٠٧٤/٤٦٧ ، وفى السنة التالية استولوا على تلمسان ، ودخل شمال المغرب الأقصى كله فى حكم المرابطين[٣]

---

(١) G. Molaterra, *La Conquista de Sicilia,* Collezione d'Opere inedite o Rare, Bologna 1865; lib. IV, cap. 5.

(٢) Amari, *Musulmani di Sicilia,* III, 175.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث الخاص بالمرابطين والموحدين ، قطعة منه نشرها أمبروزيو أويثى ميراندا فى مجلة *Hespéris Tamuda,* II, 1961 fasc. 1. ص ٤٦ وما يليها .

وفى هذه الظروف لم يعد للباقين من بنى إدريس أمل فى السلطان ، فانزوى من استطاع الانزواء منهم فى ناحيته ، وفر مَن فرّ . ولاشك أن أبا القاسم بن حمود هذا انتقل إلى صقلية فى هذه الفترة مع نفر من أبنـاء أولئك الأدارسة ، وسنرى فيما بعد أن أباه كان يسمى علياً ، وقد بحثت فى الشجرة الإدريسية عمن يسمى علياً فى هذه الفترة ، فلم أجد إلا اثنين : على ابن إدريس المتأيد بن على الناصر ، وعلى بن محمد حفيد إدريس المتأيد ، ومن الراجح أن أبا القاسم بن حمود الصقلى ابنٌ لأحد هذين ، ونستطيع القول إنه وصل إلى رياسة ناحية جرجنت وقصريانة بعد سنة ٤٦١/١٠٦٨ بقليل ، فقد ذكر ابن الأثير أنهما كانتا من سنة ٤٢٧/١٠٣٥—١٠٣٦ فى طاعة القائد على بن نِعمة المعروف بابن الحوّاس ، وأن ابن الحواس هذا قُتل سنة ٤٥٣/ ١٠٦١—١٠٦٢ أو بعدها بقليل ، وحاول أيوب بن تميم بن المعز الزيرى أن يسيطر على الناحية فلم يستطع ، فترك صقلية هو وأخوه علىّ سنة ٤٦١/١٠٦٨ « وصحبهم جماعة من أعيان صقلية والأسطولية ، ولم يبق للفرنج ممانع . . . »[١] فلا بد أن أبا القاسم بن على بن حمود تولى قيادة هذه الناحية ورياستها فى ذلك الحين ، أى قبل أن يزحف الغزو النورمانى إليها بقرابة ١٨ سنة . ولابد أنه هو الذى قاد الدفاع عن جرجنت وقصريانة على النحو الذى رويناه عن ابن الاثير .

وتذهب المراجع اللاتينية والنورمانية التى رجع إليها أماري في تتبع أخبار استيلاء النورمان على صقلية، إلى أن أبا القاسم بن حمود هذا بعد أن أسلم قصريانة إلى رجار الأول اعتنق النصرانية مع أهله أجمعين وخاف على نفسه بعد ذلك من مسلمى البلد، فطلب إلى رجار أن ينقله إلى بلد من بلاده في شبه الجزيرة الإيطالية ، فنقله إلى بلدة ميلاطو Mileto فى بولية Apulia وهنـاك

---

(١) ابن الأثير المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٩

ظل حتى مات[١] وهذا قول ظاهر الاختلاق ، فإن بنى القاسم بن حمود ظلوا بعد ذلك أصحاب جرجنت وقصريانة تحت سلطان النورمان ، وكان لهم دور كبير فى شئون الجزيرة إلى أكثر من قرن من الزمان بعد ذلك ، ثم إن ابن جبير الرحالة لقى رئيساً من رؤساء هذا البيت بعد ذلك بقرن من الزمان ، فى ذى قعدة سنة ٥٨٠/مارس ١١٨٥ ووصفه بالجلالة واتساع الجاه ، ثم قال : « ومن عِظَم هذا الرجل الحمودى المذكور فى نفوس النصارى ، أبادهم الله ، أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله ، اتباعاً له واقتداء به ، تكفل الله بعصمته جميعهم ، ونجاهم مما هم فيه بفضله وكرمه . . . »[٢] فكيف يقال بعد هذا أن جده قد تنصر هو وأهله جميعاً من مائة سنة ؟

وقد تتبعنا تاريخ أولئك الحموديين الأدارسة الصقليين فى بحث آخر ، وخلاصة ما قلناه هناك أن أبا القاسم بن على بن حمود هذا عاش فى أمان مع رجار الأول ، فقد تركه هذا على ضياعه وأحواله وقيادته لجرجنت وقصريانة ، ويبدو أنه توفى أواخر حكم رجار الأول أو بعده بقليل ، فقد توفى رجار سنة ٤٩٥/١١٠١ وخلفه ابنه سيمون لفترة قصيرة ، ثم مات سيمون سنة ٤٩٩/١١٠٥ وتولت الأمر الملكة أديليد Adelaide وصية على أخيه الأصغر رجار ، وفى سنة ٥٠٦/١١١٢ بلغ هذا سن الرشد وتولى العرش باسم رجار الثانى ، وهو صاحب الإدريسى ، وقد حكم ٤٠ سنة إذ توفى سنة ٥٤٧—٥٤٨/١١٤٨ . وفى هذه الفترة ظهر أمر فقيه صقلية الأكبر محمد بن أبى محمد بن ظفر (٤٩٧—٥٦٧/ ١١٠٤—١١٧١) ، وقد نشأ فى ظل أبى القاسم بن على بن حمود ثم ابنه أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم بن على بن حمود ، وإلى هذا الأخير أهدى

---

(١) Amari, *Musulmani di Sicilia*, III, 175-176.

(٢) رحلة ابن جبير ، بتحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٣٣

طائفة من أحسن كتبه مثل «أساليب الغاية فى أحكام الآية» و «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» ، وكان تأليفه لهذا الكتاب الأخير سنة ٥٥٤/١١٥٩ ، ولابد أنه ألَّفَ له الكتب الأخرى قبل ذلك بسنوات ، ومن المظنون أن كتاب «أساليب الغاية» أُلِّف سنة ٥٣٩/١١٤٤—١١٤٥ ، وكان أبو عبد الله محمد ابن أبى القاسم بن حمود إذ ذاك من كبار رجال الدولة النرمانية ومدبِّرى الأمر فيها ، فلابد أن يكون قد خلف أباه ومكَّن لنفسه الأمر قبل ذلك التاريخ . وكان أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم هذا رجلا كريماً ممدّحا ، يفد عليه الشعراء من المشرق والمغرب ويمدحونه ويصلهم بالصلات السنية ، ويُقَدِّمهم إلى رجار الثانى فيمدحونه ، ومثال ذلك عبد الرحمن بن رمضان الشاعر المعروف بالقاضى ، وعبد الرحمن بن محمد بن عمر البُنَيْرِى الصقلى ، وأبو حفص عمر ابن حسن النحوى الصقلى وغيرهم ممن أورد عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد الأصفهانى أطرافاً من أشعارهم فى الخريدة ، بل بلغ من كثرة شعرهم أن العماد سئم ذكر بقيتهم وقال : «واقتصرت منها على هذه النغبة مع الظمأ إليها ، فما أوثر إثبات مديح الكفر ، عجل الله بهم إلى ألَفَح ناره المسعرة»[1].

وهذه السنوات التى نتحدث عنها هى التى ذهب الشريف الإدريسى فيها إلى المشرق وعاد إلى المغرب والأندلس ، فهل نستبعد أن يكون قد سمع بذكر هؤلاء الحموديين الذين انتشر ذكرهم فى المشرق وخف الشعراء إليهم ليمدحوهم ويلتمسوا نداهم ؟ لقد كانت صقلية محطا فى طريق البحر من المغرب والأندلس إلى المشرق ، وكان كثير من المسلمين ينزلون بها فى رحلتهم ويقضون الأسابيع والشهور ، ومعظم من نزلها من ذوى الشأن منهم قصدوا أولئك الحموديين أو قصدهم هؤلاء للاجتماع بهم ، كما حدث لأبى بكر الهروى والرحالة ابن جبير

---

(١) الخريدة للعماد ، المكتبة الصقلية ، ص ٥٨٨

من بعده ، فهل يمكن أن يكون ذكرهم قد غاب عن الإدريسى ، وهو حمودى مثلهم ، بل منسوب إلى البيت الذى خرجوا منه ؟ ثم إن الإدريسى كان إذ ذاك شابا ذكياً حصل من العلم بالطب والجغرافية شيئاً كثيراً ، ولابد قد بلغه أن رجار صاحب صقلية معنى بهذين العلمين متطلب لأصحابهما ، وقد خرج من المشرق يشكو قلة التقدير فى أبيات مأثورة عنه سبق أن ذكرناها ، ولم تكن الأحوال فى المغرب والأندلس مواتية ولا آمنة كل الأمن لرجل مثله سليل بيت كان له شأن وسلطان ، فأى شىء أقرب إلى المنطق من أن يكون قد عرج على صقلية وعرف أبا عبد الله محمد بن أبى القاسم بن حمود ، ووقف هذا على ما عنده من العلم بالجغرافية والطب ، فقدمه إلى رجار الثانى أو تحدث إليه فى شأنه ، فأعجب به رجار ووجد فيه طلبته ، فسأله أن يقيم عنده ويعمل معه ؟ هنا — أحْسَب — مكان العبارة التى يقول الصفدى إن رجار قالها للادريسى مُرَغِّباً له فى المقام عنده : «أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنتَ بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنتَ على نفسك[1] » فهذه مناسبة الترغيب ، ولا معنى لها إذا كان الإدريسى قد وفد واستقر بالفعل وبدأ يعمل ، وهى فى نفس الوقت تصور حال أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم ابن حمود ، فقد كان هو وآله بالفعل آمنين فى ذلك الركن بعيداً عن منافسات السلطان .

على أساس من هذا الفرض نستطيع أن نفسر ما يلى من أدوار حياة الإدريسى ، فقد عرف الآن أن أمامه فرصة للعمل وتحقيق أحلامه كرجل علم أمله الأقصى أن يستزيد من علمه وأن يجد وسيلة لإثبات ما عنده فى كتب واذاعته فى الناس ، ولهذا فقد مضى إلى المغرب ليستكمل علمه به وليتأهب للاستقرار النهائى فى صقلية ، ومن المغرب ذهب إلى الأندلس ليدرس

---

(١) صلاح الدين بن خليل الصفدى ، الوافى بالوفيات ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

فيه بعض الوقت ويرى ما يمكنه رؤيته من نواحيه بنفسه ، ثم عاد إلى صقلية بعد ذلك ليشرع فى عمله العظيم حوالى سنة ٥٣٣/١١٣٨—١١٣٩ ، حقيقة أن الإدريسى لا يشير إلى شىء من ذلك فى مقدمة كتابه ، ولكننا سنرى أن هذه المقدمة كلها موضع نظر ، ثم إن الادريسى كان رجلا شديد التحفظ ، لا يتكلم إلا بمقدار ، وهذا واضح من كتابه ، وربما يكون هذا من الأسباب التى رغبت رجار فيه وحملته على إكرامه وتقديره .

وإذا نحن قرأنا فقرة « الوافى بالوفيات » التى تتحدث عن الادريسى لاحظنا أنهـا يمكن أن تؤيد هذا الرأى ، وجدير بالملاحظة أن الصفدىّ لم يختص بها الادريسى بل « رَجَّار ملك الفرنج صاحب صقلية » (وهكذا ضبط اسم رُجار) ، فهى تقول إنه هو الذى « استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق من العدوة إليه ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالَم . . . » وبعد أن يفصل كيف صنع الادريسى هذه الصورة يذكر المكافأة العظيمة التى كافأه بهـا ، ثم تأتى العبارة التى قالها رجار للادريسى مرغباً إياه فى المقام عنده (وقد ذكرناها قبلا) ثم يلى ذلك ذكر خبر تأليف الكتاب[1] ، أى أن هناك مرحلتين لعمل الادريسى فى صقلية يفصل بينهما ترغيب رجار له على الاقامة عنده . وهذا النسق يمكن تفسيره كما قلنا على أن الإدريسى عرف رجار أولا وأطلعه على ما يمكن عمله لعمل صورة مجسمة للأرض ، فكان هذا حافزاً له على ترغيبه فى البقاء عنده ، فوافق الادريسى ، وبادر بإكمال رحلته إلى المغرب ، حيث قضى ما كان بسبيله أولا واستكمل ما أراد من دراسة جغرافية المغرب ، ثم ذهب إلى الأندلس للدراسة والمشاهدة ، وعاد بعد ذلك إلى صقلية وبدأ العمل مع رجار .

---

(١) أورد هذه الفقرة أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٧—٦٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الفقرة التى أوردها العماد الأصفهانى فى الخريدة فلا يمكن التعويل عليها ، فقد خلط النسّاخ بين مادتين من موادها ، فوردت هكذا : « محمد بن محمد يعرف بابن الثيرى القرطبى ، معظم ما يذكره ابن بِشْرُون فى المختار من الأندلسيين رواية عنه ، ويذكر أنه لقيه فى مدينة صقلية ، وقد صنف لمتملكها رجار الافرنجى فى مسالك الأرض وممالكها كتابا كبيراً سماه نزهة المشتاق . .[1] » وواضح أن الكلام يدور أولا على أديب راوية أخذ ابن بشرون عنه معظم ما أورده فى كتابه « المختار فى النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » من شعر الصقليين ونثرهم ، ثم يتصل الكلام عن الإدريسى ، والأول قطعاً ليس هو الادريسى ، ومن الغريب أن نفراً كبيراً من الباحثين لم يتنبهوا إلى ذلك ، فذهبوا إلى أن الادريسى كان يلقب أيضاً بابن الثيرى وبالقرطبى ، وليس هذا بصحيح .

أما بقية الإشارات الخاصة بالادريسى ، وهى لا تخرج عن سطور أوردها ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء[2] وابن خلدون فى العبر[3] وحاجى خليفة فى « كشف الظنون[4] » . فلا تكاد تضيف إلى علمنا بحياة الادريسى شيئاً ذا بال ، ويهمنا أن نلاحظ هنا أن ابن أبى أصيبعة لا يذكره باسم الادريسى بل

---

(١) الخريدة للعماد الأصفهانى ، قطعة نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦١٠—٦١١ ، وكل الذين انتفعوا بهذه القطعة اعتمدوا على هذه الصورة التى نشرها بها أمارى ، ويلاحظ أن ترجمة محمد بن محمد المعروف بابن الثيرى ترد فى آخر صفحة تنتهى بعبارة « مدينة صقلية » ثم يبدأ الكلام أول صفحة أخرى : « وقد صنف لمتملكها رجار . . . » ومعنى هذا أن هناك ورقة أو أكثر ساقطة من مخطوط الخريدة الذى اعتمد عليه أمارى . ولم يتنبه أحد إلى ذلك ، وقد راجعت هذه الفقرة فى نسخة الخريدة المصورة عن مخطوطة باريس رقم ١٣٧٥ (ورقة ٢٠) فوجدت فيها نفس الخطأ .

(٢) انظر القطعة التى نشرها من « طبقات الاطباء » نور الدين عبد القادر والحكيم هنرى جاهيه وهى الباب الثالث عشر فى أطباء إفريقية والأندلس . الجزائر سنة ١٩٥٨ ، ص ٥٣ وترجمتها إلى الفرنسية ص ٥٢ والتعليق على ذلك ص ١٦٠ و ١٦١

(٣) فى المكتبة الصقلية ، ص ٤٨٥

(٤) نفس المرجع ، ص ٧٠٦

باسم : أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسنى ، ولا يشير إلى ما كتب فى الجغرافية ، وإنما يذكر كتابه عن الأدوية المفردة .

ولا نعرف كيف انتهت حياة الإدريسى أو أين مات فان آخر خبر ورد فيما ذكرناه من المراجع هو ما يقوله ابن بشرون من أنه لقيه فى بلرم ، وقد سبق أن شككنا فى أن المراد بهذا هو الادريسى بل محمد بن محمد الثيرى القرطبى . ولكن إشارة يسيرة أوردها الحسن بن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقى تقول إن الإدريسى توفى فى صقلية سنة ٥١٦هـ/١١٢٢—١١٢٣ ، وهو تاريخ غير معقول ، لأن الإدريسى ولد سنة ٤٩٣ ، ولهذا فقد صوبه البارون دى سلان[1] إلى ٥٦٠/١١٦٤—١١٦٥ ، لأن الخلط بين ٥١٦ و ٥٦٠ قريب فى العربية وأى لغة لاتينية . وهذا هو التاريخ المعتمد عامة المؤرخين إلى اليوم .

ولكن هناك رأيا آخر فى تاريخ وفاة الجغرافى الكبير لا بأس من عرضه هنا ، فقد ذكر العماد الأصفهانى فى « الخريدة » فى سياق « محاسن جماعة من شعراء المغرب الأدنى والقيروان وافريقية » نقلا عن ابن بشرون أن يحيى بن التيفاشى القفصى « انتقل إلى قابس ، وسكن بها ومدح بنى هلال ، فقتله الأفرنج بصقلية بعد سنة ٥٥٠ بعد فتكهم بالمسلمين[2] » وتناول أمارى هذه العبارة بالتحقيق الدقيق المعهود فيه ، فقال إن استرجاع الموحدين للمهدية كان له وقع شديد على غليالم الأول الذى خلف رجار الثانى على صقلية وأهل بلاطه فقد غضب الملك على نفر من الاشراف واتهمهم بالخداع والغش والتهاون فى الحرب مما أدى إلى استيلاء المسلمين على ذلك المعقل ، وبادر وزيره ماجون بتجريد مسلمى بلرم من كل سلاح خوفاً من انتقاضهم ، ثم وقعت فتنة

---

(١) انظر : M. Amari, *op. cit.* III, 664 n. 1

(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٥٩٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شديدة من جانب نفر من النبلاء والفرسان ، وهجموا على القصر ونهبوا الذخائر التى كان رجار الثانى قد ادخرها (٩ مارس ١١٦١/ربيع الأول ٥٥٦) ، ثم قام النصارى فى بلرم على المسلمين ، فتحصن هؤلاء فى حيهم المسمى كازارا Cazzara وكان أغنى أحياء بلرم وكان يقع فى غربها ، وأغلقوا أبوابه واستعدوا للدفاع عن أنفسهم ، ولكنهم كانوا بغير سلاح ، فتمكن النصارى المهاجمون من اقتحام الحي عليهم ، وأنزلوا بهم مذبحة قاسية هلك فيها عدد عظيم منهم من بينهم الشاعر يحيى التيفاشى وكان شاعراً وَسَطاً أصله من قَفْصَه ، وقد مدح عبد المؤمن بن علىّ عند وصوله إلى بلده ، ثم مضى إلى صقلية يلتمس شيئاً من رفد آل حمود كما كان الكثيرون من شعراء إفريقية يفعلون ، ووفد إلى بلرم حيث وافاه بها حتفه ، وقد أضاف أمارى إلى ذلك أنه يظن أن الإدريسى كان فى بلرم إذ ذاك ، فقد كان متصلا ببلاط غليالم الأول ، وعمل له نسخة موسعة من نزهة المشتاق لم تصل إلينا ، والغالب أن المراد بهذه النسخة الموسعة كتاب «روض الأنس ونزهة النفس» الذى ذكره ابن بشرون[1].

ولا نعرف أين ذهب الإدريسى بعد مبارحته بلرم ، والغالب أنه مات فى صقلية بعد ذلك بقليل ، مما يرجح ما ذهب إليه الحسن الوزان من القول بوفاته سنة ٥٦٠/١١٦٤ ، وليس لدينا ما يدل على أنه عاد إلى المغرب أو ذهب إلى أى بلد إسلامى آخر بعد ذلك .

أما عن حيـاة الإدريسى فى صقلية فلدينا إشارة طيبة أوردها الصفدى فى «الوافى بالوفيات» ، ولا نعلم من أين استقى المعلومات التى أوردها فيها ، ويغلب على الظن أنها ترجع إلى كتاب ابن بشرون ، ومن أسف أن هذا الكتاب قد ضاع ، وقد لاحظنا أن ما نقله العماد الأصفهانى عن ذلك الكتاب خاصاً بالإدريسى مضطرب مختلط بترجمة أخرى ، وقد سقطت من المخطوط ورقة أو

---

(١) أمارى ، تاريخ مسلمى صقلية ، ج ٣ ص ٤٨٦ والهوامش .

وسنرى بعد قليل أن روض الانس، لم يكن نسخة موسعة بل موجزة من النزهة وأن الخطأ في الوصف جاء من لاماري.

أكثر لابد أنها كانت تضم أول ترجمة الإدريسى ، وربما كانت هناك التفصيلات التى يوردها الصفدى فى كتابه .

واستناداً إلى ما ذكرناه عن زيارتَىْ الإدريسى لصقلية وتعرُّفه برجار الثانى فى الأولى منهما ، ثم استقراره فيها وشروعه فى العمل فى الثانية نقول — اعتماداً على كلام الصفدى — أن رجار « أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه » ويسر له طريق العمل ، وبدأ الادريسى بعمل صورة الأرض على الفضة ، فلما فرغ منها كافأه مكافأة سنية ، وألح عليه فى الاستمرار فى العمل معه فاستجاب « ورتب له — الملك — كفاية لا تكون إلا للملوك ، وكان يجئ إليه راكباً بغلة ، فإذا صار عنده تَنَحّى عن مجلسه ، فيأتى ، فيجلسان معاً[1] » أى أن الادريسى لم يكن مجرد عالم يخدم ملكا بعلمه ، بل كان صديقاً له أثيراً لديه ، يجلسان معاً ويتحدثان فى طريقة العمل ويتشاوران فيما يعرض لهما من المشاكل ، وهذه الصورة معقوله ، فإن رجار الثانى كان شديد الاهتمام بهذه العلوم التى برع فيها الإدريسى وهى الجغرافية والطب والنبات والحساب والفلك، لايكاد يسمع بأحد من الظاهرين فيها إلا عنى به وشجعه على العمل شأنه فى ذلك شأن معظم ملوك النورمان كما رأينا ، وقد وجد عند الإدريسى فوق ما يطلب من هذه العلوم كلها ، فزاد قدره عنده وأنس إليه ، واتصلت بين الرجلين صداقة كانت ثمرتها هذه الكتب الجليلة التى خلفها الإدريسى .

ولم تتغير حال الادريسى بعد وفاة رجار الثانى ومجئ غليالم الأول ، ولكن أحوال الدولة النورمانية نفسها تغيرت ، فقد اشتد التنافس على السلطان بين معاونى الملك وخرج الأمر عن يده ، واشتد النزاع بين اثنين من مستشاريه هما اصطفان وماتيو ، وكان بيت بنى حمود — والعرب تبعاً لذلك — من خصوم الأول وأنصار الثانى ، فاجتهد اصطفان فى التأليب على العرب متعللا بأن

---

(١) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

الموحدين ، وقد أصبحوا سادة المغرب كله واستعادوا ما كان بيد النورمان من موانيه مثل المهدية وصفاقس وطرابلس ، يتأهبون لاستعادة صقلية مستعينين بمن فيها من المسلمين ، فكان من نتائج ذلك قيام النصارى على المسلمين فى بلرم كما ذكرناه ثم مبارحة الادريسى هذا البلد، ولهذا فإننا نستطيع القول بأن السنوات الأخيرة من حياة الادريسى لم تكن سعيدة ولا هادئة ، نعم إنه استمر يعمل وأنجز كتاب « بهجة الأنس » ولكن العمل نفسه كان عسيراً فى الظروف التى ذكرناها ، خاصة وقد غضب غليالم الأول على القاسم بن أبى عبد الله محمد ابن محمد بن أبى القاسم بن حمود واستصفى أملاكه وأبعده ، وصيره فى الحالة التى وجده عليها ابن جبير .

منهج الإدريسى وطريقته فى العمل

يدل الادريسى فى « نزهة المشتاق » على علم واسع بالجغرافية والفلك والحساب والتاريخ ، وتدل النقول الباقية لدينا من كتابه عن « الأدوية المفردة » على علم واسع بالأدوية والأعشاب ، فقد كان هذا الكتاب من المراجع الرئيسية فى هذا الباب ، حتى لقد نقل عنه ابن البيطار مائة مرة[1] . أى أنه كان متمكناً تماماً من العلمين اللذين أثرت عنه فيهما كتب ، وشهرته كنباتى لا تقل عن شهرته كجغرافى ، حتى أن ابن أبى أصيبعة ذكره كنباتى فقط ، دون إشارة إلى تواليفه فى الجغرافية .

وقد أورد الإدريسى فى فاتحة نزهة المشتاق طائفة من الكتب الجغرافية التى اعتمد عليها ، فحسب نفر من الباحثين أن هذه كل مراجعه ، وعددها عشرة

---

(١) انظر تعليق عبد القادر نور الدين وهنرى جاهيه على نص ابن أبى أصيبعة وترجمته الفرنسية ، المصدر الذى ذكرناه ، ص ١٦٠ — ١٦١ . وقد ذكرا فى ذلك النص أن وفاة الادريسى كانت سنة ١١٦٦/٥٦١ ، وهكذا أيضاً قال لكليرك .

هى : «كتاب العجائب للمسعودى ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيحانى وكتاب أبي القاسم عبيد الله بن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماق ، وكتاب موسى بن قاسم القردى ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب اسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطاميوس الأقلودى ، وكتاب أُرْسُيُوس الانطاكى» . وثمانية من هذه الكتب معروفة لنا ، فكتاب العجائب لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى (توفى ٣٤٥ أو ٣٤٦/ ٩٥٦) هو أخبار الزمان وعجائب البلدان ويسمى أيضاً «الجمان فى مختصر أخبار الزمان»[١] وهو من أهم كتب المسعودى الجغرافية التاريخية ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيحانى موضع تساؤل كبير ، لأن المعروف لنا هو أبو عبد الله محمد ابن أحمد الجيحانى (ويكتب الجيانى أيضاً) ، وكان وزيراً فى البلاط السامانى فيما بين سنة سنتى ٨٩٢/٢٧٩ و ٩٠٧/٢٩٥ وقد صنف كتابا احتذى فيه كتاب قدامة بن جعفر عن الخراج ، ذكره المقدسى فى فاتحة أحسن التقاسيم ، وقد عثرنا على مخطوطة منه فى كابل[٢] ، ونقل منه مؤلف «حدود العالم» نقولا كثيرة ، وقد أثبت بارتولد الذى قام بنشر هذا الكتاب الأخير أن كتاب الجيحانى أول محاولة عربية لرسم صورة (أى خريطة) للعالم ، ثم التعريف بأعلامها الجغرافية فى كتاب[٣] ، وقال بارتولد أن مؤلف ذلك الكتاب اعتمد فى رسم خرائطه على خرائط بطاميوس ، ولكنه خالفه بعض الشىء فى حدود خطوط

---

(١) لم نعثر على أصل هذا الكتاب ، ولكن على مختصر صغير له توجد منه مخطوطة فى المكتبة الأهلية فى باريس ، وقد ترجمه كارا دى فو إلى الفرنسية ونشره فى باريس سنة ١٨٩٨ بعنوان : *L'Abregé des Merveilles* ثم نشر النص العربى السيد عبد الله الصاوى فى القاهرة سنة ١٩٣٨

(٢) عثر على هذه المخطوطة المستشرق فراى ، وكتب عنها مقالا فى مجلة بيزانطيون :
R. Frye, *Note on the Jayhanī Manuscript in Kabul*, Apud Byzantion XVIII, 1948.

(٣) نشر كتاب «حدود» العالم المستشرق بارتولد فى ليننجراد سنة ١٩٣٠ والكتاب صغير ، ولكنه يضم ٧٨ خريطة مع مقدمة روسية مطولة .

العرض ، وذهب بروكلمان إلى أن كتاب الجيحانى وكتاب حدود العالم متشابهان تماماً[١]

أما كتب ابن خرداذبة والعذرى وابن حوقل واليعقوبى فمعروفة متداولة ، وبقى كتابا جاناخ بن خاقان الكيماق وموسى بن قاسم القردى دون أن يتعرف عليهما أحد . وكتاب قدامة البصرى هو الخراج لقدامة ابن جعفر ، وكتاب بطليوس معروف ، وقد تحدثنا فيما سبق بما فيه الكفاية عن كتاب أُرسيوس أو هروشيُش ، وكتاب اسحق بن الحسن (أو حسين) المنجم هو « كتاب آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » ، وهو معجم جغرافى يظن أن مؤلفه مغربى أو أندلسى كتبه خلال القرن الرابع الهجرى[٢] .

وإذا نظرنا إلى هذه الكتب فى مجموعها لاحظنا أنها كلها ، فيما عدا كتاب العذرى ، قد كتبت فى القرن الرابع الهجرى فى حين أن الإدريسى كتب كتابه فى القرن السادس الهجرى . فهل معنى ذلك أن اطلاع الادريسى على المؤلفات العربية فى الجغرافية وقف عند ذلك الحد ولم يمتد إلى ما أُلِّفَ فى القرن الخامس

---

(١) انظر ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ملحق ١ ص ٤١١
والمشكلة بعد هذا كله هى مشكلة اسم المؤلف كما كتبه الادريسى ، وهو يختلف عن اسمه المعروف لدينا .

(٢) نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافية ، ترجمة فتحى عثمان ، مجموعة الألف كتاب ، التاسعة بدون تاريخ ، ص ٧٧
وذكر المؤلف أن الرجل كتب كتابه فى مراكش فيما بين سنتى ٣٤٠ و ٤٥٤/٩٥١—١٠٦٣ أى أنه من أهل القرنين الرابع والخامس الهجريين . وقد أخذ نفيس أحمد هذه المعلومات من بروكلمان (ملحق ١/٥٠٤) ، وكلام بروكلمان على صحته : كتب أيضاً فى القرن الثالث الهجرى ، وربما يكون قد كتبه فى ٣٤٠/٩٥١ وعلى أى الأحوال قبل سنة ٤٥٤/١٠٦٣ وهى سنة اختطاط مدينة مراكش ، ولم يذكرها هو فى كتابه ، وعنوانه : « آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » وقد انتفع الادريسى بهذا الكتاب بصفة خاصة فى كتابه « المهج والفرج » (مخطوط بمكتبة حكيم أوغلو فى استامبول رقم ٦٨٨) . وقد وجدت نسخة من آكام المرجان فى المكتبة الأمبروسية فى الفاتيكان برقم H. 104 ، ونشرها مع ترجمة إيطالية انجيلو كودازى فى روما ١٩٢٧ :
Il Compendio, geografico - arabo, publicato i tradotto di Angelo Codazzi, Roma 1927, Rend. d. Lincei, S. VII, vol. V, 372 - 463.

كله والنصف الأول من السادس ؟ بل حتى تلك المؤلفات التى كتبت قبل نهاية القرن الرابع ينقص منها الكثير مما نفترض أن الإدريسى لا بد أن يكون قد اطلع عليه مثل كتاب البلدان لأبى بكر أحمد بن إسحاق بن الفقيه (كتب حوالى ٢٨٩/٩٠٢) وكتاب محمد بن أبى مُسلم الجَرْمى الذى عاش وكتب فى أيام الواثق العباسى واعتمد الجيحانى وأبو عبيد البكرى عليه فيما كتبا عن شرقى أوربا ، ورحلة سليمان التاجر (كتبت حوالى ٢٣٧/٨٥١) التى نقلها وعلق عليها أبو زيد السيرافى (حوالى ٣٠٤/٩١٦) ووصلت إلينا ونشرها لانجليز باسم « سلسلة التواريخ » خطأ ، وكتاب الأعلاق النفيسة لأبى على أحمد بن عمر ابن رُسته (كتب فيما بين سنتى ٢٩٠ و ٣٠٠/٩٠٣—٩١٣) ، وكتاب رسم الربع المعمور المعروف بصورة الأرض لمحمد بن موسى الخوارزمى (كتب بعد ٢٣٢/٨٤٦) ، وغيرها كثير ، وقد اكتفيت بالإشارة إلى هذه لأنها أصولٌ ما كان يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لرجل كهذا تدل كتاباته على اطلاع واسع وتكوين علمى متين فى الفروع التى تخصص وكتب فيها . وإن الانسان ليدهش لغياب اسم الخوارزمى بالذات من هذه القائمة ، فهو كان فى ذلك الحين المرجع الأول لكل من تناول الرياضة والفلك والجغرافية على مذهب كلاوديوس بطلميوس ، إذ أنه كان أول من استخدم الترجمة العربية لجغرافية بطلميوس وصاغها على النحو الذى استعملها به العرب[1] هذا إلى مؤلفاته الكثيرة فى الرياضيات .

---

(١) انظر : J. Lelewel, *Geographie du Moyen Âge*, Epilogue, Paris 1852

Aldo Mieli, *La Science arabe*, pp. 14-32.

J. Ruska, *Neue Bausteine zur Geschichte der arabische Geographie*. Geographische Zeitschrift, 1918 pp. 77 sqq.

C. Nallino, *Al-Ḥwarizmī e suo rifacimiento della Geografia di Tolomeo*. RAL. serie V, vol. 2, 1ª. Roma 1894-95.

Afrika nach der Bearbeitung der Γεωγραφική ὑφήγησις des Claudius Ptolemäus von al-Ḥwarizmī, herausgegeben von H. von Mzik in Denkschrift der Wiener Akkademie, 59, 4, 1916.

ولكن قارىء « نزهة المشتاق » يتبين بوضوح أن الإدريسى عرف النتائج الرياضية والجغرافية التى وصل إليها أولئك العلماء واستخدمها استخداماً صحيحاً ، ويكفى أن نعرف أنه خير من استخدم جغرافية بطاميوس من العرب وغير العرب إلى أيامه ، بل هو صححها وأضاف إليها فى كثير من المواضع ، ويكفى أن نتصور الطريقة التى عمل بها صورة الأرض على قطع صغيرة من الفضة ثم ضَمِّه بعضها إلى بعض فى شكل دائرة أو كرة ، ونقله بعد ذلك رسوم كل قطعة إلى « لوح الترسيم » كما يقول ليعمل الخرائط اللازمة لكتابه ، ثم قيامه بحساب المسافات والأبعاد واستعماله البركار وغيره من أدوات الرسم فى القياس وتحديد المواقع ، ولا بد كذلك أنه كان حاذقاً فى استخدام الاسطرلاب والصفيحة وما إليها من أدوات القياس الفلكية ، هذا إلى معرفته بالزيوج وقدرته على الانتفاع منها ، بل تصويب تقديراتها فى أكثر من موضع ، وهذا كله لا يتأتى إلا بعد اطلاع واسع على مراجع أكثر من هذه الكتب القليلة التى أوردها فى مقدمة كتابه .

وربما جاز لنا هنا أن نلقى شيئاً من الشك على أصالة هذه المقدمة جملة ، فإن الادريسى لا يشير إلى نفسه أو إلى عمله فى الكتاب أدنى إشارة ، فبعد فاتحة بليغة يقول : « فإن أفضل ما عُنى به الناظر ، واستُعمل فيه الأفكار والخواطر ما سبق الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وإيطالية وأنكُبَرْده (لومبارديا) وقلورية (كالابريا) وإمام رومية الناصر للملة النصرانية . . . الخ » ثم يقول بعد ذلك : « إنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته . . . أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويُفَصِّلها يقيناً وخبرةً ، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً ، وفى أى إقليم هى ، وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد فى الأقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون ، وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد تحتوى عليه ويرجع إليه ويعد منه ، بطلب ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله مثل كتاب...[١] فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلا ، بل وجده منها مغفلا ، فاحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحـال ، بعث إلى سائر بلاده ، فاحضر العارفين بها ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة[٢] جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم ، وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه . وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه ، وأقام فى ذلك نحواً من خمس عشرة سنة ، لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه ، والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده... »[٣] وهكذا يسترسل الكلام إلى آخر الفاتحة ، ثم يدخل فى المقدمة الجغرافية رأساً ، فأين الادريسى من ذلك كله ؟ أين نصيبه من العمل إذا كان رجار قد فعل ذلك كله ؟ أم أنه يريد أنه هو الذى فعل ولكنه — من باب الاحترام — نسب ذلك إلى الملك ؟ الحق أننى كلما أمعنت النظر فى هذه المقدمة أحسست أنها ليست للادريسى ، أو كأن شيئاً سقط منها فأصبحت وكأنها مبنية للمجهول . ولو أننا تصورنا أن هذا الناقص يقع بعد لفظ « بواسطة » كان شيئـاً فى معنى « العبد الفقير مؤلف هذا الكتـاب أبى فلان الفـلانى » لاستقام المعنى بعض الشىء ، ولأصبح ما بعد هذه الإضافة هو عمل الادريسى وهو الثابت الصحيح . ولعل الرجل بعد أن فرغ من الكتـاب وجاء دور كتابة الفاتحة أحس بحرج ، إذ كيف — وهو الشريف العلوى الادريسى — يرفع كتابا إلى ملك نصرانى ؟ أقصد الناحية الأسلوبية البحتة ، فإن فواتح الكتب وإهداءاتها إلى الملوك والأمراء فى تلك

---

(١) هنا يرد ذكر الكتب التى ذكرناها آنفا .

(٢) اقترح بعض الباحثين قراءة هذا اللفظ « بواسطتى » ولا محل لهذا التعديل ، فإن المراد أنه سألهم بواسطة مترجم .

(٣) نشر هذه المقدمة أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ١٤ وما بعدها .

الأيام كانت تتطلب الثناء المبالغ فيه وتعظيم المُهدى إليه وتواضع المُهْدِى ، وهذا الأسلوب فى التقديم معقول مقبول فى المحيط الإسلامى العربى ، ولكن حالة الادريسى فريدة ولا نظير لها ، هو ليس شاعراً مادحاً كأولئك الذين ذكرناهم ، إنما هو شريف علوى من العسير عليه جداً أن يكتب شيئاً يعيره به الناس بعد ذلك ، خاصة والقرن السادس الهجرى كله كان عصر نهضة عربية إسلامية ، فالأيوبيون فى المشرق والموحدون فى المغرب يعملون فى جد لرفع الهمم وإعلاء كلمة الإسلام ، ثم يجئ الادريسى ، وهو سليل أشرف بيوت العروبة والإسلام فيتطامن ويتواضع فى عبارات لا يمكن أن يؤولها خصوم بيته الحمودى على أنها مجرد عبارات تقليدية ؟ لهذا جاءت المقدمة مبهمة بالنسبة لنصيب الادريسى ، وهى على هذه الصورة تعفيه من كل لوم . لهذا كله أعتقد أن هذه الفاتحة ليست من قلمه ، فإما أنه كتب الفاتحة بطريقته العلمية التى تتبين فى قسمها الثانى ثم أضاف إليها أحد رجال البلاط من العرب ما أراد ، أو أن هذا الغير قد قام بإنشائها كلها ، وهنا نستطيع أن نجد عذراً عن هذا النقص الواضح فى المراجع التى جاء ذكرها فيها .

نقول هذا لأن الباحثين تبينوا عند دراسة الأجزاء المختلفة من هذه الجغرافية أن الادريسى رجع إلى أكثر منها بكثير ، وقد تبينت فى إعداد الجزء الخاص بمصر أن الرجل رجع إلى ما كتبه أبو عبيد البكرى عن مصر ، نعم إنه لم يطلع على ما كتب القضاعى وهو معاصره ، ولكن إهمال كتب المعاصرين لم يكن عيباً فى تلك الأيام وخاصة فيما يتصل بالجغرافية ، فإن كتبها لم تكن تذيع كما تذيع كتب الأدب والفقه ، وكانت شهرة الكتاب فيها لا تطير إلا بعد زمن طويل .

ولكننا مع هذا كله لا نستطيع أن نفهم كيف أهمل الادريسى مؤلِّفين لا يمكن أن يقال إنه لم يعرف مؤلفاتهم ، فأين مؤلفات أبى الريحان البيرونى (٣٧٢ — بعد سنة ٤٤٢/٩٧٢ — ١٠٥٠) : وأين كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى

وقد كتب سنة ٣٧٥/٩٨٥) ؟ بل أين جغرافية الرازى للأندلس ؟ هل يمكن أن يذكر ابن خرداذبة ولا يذكر البلخي ؟ أو يذكر العذرى ويُهمل الرازى ؟ نستطيع أن نفهم هذا فيما يتصل ببلاد زارها الإدريسى وعرفها بنفسه مثل مصر وآسية الصغرى والمغرب والأندلس وصقلية وجنوبى إيطاليا ؛ ولكن ما عذره فى إهمال البيرونى ؟ بل كيف يمكن أن يقال إنه لم يسمع به وقد كان ذكره على كل لسان فى نواحى الشرق العربى التى زارها الادريسى ؟ إننا لا نذكر البيرونى لمجرد أن اطلاع الادريسى على مؤلفاته كان يعينه على إعطاء صورة للهند رايرانشهر[1] أدق وأوفى مما نقرأ فى «نزهة المشتاق» بل لأن أبا الريحان هو الرياضى الفلكى الجغرافى المسلم الوحيد الذى كان يستطيع أن يضيف إلى مفهوم الجغرافية عند الادريسى شيئاً جديداً حقاً ، فإن نظرياته السليمة فى الفلك والجغرافية ، وآراءه فى هيئة الأرض ومعالمها وتاريخها ، ثم نقده الرصين لنظريات بطليموس الاسكندرى كانت كفيلة بأن تضيف للادريسى شيئاً جديداً وتخطو بجغرافيته خطوات واسعة إلى الأمام . لقد كان البيرونى كفيلا بأن يضيف إلى جغرافية الادريسى عمقاً ينقصها بشكل واضح ، لان أبا الريحان بين جغرافيينا هو ابن خلدون بين مؤرخينا ، وكما لم ينتفع بأنظار ابن خلدون إلا تلاميذه المقربون مثل تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، فإن الذين انتفعوا بكلام البيرونى من جغرافيينا قليلون جداً[2] .

ولكن ، يبدو لنا أن الإدريسى بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك ، وبعد أن ساح فى البلاد على قدر ما استطاع ، بدأ يرتسم فى ذهنه

---

(١) مصطلح جغرافى يراد به عند ياقوت الأراضى التى تضم العراق وفارس والجبال وخراسان ، وعند ابن رستة : خراسان وسجستان وكرمان وفارس والأهواز والجبال وآذربيجان والموصل والجزيرة انظر : Wadie Jwaideh, *The introductory chapters of Yakūt's Mu'djam al-Buldān* (Laiden, Brill, 1959) p. 40, n°. 2

(٢) راجع عن آراء البيرونى ونظرياته ما يقوله نفيس أحمد فى « جهود المسلمين فى الجغرافية » ترجمة فتحى عثمان ، ص ٦٤ وما بعدها ، وص ٢٤٢ وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصور جديد لجغرافية الأرض ومنهج جديد لكتابتها ؛ تصور يختلف تمام الاختلاف عما سبقه إلى ذلك الحين : تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كلٌّ واحد كل ما فيه جدير بالوصف والتحقيق ، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطليموس أو على عالم الاسلام كما عند معظم جغرافيي العرب إلى ذلك الحين ، تصور جغرافى خالص لا يختلط بالتاريخ هذا الاختلاط الذى جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضـــاً كما نجد عند أبى عبيد البكرى ، ولا يخلط بين الحقيقة والاسطورة كما نجد عند الهَمْدَانى : تصور جغرافى علمي خالص . وبناء على هذا التصور رسم منهجه : منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها بعض ومراعاة النسب بينها ، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك إلى مناطق يستقصى الكلام عنها فى تفصيل ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات ، فما شهده بنفسه أثبته كما رآه ، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا إليه وساروا فى طرقه أو أبحروا فى أمواهه أو اشتغلوا بالتجارة فيه . ويستكمل ذلك بما عسي أن يجده فى كتب الجغرافية التى تتيسر له . ولا نبالغ إذا قلنا إنه رسم منهجه كما يرسمه أى جغرافى معاصر ، فإن الذى يتصدى اليوم لكتابة جغرافية للمغرب مثلا لا يبدأ بقراءة أبى عبيد البكرى بل ينظر أولا فى كتب المساحة والإحصائيات والدراسات الجزئية عن الجغرافية الطبيعية ثم البشرية ، ويعتمد أولا وقبل كل شيء على المصورات الجغرافية والأوروجرافية ورسوم القطاعات وبيانات مراكز الارصاد وما إلى ذلك .

وليس معنى هذا أن الادريسى فكر فى هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافى ، فإن تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد إلا بعد عصره بقرون ، ولكنه على أى حال فكر فى منهج جديد أو بتعبير أدق : سار فى طريق جديد ، هو الطريق الذى وصل بالجغرافية إلى ما هى عليه اليوم ، وتطلب

منه السير فى ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب ، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها ، ولا أوصاف للنواحى يمكن الاعتماد عليها ، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر ثروتهم وميادين نشاطهم وإنتاجهم . وكان عليه أن يبدأ هو بذلك ، فقرر أولا أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة فى عمله ، ثم قسم هذه الخريطة إلى أقسام صغيرة ، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شىء يمكنه الاطمئنان إليه من ذلك كله .

وهذا كله يعطينا فكرة عن المشاكل التى واجهت الادريسى عند ما شرع فى تخطيط جغرافيته ، والطريقة التى لجأ إليها فى علاج هذه المشاكل ، فهذا رجل تنبه فى أوائل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى إلى المشاكل التى واجهها الجغرافيون المحدثون فى القرن الثامن عشر الميلادى ، واجتهد فى حلها بالوسائل التى كانت فى استطاعته ، ومن الواضح أنها مشاكل لا يستطيع حلها رجل واحد ، إذ الأمر محتاج إلى هيئة أو دولة تؤيده وتعينه ، وقد وجد بعض هذا التأييد عند رجار الثانى ، فأمده بالمال وهيأ له وسائل العمل ، وأضفى عليه حماية الدولة ووسائلها ، فلم يلبث مشروعه أن خرج إلى حيز الوجود ، وأيا كانت الملاحظات التى أبداها العلماء على جغرافيته ، سواء بالنسبة لتصوره الجغرافى العام أو للأوصاف الجزئية أو أبعاد البلاد وأطوال الطرق أو مواقع المدن وحدود النواحى ، فإنه يكفى الادريسى أنه أول من تصدى لعمل جغرافية كاملة للكرة الأرضية معتمداً على أساس علمى تجريبى ، ووفق فى ذلك إلى حد كبير ، فهو من ناحية القمة التى وصل إليها العلم الجغرافى فى العصور القديمة والوسيطة ومن ناحية أخرى أول جغرافى حديث .

وقد بنى الادريسى جغرافيته على مفهومات علمية صحيحة مثل كروية الأرض وخطِّ الاستواء والأقاليم المناخية التى تتدرج من ذلك الخط إلى القطب واستطراق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحار العالم الكبرى بعضها إلى بعض وتعادل منسوب الماء فيها والبحر وأثره فى المناخ والجبال ودورها فى تكييف الجو وتوجيه الرياح وسقوط الأمطار وما إلى ذلك . وأيا كان حكمنا اليوم على هذه المفهومات فقد كانت ثابتة فى رأيه لا يشك فيها ، فكروية الأرض عنده ثابتة لا شك فيها ، ومن هنا فهو لا يعرض نظريات أخرى فى صورة الأرض ويترك للقارئ أن يختار ما يراه منها كما فعل ياقوت[١] ، وخط الاستواء عنده مفهوم جغرافى ثابت يبنى عليه تقسيمه للأرض إلى أقاليم ، وهو لا يتردد بين خطوط مختلفة ليتخذ منها خطاً رئيسياً يبنى تقسيمه عليه ، وإنما يتخذ الخط المار بالجزائر الخالدات ويثبت عنده . ومعظم هذه المفهومات الأساسية التى ثبت عندها صحيح ، ومن هنا فإن معظم النتائج التى وصل إليها صحيحة سابقة لعصره بمراحل رغم ما تبين من خطأ بعضها بعد ذلك بقرون ، كاعتقاده بثبات الأرض وسط قبة الفلك ودوران الكواكب الأخرى حولها ، وقوله بأن هناك جبلا عظيما محيطاً بالأرض كلها يسمى جبل قاف ، وهو معذور فى هذه الأخطاء ، إذ كيف كان يستطيع أن يتبين أن جبل قاف خرافة إذا كان الناس لم يصلوا إلى آخر الأرض ويتبينوا ذلك إلا بعد ذلك بقرون كثيرة ؟ ونستطيع أن نتتبع المنهج الذى تصوره الادريسى لعمل جغرافيته للأرض ، ثم سار عليه بعد ذلك بدقة فيما يلى :

١ — فيما يتصل بالخريطة العامة الأساسية اعتمد الادريسى على خريطة بطلميوس[٢] ، لأنهـا تشمل الأرض كلها ، ولا يبعد أن يكون قد بدأ بنقلها

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ ، ج ١ ص ١٣ وما بعدها ، وراجع الترجمة الانجليزية لمقدمة ياقوت بقلم وديع جويدة ، ص ١٩ وما يليها .

(٢) يذهب كونراد ميلر في مقدمة مجموعة الخرائط العربية التى قام بنشرها إلى أن الادريسى لم يعتمد على خرائط بطلميوس بصورة مباشرة ، بل على نسخ منها قام بعملها مرينوس الصورى ، وربما كان هذا صحيحاً . فسنرى بعد قليل أن الغالب أن الخرائط الجغرافية التى رسمها بطلميوس وجعلها الجزء السابع من كتابه فى الجغرافية قد ضاعت من زمن بعيد ، وربما تكون خريطة مرينوس الصورى قد اعتبرت بدلا منها . وأخذها الادريسي على أنها لبطلميوس نفسه .

مكبرة لكى يستطيع بعد ذلك إدخال ما يرى من التعديلات عليها . ولكن بطاميوس كان يتصور الأرض مسطحة ، وقد رسم خريطته على هذا الأساس ، فكان على الادريسى أن يعدل الرسم على أساس كروية الأرض ، ويبدو أن الطريقة التى لجأ إليها فى ذلك هى التى تحدثت عنها مادة « الوافى بالوفيات » حديثاً مبهما كما يلى : « وهو — أى رجار — هو الذى استقدم الشريف الادريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من العدوة ، ليصنع له شيئاً فى شكل صورة العالم ، فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه ، فطلب منه شيئاً من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحمل إليه من الفضة الحَجَر (أى الخام) وزن ٤٠٠٠٠٠ درهم ، فصنع فيه دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضها على بعض ثم شكلها له على الوضع المخصوص[1] » ، وتفسير هذه العبارة فيما أرى أن الادريسى أراد أن يحول الرسم المسطح إلى رسم ينطبق على كرة ، فأتى بصفائح فضة ورسم على كل منها ما رسمه بطاميوس فى كل من الأقاليم السبعة ، ثم أتى بكرة — من الخشب مثلا — فى الحجم المطلوب ، ثم أدار حول نصفها الأعلى ابتداء من خط الاستواء الصفيحة الأولى التى تمثل الإقليم الأول ، ثم أدار صفيحة الإقليم الثانى فالثالث وهكذا إلى السابع (دوائر على هيئة الأفلاك وركب بعضها على بعض ثم شكلها على الوجه المخصوص) ، وعبارة « شكّلها على الوجه المخصوص» يراد بها أنه قَطَع من صفائح الفضة ما تطلبه تطبيق الصفائح على وجه الكرة ، وقد يكون الادريسى قد فعل هذا مستعملا شيئاً غير الفضة — الورق مثلا — واختلط الأمر على الصفدى أو مَن نقل عنه فلما تم الأمر على الورق نقله على صفائح الفضة .

ولا بد أن هذا التطبيق اقتضى من الادريسى عمليات حسابية كبيرة ، لأن

---

(١) المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٧ — ٦٥٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسألة لم تكن مجرد قطع الزائد من صفائح الفضة أو الورق ، بل حساب ذلك القطع بحسب ما تقتضيه الانحناءات ثم تعويضه .

٢ — ووجد الإدريسى بعد ذلك أن بطاميوس يكتفى بتقسيم الأرض إلى أقاليم أى مناطق عرضية ، والمنطقة الواحدة تدور حول الكرة كلها دون حدود ، مما يصعب معه توقيع الأماكن والأعلام الجغرافية بالدقة ، فقسم محيط الكرة طولا إلى عشرة أجزاء متساوية بخطوط تبدأ من قطب الكرة الأعلى وتنتهى عند قطبها الأسفل ، على طريقة خطوط الطول اليوم ، وبهذا حصل على مستطيلات ، كل منهم يضم مساحة معينة من الأرض وما يقع فيها من الأقطار والمعالم الجغرافية .

أما الأطوال قبل الإدريسى فكانت أطوالا فلكية لا جغرافية ، بمعنى أن الفلكيين قسموا قمة الفلك فوق الأرض إلى ٣٦٠ درجة ثم حرروا ما يمكن أن يقع مقابل كل خط من مدن الأرض ، وقد جعلوا هذا التقسيم بالنسبة لمحيط الأرض عند خط الاستواء ، وقالوا إن الدرجة تعدل ٢٥ فرسخاً ، وتصوروا أن خطوط الطول هذه خطوط مستقيمة متوازية ، ثم أنهم اختلفوا حول خط الطول الذى يتخذ أساساً للحساب (كما نقول نحن خط جرينيتش اليوم) فذهب اليونان إلى أنه الخط المار بساحل المحيط الأطلسى ، وذهب آخرون إلى أنه الخط المار بجزائر السعادات أو فورتوناتوس ، ولا نعلم على وجه التحديد إن كان المراد بها جزائر الكناریاس أو جزائر الأزورس ، أما الهنود والفرس فقد اتخذوا الخط المار بما يسمى قبة أرين أو قبة العرين ، ولا ندرى إن كانت فى الهند أو فى جزيرة فى المحيط الهندى على خط الاستواء ، والنتيجة أن خطوط الطول هذه كانت خطوطاً وهمية فلكية لا تعين على شىء ، وقد أشار إلى ذلك أبو الريحان البيرونى[1] .

---

(١) راجع كلامه عند ياقوت ، معجم البلدان ، ١/٣٩

أما هذه الأطوال التي ابتكرها الادريسى فخطوط تقسيم محدودة المعالم على خريطته ، وهى وسيلة عملية واضحة الفائدة بالنسبة لمن يستعمل هذه الخرائط ، وقد اتخذ الخط الرئيسى ذلك المار بالجزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى متابعاً فى ذلك بطاميوس .

٣ – وإلى جانب ذلك أخذ الإدريسي بخطوط العرض المعروفة ، فقسم المسافة بين خط الاستواء والقطب الشمالى إلى تسعين قسماً ، وسمى كل قسم درجة ، وقد فعل ذلك بطريق الحساب ، فى حين كان القدماء يقسمون قبة الفلك نفسها إلى ٣٦٠ درجة ، لكل نصف من نصفيها ١٨٠ درجة ثم يحاولون ضبط مواضع المدن بالنسبة لبروج الفلك ، فكان التقسيم والتوقيع لهذا غير دقيقين ، ومع أن تقسيم الادريسى لم يكن دقيقاً كل الدقة ، لأنه حسب للدرجة ٧٥ ميلا تقريباً ، إلا أنه مقارب للواقع بل أقرب إلى المعقول من التقسيم الفلكى الخالص ، ومن الممكن قياس الدرجات بالمقاييس العادية على حسابه ، وبهذا أمكنه أن يرسم على خريطته بالإضافة إلى حدود الأقاليم خطوط عرض يفصل بين كل منها والذى يليه شمالا وجنوبا ٧٥ ميلا تقريباً . ومن أسف أنه لم يضع خطوط العرض هذه على خرائط الأقاليم التى استخرجها من خريطة العالم التى رسمها .

٤ — وعندما ضبط الإدريسى توزيع البلاد على خطوط العرض على هذه الصورة تبين له أن بطاميوس لم يستوف نواحى المعمور من ناحية ، وأخطأ فى وضع نواح فى غير أقاليمها من ناحية أخرى ، فقد وجده ينتهى فى الشمال إلى الجزر البريطانية ، فى آخر الإقليم السادس ، ولا يضع بعد ذلك شيئاً ، فأكمل الجزر البريطانية وبلاد شمال أوروبا حتى فنلاندا وشمال الروسيا وبلاد اللاب Lappland ووضع ذلك كله فى الإقليم السابع ، وقال فى النص إن أقصى المعمور يصل إلى درجة ٦٨ شمالا فى حين أن هذه النواحى القاصية تصل فى

خرائطه إلى نحو درجة ٧٢ شمالا ، ومن هذا الخط الأخير إلى القطب لم يضع شيئاً على الخريطة ، لأنها بحسب ما انتهى إليه علمه بلاد شديدة البرودة لا تسكن .

وفيما يتصل بجنوب خط الاستواء ، وجد أن بطلميوس لا يتعداه قائلا أن وراء ذلك بلاداً غير مسكونة بسبب شدة الحرارة ، فصوب الادريسى ذلك ، ومد العمران إقليما وخُمسَين جنوب خط الاستواء ، ليضع فيه جزيرة سرنديب وما وصل إلى علمه من جزائر بحر الهند ، ثم منابع النيل ومنابع نهر النيجر ، وهو عنده نيل السودان ، ولم يضع بعد ذلك إلى الغرب شيئاً ، وإنما رسم مساحة أرضية واسعة غير واضحة الحدود ، وقال إنها بلاد غير مسكونة لشدة الحرارة وانعدام الرطوبة وقال : « ولم يقع فى قَسم القِسم الغربى وراء خط الاستواء بَحْرٌ يؤثر فيه هذا التأثير ، فبقى على كيفية طبعه من اليُبس ، لا يمكن به نباتُ نباتٍ ولا حياةُ حيوان » .

٥ — بعد هذا نزع الإدريسى هذه الصفائح أو الأوراق وبسطها ، وقام بالعملية التى قام بها مركاتور فى أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، أى حَوّل الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة ، مراعياً فى ذلك كل العمليات الحسابية والرياضية التى يقتضيها ذلك التحويل ، وهنا تظهر عبقرية الشريف الإدريسى ، لا كرياضى جغرافى فحسب ، بل كمجدد وصاحب نظر حصيف ومفكر سابق لأوانه[1] ، فإن تحويله جاء من الدقة بحيث أنه عندما عمل بعد

---

(١) Konrad Miller, *Mappae Arabicae, Arabische Welt und Landeskarten*, (6 vols. Stuttgart 1926-1928) 1, 2, p. 53.

O. J. Tuulio, *Le géographe arabe Idrīsī et la topographie baltique*, Ann. Soc. Fenn. B, XXX, 2, 1934.

وقد عاد توليو إلى هذا الرأى فى أبحاثه الأخرى عن الادريسى ، أنظر له :
وهو بحث نشر فى نفس الصحيفة (حوليات الجمعية الشرقية الفنلدية) *Du Mouveau sur Idrisi*
مجلد ٧ قسم ٣ و ٤ ، وانظر أيضاً :

O. J. Tallgren - Tuulio et M. Tallgren, *La Finlande et les autres pays baltiques orientaux* (Geographie VII, 4). Edition critique du texte arabe, avec facsimilés de tous les Manuscrits connus, traduction, étude de la toponomie, aperçu historiques, cartes et gravures ainsi qu un appendice donnant le text de VII 3 et VII 5, dans Studia Orientalia, Helsinki 1930.

ذلك كرة أرضية من الفضة وجعل النقاشين والرسامين ينقلون على مستطيلاتها محتويات كل مستطيل من مستطيلات الخريطة المسطحة ، جاء النقل دقيقاً كل الدقة ، فجاء كل بلد أو علم جغرافى فى موضعه وهذه الخريطة المسطحة هى التى يسميها الإدريسى لوح الرسم .

ونظن أن عمل لوح الرسم هذا وتحقيقه ووضع أسماء المواضع عليه هو الذى استنفد معظم الوقت الذى قضاه الادريسى فى هذا العمل ، فقد قرأ أولا ما كتبه بطليوس وحقق المواضع الواردة فى نصه على خريطته — أى خريطة بطليوس — واستكملها ، ثم أعاد قراءة ما لديه من كتب الجغرافية عن كل ناحية ووقع ما فيها من الاعلام على لوح الرسم ، ثم عمد بعد ذلك إلى تحقيق ذلك كله « فوقع اختيارهما — أى الإدريسى ورجار — على أناس أُلِبَّاء فطناء أذكياء ، وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالا ، وسَفَّر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته ، فكان إذا حضر أحد منهم بشكلٍ أثبته الشريف الادريسى حتى تكامل له ما أراد »[1] . وينبغى أن نضيف هنا أن الادريسى لم يعتمد فقط على أولئك الذين يصفهم الصفدى بأنهم « أُلِبَّاء فطناء » بل اعتمد فى كثير من الأحيان على تجار أو سُفَّار من أهل تلك النواحى أو من جابوا أقطارها وبحارها ، وليس من الضرورى أن يكون التجار والسُّفَّار والملاحين عارفين بالمواقع الدقيقة للبلاد واتجاهات الأنهار وفروعها والبحار وخلجانها وأبعادها ، ومنهم من يقدر المسافات بالمراحل (جمع مرحلة وهى مسيرة يوم على ظهور الدواب ، والبغال تقطع فى اليوم ما بين ٣٥ و ٤٥ كيلومتراً) ومنهم من قدر بالميل الرومانى (وهو نحو ١٤٨١ متراً) ، ومنهم من قدر بالميل العربى (وطوله كما يتبين من قياسات الإدريسى يتراوح بين كيلومتر وكيلومترين) ومنهم من قدر بالميل

(١) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، قطعة نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحرى (وطوله نحو ٢٠٠٠ متراً) ، أو بالمجرى (وهو المسافة التى تقطعها السفينة الشراعية فى البحر فى يوم ، وهذه المسافة تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ كيلومتراً) ، ونتيجة ذلك أن وقعت فى لوح الرسم مفارقات جسيمة فى تقديرات الأبعاد والاتجاهات . فأما فيما يتصل بالأولى وهى الأبعاد فقد كان على الادريسى أن يحوِّل كل بُعد منهـا إلى مقياس الرسم ، ثم يوقعه على الخريطة مستعيناً « بآلات الحديد » والمراد بها البركار والمثلث والمسطرة وما إليها . وكان عليه فى كل حالة أن يحسب البعد الصحيح للموقع بالنسبة للمستطيل الذى يقع فيه أولا ، ثم بالنسبة للخريطة كلها .

وقد وصف لنا الإدريسى نفسه ما لقيه من العنـاء فى ذلك العمل حين قال : « . . . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه ، وأخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده ، فأحضر العارفين بهـا المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة[1] جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم ، وصَحَّ فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه ، وأقام فى ذلك نحوا من خمس عشرة سنة ، لا يُخْلِى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن ، والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده . ثم أراد أن يعلم[2] يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البـــلاد وعروضها ، فأحضر إليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئاً فشيئاً ، مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها[3] حتى وقف على الحقيقه فيها . . .[4] » .

---

(١) هذا هو اللفظ الذى أشرنا إليه آنفاً وقلنا ان بعده شيئاً ناقصاً ، وقد اقترح بعضهم تصويبه إلى « بواسطتي » .

(٢) فى الأصل « يستعلم » والقراءة التى أثبتناها واردة فى إحدى النسخ التى رجع إليها أمارى .

(٣) فى الأصل « جمعها » والصورة التى أثبتناها أوفق للسياق .

(٤) فاتحة نزهة المشتاق ، المكتبة الصقلية ، ص ١٨ .

وقول الإدريسى « فأحضر إليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئاً فشيئاً » تقتضى أن لوح الترسيم هذا كان قد أُعِدَّ قبلا وأن الإدريسى مضى يحقق عليه أقوال الكتب والرحالة ويختبره بمقاييس الحديد ، أى بآلات القياس التى ذكرناها .

وجدير بالملاحظة أن إنشاء لوح الرسم هذا واستكماله أعان الادريسى على تصحيح كثير من المفهومات القديمة ورسمها على نحو قريب من الحقيقة ، مثال ذلك أن شبه الجزيرة الإيبيرية موصوف فى النص على أنه مثلث الشكل اتباعا للرأى القديم الذى أشرنا إليه ، فإذا نظرنا إلى خريطة الجزأين الأول والثانى من الإقليم الرابع وجزء من الإقليم السادس كما نشرها ميلر لاحظنا أن شبه الجزيرة لا يبدو مثلثاً ، بل على صورة قريبة جداً من هيئته فى الحقيقة .

ولوح الرسم أو الترسيم هذا هو الذى نقل الإدريسى رسمه على الكرة الفضية كما سنرى ، وهو الذى نقله أجزاء فى كتاب نزهة المشتاق ، والشائع أنه ضاع ولم يبق له أثر ، وهو بالفعل قد ضاع كما ضاعت الكرة الفضية ، ولكن بقيت منه صورة نقلها بعضهم سنة ١١٩٢ (٥٨٨ هـ.) فى صقلية ، ومن حسن الحظ أن هذه الصورة بقيت ، ونشرها كونراد ميلر فى مجموعته المسماة « الخرائط العربية[1] » وهى التى تصور مستوى الادريسى فى رسم الخرائط . أما الخرائط الصغيرة الواردة فى مخطوطات « نزهة المشتاق » فقد أصابها تحريف شديد بسبب كثرة النقل وقلة مهارة النساخين فى نقل الرسوم ، وأمامى الآن خرائط مصر فى ٧ مخطوطات لا تكاد إحداها تتفق مع الأخرى تمام الاتفاق .

٦ — فإذا تم هذا التحقيق المتعب قام الإدريسى بخطوة أخرى لا تقل عسراً ، وهى نقل لوح الترسيم هذا على كرة أرضية ، ونحن نذكر لفظ كرة

---

(١) Konrad Miller, *Mappae Arabicae* خريطة الجزأين الأول والثانى من الاقليم الرابع وجزء من كل من الاقليمين الثالث والخامس .

هنا لأنه أقرب إلى تصورنا لا لأنه ثابت ، لأن الادريسى نفسه يقول : « فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها ١١٢ درهماً » ولا نفهم المراد هنا بلفظ « دائرة » ، لأن الدائرة غير الكرة ، والادريسى رجل دقيق ، فلماذا لم يستعمل هذا اللفظ الأخير ؟ أما الصفدى فيقول : « ليصنع له شيئاً فى شكل صورة العالم » وصورة العالم فى رأى الادريسى كرة . ثم إن قول الادريسى « دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم » يفهم منه أن الذى عُمِلَ كان شيئاً ضخما عظيم الجرم ، لا مجرد صفيحة مبسوطة . ومع أن هناك خلافاً فى تقدير الفضة التى دخلت فى ذلك العمل بين ما يقوله الادريسى وما يذكره الصفدى ، فقد أخذ سكياباريللى بقول الادريسى ، فحسب دراهم الفضة التى ذكرها وهى ٤٤٨٠٠ درهماً وقال إنها تزن ١٥٠ كيلوجراماً[1] ، وذهب ميلر إلى أن الذى صنع كان صفيحة لا كرة ، وقدر سمكها بثلاثة ملليمترات ، وعلى هذا الأساس قدر أبعادها : ٣,٥ متراً فى الطول و ١,٥ فى العرض .

وأيّاً كان شكل الصورة الأخيرة لخريطة الادريسى ، فقد وصف لنا بنفسه طريقة تنفيذها ، قال : « فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصّلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن ٤٠٠ رطل بالرومى ، فى كل رطل منها ١١٢ درهماً ، فلما كملت أمر الفَعَلَة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة ،

(١) Luigi Schiaparelli, *L'Italia descritta nel Libro del Re Ruggero Compilato da Edrisi - Ralazione preceduta da un cuadro degli studi geografici in Occidente dall principio dell Impero romano al secolo XIII*, Torino 1883.

على نص ما يخرج إليهم ممثلا فى لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئاً ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه » .

ومعنى هذا أن « لوح الترسيم » أو الخريطة التى صنعها نقلت على الفضة بغاية الدقة مُبَيِّناً فيها : حدود الأقاليم السبعة — الأقطار الواقعة فى كل منها — شواطئ هذه الأقطار وأراضيها — ما فى هذه الشواطئ من الخلجان وما تطل عليه من البحار — مجارى المياه ومنابعها ، أى وديان الأنهار وأحواضها والعيون والآبار والأراضى المزروعة المسكونة والأراضى القاحلة أو الصحراوية غير المسكونة — المدن والمسافات بينها — الطرق المستعملة بين المدن والأقطار مبينة بالأميال أو غيرها من المقاييس المستعملة — الموانى المعروفة .

٧ — وإكمالا لهذا العمل كان لابد من تأليف كتاب مطول يشرح هذه الخريطة : « وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما فى أشكالها وصورها ، غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومسافاتها[1] ومزروعاتها وغلاتها ، وأجناس نباتها وخواصها ، والاستعمالات التى تستعمل بها ، والصناعات التى تنفق بها ، والتجارات التى تجلب إليها وتُحمل منها ، والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هى فى الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها ، وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم[2] وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب « بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وكان ذلك فى العشر الأوائل من يناير الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ٤٥٨ ، فامتُثِلَ فيه الأمر ، وارتُسم فيه الرسم ، وأول ما ابتدئ به الكلام على صورة الأرض ... [3] » .

---

(١) فى الأصل ومماواتها ، ولا معنى له . والصورة التى أثبتناها وردت فى أحد المخطوطات التى رجع إليها أمارى ، وفى مخطوطة أخرى : ومواتها .

(٢) فى الأصل : وزينهم ، وهو جائز فى معنى ما أثبتناه .

(٣) المكتبة الصقلية ، ص ١٨ — ١٩ .

ومعنى هذا أن الادريسى رسم خطة كتابه على أن يكون جغرافية طبيعية وبشرية كاملة للعالم أجمع ، وتخطيطه هنا — إذا أضفنا إليه ما ورد من التفاصيل بشأن الخريطة — مفهوم كامل علمى سليم . وقد سبق الادريسى إلى مثل هذا المنهج المقدسىّ ، ولكن الفرق فى التنفيذ بين الاثنين واسع جداً ، فعلى حين أن المقدسى لم يحقق مما وعد به فى فاتحة كتابه إلا جانباً يسيراً جداً ، نجد الادريسى حققه كاملا فى كتابه ، فأورد وصف كل جزء من جغرافيته بطريقة علمية موضوعية خالصة كما يكتب أى باحث جغرافى اليوم كما سنرى فى الفقرة التالية .

عمل الإدريسى وعلاقته بما قبله

على رغم قلة المؤلفات الجغرافية الوارد ذكرها فى فاتحة نزهة المشتاق يلاحظ بوضوح أن عمله — سواء فى الخرائط أو فى نص نزهة المشتاق — يمثل كل المدارس الجغرافية العربية والاسلامية التى ظهرت إلى عصره فى الشرق أو الغرب الاسلاميين ، فإن أخذه بنظرية الأقاليم السبعة واتباعه إياها يدل على أنه عرف الترجمات العربية لجغرافية بطلميوس واطلع فى الأغلب على أحسن ترجمة لها ، وهى التى قام بها ابن خرداذبة ، ولم تصل إلينا هذه الترجمة ، ولكن ابن خرداذبة يقول فى فاتحة كتابه أنه اعتمد عليها فى تصنيف كتابه « المسالك والممالك » ، ولو أننا استطعنا الحصول على أصل هذا الكتاب لتبينت لنا العلاقة بين الادريسى وهذا الرائد الجغرافى بصورة أوضح ، ولكننا لا نملك إلا المختصر الذى نشره دى خوية . وتدل مناقشة الادريسى لآراء بطلميوس فى بعض الفصول الأولى من « نزهة المشتاق » على أنه أطلع على كتاب « صورة الأرض » لمحمد بن موسى الخوارزمى دون أن يقتنع باتجاهه الفلكى فى الجغرافية . ومن الواضح أن الخوارزمى ومدرسته كان لهما تأثير قليل فى سير العلم الجغرافى عند المسلمين ، حتى إن المقدسى عند ما استعرض كتب الجغرافيين السابقين عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونقدها لم يشر إلى الخوارزمى أو أحد من تلاميذه . وربما كان السبب فى قلة احتفاله بآراء هذه المدرسة أنه اطلع عليها كما عرضها المسعودى فى كتبه ، وقد كانت هذه الآراء قد فقدت كل أساسها الرياضى والفلكى وأصبحت مجرد جداول جافة بالأطوال والعروض ، ومن نتائج ذلك أن عَسُر تطبيقها على المؤلفين حتى لقد قال المسعودى إن جميع المدائن الكبرى فى العالم تقع على خط عرض واحد[١] ، ثم إن الرسوم الواردة فى ذلك الكتاب لا تعد — باستثناء خريطة النيل — خرائط جغرافية ، إنما هى رسوم توضيحية للنص فحسب . ويبدو أن الادريسى باتجاهه العملى الواقعى ، استبعد من أول الأمر تلك المؤلفات الفلكية ، لأنها لا تفيد فيما كان يطلبه من وصف البلاد وتحديد مواقعها على صورة تطابق الواقع[٢] .

أما المدرسة التى سار الادريسى فى طريقها ووصل بعملها إلى قمته فهى مدرسة البلدانيين والمسالكيين : مدرسة أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة وأبى العباس جعفر بن محمد المروزى (توفى سنة ٢٧٤/٨٧٧) وأحمد بن محمد بن مطيب السرخسى (توفى ٢٨٦/٨٨٩) وأحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر بن واضح اليعقوبى (توفى ٢٨٤/٨٩٧) ، وغيرهم ممن لم يأخذوا من الفلكيين إلا مفاهيم عامة مثل تقسيم الأرض إلى الأقاليم السبعة ووقوع بعض البلاد على أفلاك بعض النجوم وأثر ذلك فى الأخلاق والمزاج ، ثم اعتمدوا بعد ذلك فى بناء صلب كتبهم على أقوال الرحالة والتجار وأهل البلاد وقوائم الخراج

---

(١) نشر كتاب صورة الأرض للخوارزمى هـ. فون مجيك H. V. Mzik سنه ١٩٢٦ . والظر مادة «جغرافية» فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) ص ٦٨ .

(٢) انظر عن هذه المدرسة الفلكية وتقدير قيمة أعمالها :

Ahmad Zaki Walidi, *Der Islam und die Geographische Wissenschaft, Geographische Zeitschrift*, 1934, p. 361 sqq.

George Sarton, *Introduction to the History of Science*, vol. II, Baltimore, 1927-1931.

ووثائق الدولة إذا أمكن ، وذلك واضح من تفصيل منهج الإدريسى كما يتبين فى فاتحة كتابه التى أتينا بمعظم فقراتها .

ويتجلى ذلك بصورة أوضح إذا نحن قارنا طريقة الادريسى فى نزهة المشتاق بطريقة المسالكيين والبلدانيين من أهل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مثل أبى بكر بن محمد بن إسحق بن الفقيه المعروف بالهمدانى (ألف كتابه البلدان سنة ٢٩١/٩٠٢ على الأغلب ، وليس لدينا إلا مختصره الذى عمله جعفر ابن على الشيرازى سنة ٤١٣/١٠٢٢) وأبى الفرج قدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣١٠/٩٢٢ ، وكتابه «الخراج» إن هو إلا قطعة من موسوعة كبيرة جمع فيها أشتات العلوم والمعارف فى عصره ، وأبى على أحمد بن محمد بن اسحق ابن رُسْتَه ، وهو موسوعى آخر لم يبق لنا من كتابه الجامع المعروف بالأعلاق النفيسة إلا جزؤه السابع ، وهو يضم لحسن الحظ أوصاف بعض الطرق الكبرى فى مملكة الاسلام ، ووصفه هذا هو النموذج الذى احتذاه المسالكيون بعده ، وأثره واضح فى وصف الطرق عند الادريسى ، ثم مدرسة الجغرافيين الخرائطيين وأهمهم البلخى والاصطخرى وابن حوقل وآخر من انتهى إليه علم المسالك والممالك والبلدان فى الشرق وهو المقدسى .

هذه الجماعة الأخيرة هى التى ابتكرت طريقة رسم «الأشكال» أو «صور الأقاليم» واعتبارها الأساس الحقيقى للعلم الجغرافى ، ثم تكون النصوص المكتوبة بعد ذلك شرحاً وتوضيحاً لها ، وكان معولهم فى جمع المعلومات اللازمة لهذا الشرح على أقوال أهل البلاد والرحالة أو الرحلة والمشاهدة المباشرة إذا أمكن . ولم تصل إلينا مجموعة خرائط أبى زيد أحمد بن سهل البلخى المسماة «بالأشكال» أو «صور الأقاليم» ، ولا الكتاب الذى يشرحها المسمى «بالمسالك والممالك» ، ولكن معظم نص هذا الأخير وصل إلينا برواية أبى اسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخرى فى كتابه المسمى «بالمسالك والممالك» أيضاً ، فإن قراءة نص هذا الأخير تدل على أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب البلخى ، حتى لقد ذهب بعض

الباحثين المحدثين إلى أن الإصطخرى لم يصنع أكثر من أن نقل كتاب البلخي مع زيادات وتعديلات طفيفة جداً[١].

ويستتم الكلام عن هذه الجماعة بذكر ابن حوقل، أبى القاسم محمد النَّصِّيبى، فإنه وإن كان رحالة جوابَ آفاق ومعظم معلوماته مستقى من مشاهداته وتحقيقاته إلا أن كتابه «المسالك والممالك» يقوم على أساس من كتاب الإصطخرى، والتشابه بين النصين فى الفصول الأولى خاصة يصل إلى الحرفية[٢]، بل يبلغ التشابه إلى درجة أن ابن حوقل ينقل عن الإصطخرى عبارات لم يكن يصعب عليه أن يجد ما يؤدى معناها لولا ذلك الالتزام[٣].

والأساس فى هذه الكتب الثلاثة هى «الصور» أو «الأشكال» أى ما نسميه نحن بالخرائط، وينص كل من الإصطخرى وابن حوقل على ذلك فى فاتحة الكتاب، بل إن منهجهما فى رسم الصور وتقسيمها واحد، يبدأ بصورة عامة للأرض، ثم تليها مجموعة خرائط تفصيلية، لكل إقليم أو ناحية خريطة وهما يقولان فى تفصيل هذا المنهج: «فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يُسلك صورةً إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه واتصال بعضه ببعض ومقدار كل إقليم من الأرض...» ... ثم «أفردت لكل إقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة بينت فيها شكل الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى».

---

(١) انظر: De Goeje, *Die Istachri-Balchi-Frage* Z. D. M. G., XXV), p. 42, sqq.

J. H. Kramers, *La question Balhī - Istabrī - Ibn Ḥawkal et l'Atlas del Islam*, Acta Orientalia, X, 9 sqq.

(٢) راجع الصفحات الأولى من نص كل من الكتابين وخاصة ما يتعلق بتقسيم الأقاليم وحدود الممالك.

(٣) لاحظ قول ابن حوقل: فابتدأت بديار العرب، لأن القبلة بها ومكة فيها، وهى أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التى لم يشركهم فى سكناها غيرهم... الخ (ص ١٨ — ١٩) وهذا الكلام يرد حرفياً تقريباً عند الاصطخرى، ص ١٢ — ١٣.

بيد أن الخرائط التى يضمها كل من الكتابين تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً يدل على تقدم ظاهر فى تصور الأطالس وطريقة تقسيمها ورسمها ، وما دمنا نستعرض الآن تطور هذا الفن حتى الإدريسى فلنذكر محتويات كل « أطلس » منهما حتى تتضح الزيادة التى أتى بها الادريسى والخطوة التى خطاها فى هذا الميدان .

فأما خرائط الإصطخرى فلم تصل إلينا ، ولكنه أورد بيانها فى مقدمة كتابه ، وعددها — بعد صورة الأرض — عشرون هى :

١ — ديار العرب
٢ — بحر فارس
٣ — المغرب
٤ — مصر
٥ — الشام
٦ — بحر الروم
٧ — الجزيرة
٨ — العراق
٩ — خوزستان
١٠ — فارس
١١ — كرمان
١٢ — المنصورة وما يتصل بها من بلاد الهند والسند والاسلام
١٣ — أذربيجان وما يتصل بها
١٤ — كور الجبال
١٥ — الديلم
١٦ — بحر الخزر
١٧ — المفازة التى بين فارس وخراسان
١٨ — سجستان وما يتصل بها
١٩ — خراسان
٢٠ — ما وراء النهر

وأما خرائط ابن حوقل فقد وصلتنا كاملة ، وأدرجها ج. هـ. كرامرز فى الطبعة الثانية من كتاب صورة الأرض (١٩٣٨) ، وعددها ، بعد صورة الأرض اثنتان وعشرون ، هى :

١ — ديار العرب
٢ — بحر فارس

٣ — المغرب من مصر إلى القيروان ٤ — المغرب من القيروان إلى طنجة والأندلس

٥ — مصر من الجيزة إلى البحر ٦ — مصر من الجيزة إلى النوبة

٧ — الشام ٨ — بحر الروم

٩ — الجزيرة المشهورة بديار ربيعة وبكر ودجلة والفرات ١٠ — العراق وبطائحها إلى البحر

١١ — خوزستان ١٢ — فارس

١٣ — كرمان ١٤ — بلاد السند مع نهر ملتان وما يصاقبه من بلاد الهند والاسلام

١٥ — أذربيجان ١٦ — الجبال وأعمالها

١٧ — الديلم وطبرستان ١٨ — بحر الخزر

١٩ — برية فراسان وفارس ٢٠ — سجستان

٢١ — خراسان ٢٢ — ما وراء النهر

ونلاحظ أولا أن هذه الخرائط كلها هى خرائط العالم الإسلامى وحده ، ومن هنا فقد سميت مجموعة خرائط البلخى والأصطخرى وابن حوقل « بأطلس الإسلام » ، وتضاف إليها الخرائط التى كانت فى كتاب « أحسن التقاسيم » لمحمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى ، فقد كان هو الآخر يضم رسوماً فقد قال : « وأوضحنا الطرق لأن الحاجة إليها أشد ، وصورنا الأقاليم لأن المعرفة بها أروح[1] » وواضع مصطلح أطلس الإسلام ، هو كونراد ميلر فى دراسته القيمة على الخرائط الإسلامية .

ولا شك فى أننا لو عثرنا على خرائط المقدسى لوجدنا الحلقة المفقودة بين خرائط ابن حوقل وخرائط الإدريسى ، فإن تصور المقدسى للأقاليم يكاد يشف

---

(١) أحسن التقاسيم للبشارى المقدسى ، بتحقيق دى خوية ، ص ٨ .

عن هيئة الخرائط كما صورها[١] . ولم يذكر الإدريسيُّ المقدسيَّ بين من أخذ عنهم ، ولكننى تبينت نقله عنه فى أكثر من موضع ، مثال ذلك :

يقول المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٥٨

... فأما الأرض فإنها كالكرة موضوعة جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ، والنسيم حول الأرض ، وهو جاذب لها من جميع حوانبها إلى الفلك وبِنْيَةُ الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ، لأن الأرض بمنزلة الحجر الذى يجذب الحديد ... والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب ، وهذا طول الأرض ، وهو أكبر خط فى كرة الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك .

ويقول الإدريسى فى فاتحة نزهة المشتاق :

... الأرض مستقرة فى جوف الفلك ، وذلك لسرعة الفلك ، وجميع المخلوقات على ظهرها ، والنسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ، بمنزلة المغنطيس الذى يجذب الحديد إليه .

فالأرض مقسومة بقسمين ، بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب ، وهذا هو أطول [خط فى] الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك .

وإذن فقد رجع الادريسى إلى المقدسى واعتمد عليه ، وخاصة فى هذه المفهومات العامة الخاصة بهيأة الأرض ووضعها فى الفلك وقسمتها بخط الاستواء

---

(١) انظر وصف المقدسى لمملكة الاسلام ، أحسن التقاسيم ، ص ٦٢ — ٦٣ .

إلى قسمين وما إلى ذلك مما نجده متواتراً عند جغرافيينا من الخوارزمي فصاعدا ، ولكن ألفاظ الادريسى هنا أقرب إلى ألفاظ المقدسي ، ولهذا رجحنا أن يكون أخذه عنه لا عن غيره . وربما كان تشبيه وضع الأرض فى الفلك بالمح فى البيضة راجعاً آخر الأمر إلى ابن رستة ، فهو أول من قال بذلك بين جغرافيي العرب ، ولكن الادريسى اختار قول المقدسى ، وهو محق فى ذلك ، لأن المقدسى دون شك أكبر مَسَالِكِيّ الشرق الإسلامي قبل الادريسى ، وهو لم يدرس إلى الآن الدراسة التى هو جدير بها .

ولكن الادريسى إذ أخذ هذه الأقوال أضاف إليها من علمه وذكائه وجعل تلك المفهومات العامة أقرب إلى صورتها التى هى عليها اليوم ، خذ مثلا قوله : « ومع أن الأرض كرة ، هى غير صادقة الاستدارة ، منها منخفض ومنها مرتفع ، ولهذا قيل فيما انكشف أنه تضاريس ، والبحر محيط بنصف الأرض إحاطة متصلة ، دائر بها كالمِنْطَقة ، لا يظهر منها إلا نصفها ، وهو ما دارت عليه الشمس فى قوس النهار ، مثل بيضة مُغَرَّقَة فى ماء ، انكشف منها ما انكشف وانغمر ما انغمر» والمراد بنصف العبارة الثانى هو إحاطة البحار باليابس فى النصف الشمالى وبعض الجنوبى من الأرض ، بحسب تصور الادريسى ، وهو تصور لا يبعد عن الصحيح المقرر ، ومن الغريب مع هذا الوضوح أن الباحث الهندى مقبول أحمد فهم أول هذه العبارة على أن الادريسى لم يقل بكروية الأرض وترجم عبارة الادريسى التى رويناها ترجمة تدعو إلى الدهشة حقاً ، ومن الغريب كذلك أنه ينسب هذا الكلام إلى لويجى سكيابارلى فى مقدمته للجزء الذى نشره عن إيطاليا من نزهة المشتاق ، ولم نجد مثل هذا القول فى كلام سكيابارلى فى الموضع الذى أشار إليه[1] .

---

(١) Maqbūl Ahmad, *India* ... p. 7. ونص عبارته :

Al-Idrīsī held the conception that the Sphericity of the earth was not true ..l

ويلاحظ أن مقبول أحمد فى كتابه هذا يغمط قدر الادريسى بصفة عامة ، وهو فى هذا يتابع أستاذه مينورسكى وهو أيضا على هذا الرأى ، كما يبدو فى تقديمه للكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وربما كان هذا الاتجاه نحو ما هو واقعى ومنطقى هو الذى صرف الادريسى عن الاعتماد على «المسالك والممالك للبكرى» ، فإن هذا الكتاب يبدأ بمقدمات طويلة عن أصل الخلق وسِيَر الأنبياء ، ولا يصل القارئ إلى الأجزاء العلمية من الكتاب إلا بعد أن يقطع نحو نصف الجزء الأول ، ولعله رأى بعد ذلك أن البكرى يعتمد على كتابى بطلميوس الرئيسيين ، وهما «جغرافيا» و «المجسطى» وعلى مؤلفين آخرين أهمهم العُذْرى ، وكان كتاب العذرى بين يديه ، ثم إن الجزء الأهم من جغرافية البكرى وهو الخاص بالمغرب والبحر الأبيض لا يقدم له شيئاً جديداً ، فهو — أى الادريسى — خبير بالمغرب والبحر الأبيض ، كما يدل على ذلك كلامه ، وسواء أكان هذا هو الصحيح أو أن كتب البكرى لم تصل إليه ؛ فقد خسر الادريسى بعدم الاعتماد عليه ما خسره بعدم الاطلاع على أبى الريحان البيرونى ، فإن البكرى يقارب البيرونى فى الغرب الإسلامى فى علمه وذكائه وأمانته ، وإن كان البيرونى ناقداً مدققاً يبحث كل ما يقرؤه أو يصل إلى علمه ، فى حين كان البكرى ناقلا فحسب ، وهو نفسه يقول : «وإنما ننقل فى كل موضع من هذا الكتاب ما يُسْتَنْسَخُ لنا ، وعندنا كتب الناس ، فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده ، لا ما نقم على صحته»[1] ، وقد أسرف البكرى فى التواضع فى هذا القول ، لأنه — وان كان لا ينقل عنهم — كان يقرأ ما يطلع عليه قراءة جيدة ويعرضه عرضاً هو غاية فى الوضوح ، مثال ذلك كلامه عن الأقاليم السبعة ، وهو كلام لا يقل فى الدقة والإيجاز والوضوح عما نجده عند الادريسى وياقوت[2] .

وعلى أى الأحوال ، فإن الادريسى لم يغادر شيئاً هاماً مما وصل إليه الجغرافيون المسلمون — عدا البيرونى — فيما يتصل بالتصور العام للأرض

---

(١) مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٣٠٤٤ ، ورقة ٩٩-١ .

(٢) راجع نفس المخطوط ، الفصل الذى عنوانه « جملة جمعناها من كتب فلاسفة اليونانيين فى الأقاليم السبعة» ورقة ٩٩ ب وما بعدها .

والكون ، وكل ما فاته هو ذلك الإيجاز البليغ الذى نجده عند البكرى ، ولا شك أن هذا الأخير أوجز كل ما عند الخوارزمى وابن رستة عن كروية الأرض عند ما قال : « وقد بيَّن أهل العلم بالهندسة بغير وجه من البراهين أن الأرض ثابتة فى وسط العالم ، قائمة فى مركزه ولا حركة لها فى ذاتها ، وأنها مستديرة الشكل ، وأن جميع الأثقال تميل ويرجعن إليها بالطبع ، وأن كل جزء من أجزائها البعيدة عن المركز بِدَوْرِ الارتفاع والانخفاض ، مطيعة إلى مركزها ، وأن الفلك المستقيم يدور عليها بجميع ما يحيط به من الأفلاك والكواكب السيارة والثابتة دورةً واحدة فى كل أربع وعشرين ساعة مستوية ، هى جملة النهار والليل من آخر النهار ، وركب الله عز وجل على الأرض جرم الشمس ، لعلمه بالحكمة التى ينبغى أن يكون عليها تركيب العالم فى فلك أُخْرِجَ مركزه عن مركز الأرض بدرجتين ونصف من درج فلك البروج ، فلذلك ما اختلفت حركة الشمس على الأرض ، فَحَمِيَ مزاج جوهر الهواء المحيط بالناحية الجنوبية ، وكان الجزء المعمور من الأرض فى الناحية الشمالية ، إذ كل حيوان بطبعه أحمل للبرد منه للحر ، ألا ترى أنه يتولد فى الماء من الحيوان ما لا يحصى كثرة ، وكذلك من النبات ، ولا يتكون فى النار منه شىء إلا الشاذ النادر ، إن صح ذلك فيه . . . »[1] فهذه هى خلاصة آراء جغرافيينا جميعاً فى هيئة الأرض وطبيعتها وعلاقتها بالشمس والكواكب ، ولم يزد الإدريسى على هذا إلا تفاصيل لا تمس الصلب ، وعلى هذا ظل الناس إلى أيام كوبرنيق .

والخلاصة أن الادريسى يمثل القمة التى وصل إليها العلم الجغرافى فى الشرق والغرب على السواء ، فقد أخذ من علم اليونان خلاصة ما فيه ، وأخذ عن مدرسة الجغرافيين الفلكيين زبدة آرائهم ، ثم أخذ عن مدرسة المسالكيين فكرة عمل الخرائط والأطالس واعتبارها أساس الجغرافية ، وطوَّر هذه الناحية من

(١) المسالك والممالك للبكرى ، نفس المخطوط ، ورقة ١٠٤

« أطلس الإسلام » إلى « أطلس العالم » ، وذلك هو تجديده الأكبر ، فهو أول جغرافى فى التاريخ نظر هذه النظرة العامة وسما إلى مفهوم عالمى للعلم الجغرافى ، وحق له بذلك أن يوصف بأنه أعظم جغرافى ظهر فى الدنيا إلى مطالع العصر الحديث ، ثم قبس من المسالكيين المشارقة هذه الدقة فى وصف الطرق والبلاد وتقدير المسافات ، وأخذ عن المسالكيين الأندلسيين هذا الالتفات إلى الزروع والمحاصيل والمنتجات والصناعات والمتاجر وطرقها وأصنافها ، وأضاف إلى هذا كله شيئاً لم يعرفه أحد من السابقين — حتى المقدسى — وهو تحقيق أقوال الكتب والرحالة ومقارنة بعضهـا ببعض واختبار الأصح ، ثم تحقيق المقاييس والأبعاد وتحويلها إلى مقياس الرسم « بمقاييس الحديد » وتوقيع ذلك على الخريطة شيئاً فشيئاً كما يقول .

مؤلفـات الإدريسى

لا زال الخلاف شديداً بين الباحثين حول إحصاء أعمال الشريف الإدريسى ، ولكن الأستاذ جيوفانى أومان استطاع — بعد بحث طويل — أن يحصر هذه المؤلفات فيما يلى :

١ — نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، أو الكتاب الرجارى أو كتاب رجار ، تم تأليفه سنة ٥٤٩/١١٥٤ ، وسنعرض له بالبحث فيما بعد .

٢ — كتاب الجامع لأشتات النبات أو كتاب المفردات أو كتاب الأدوية المفردة . كان المظنون أن هذا الكتاب فقيد ، ولكن ماكس مايرهوف عثر على إحدى مخطوطاته فى مكتبة فاتح فى استامبول ، وتحقق من أنها تضم بالفعل كتاب الجامع لأشتات النبات للشريف الادريسى ، ونشر عنه مقالا

قصيراً فى سنة ١٩٢٩[١] وفى نفس الوقت نشر ترجمة ألمانية لأهم فصول الكتاب فى مقال آخر[٢] . والمخطوطة ليست مؤرخة ، ولكن مايرهوف رجّح أن الفراغ منها كان فى سنة ٩٠٦ — ٧/١٥٠٠ وقد ذكر الناسخ أنه نقلها عن الأصل الذى كتبه الادريسى بيده ، وتتألف المخطوطة من ١٤٨ ورقة (٢٩٦ صفحة) مقسمة إلى ثلاثة كتب ، وفى الفاتحة يقول الادريسى إن الكتاب يتضمن ذكر ١٢٠٠ دواء مع وصفها ، ولكن الأدوية التى يرد ذكرها فى المخطوطة تبلغ ٦١٠ فقط مرتبة على حروف المعجم ، وواضح أنه سقط من الأصل جزء كبير ، فإنها لا تضم إلا الأبواب الخاصة بأربعة عشر حرفاً فقط من حروف الأبجدية ، أى أن الضائع حوالى نصف الكتاب ، وقد ورد اسم الإدريسى فيها هكذا : محمد بن محمد بن عبد الله الأندلسى الحسينى . ويلاحظ أن ابن أبى أصيبعة يرسم اسم الإدريسى على هذه الصورة .

وهذا النصف الباقى من الكتاب يدل على علم واسع بالنبات والأعشاب والأدوية ، وهو يمتاز بدقة فى رسم أسماء العقارات ووصف خصائصها لا نجدها إلا عند ابن سينا وابن البيطار ، مما يجعل للادريسى مكانا ممتازاً بين النباتيين والعشابين والأطباء فى العصور الوسطى ، وبهذا الامتياز وصفه فعلا ابن البيطار وابن أبى أصيبعة .

وذهب أمارى إلى أن هذا الكتاب قد يكون أول ما كتب الإدريسى ، وأنه كتب قبل أن يفد الادريسى على صقلية[٣] ، وهذا هو الذى رجحناه فيما سبق من كلامنا ، وعلى هذا الفرض يكون كتاب النبات هو أول ما ذاع

---

(١) Max Mayerhof, *Eine Arzneimittellehre des arabischen Geographen Edrisi*, in *Forschungen und Fortschritte*, 5° Jahr, 1929, Heft 28, ss. 388-390.

(٢) Idem, *Allgemeine Farmakologie und Botanik bei Idrisi* in *Archiv für Geschichte der Mathematik, Naturwissenschaft und Technik*, Berlin, XII (1929), pp. 45, ff. 225.

(٣) Amari, *op. cit.* 2ª ediz. Catania, 1939, III, parte 3ª, p. 702.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعرف من مؤلفات العلامة الكبير ، وقد سبقته شهرته إلى صقلية فعرفه به رجار قبل أن يفد على الجزيرة المرة الأولى فى طريق العودة إلى المغرب ، قدمه به إليه أبو عبد الله محمد بن القاسم بن حمود ، إذا صدق ما ذهبنا إليه ، وبهذا يكون الإدريسى قد وفد على الجزيرة أول مرة نباتياً ، ثم تبينت لرجار ملكاته فى الجغرافية ، فركز جهده عليها فى المرة الثانية .

٣ — كتاب روض الأنس ونزهة النفس أو كتاب المسالك والممالك . ذكره ابن بشرون ، وقال إنه ألفه لغليالم الأول (٥٤٩/١١٥٤ — ٥٦٢ — ٥٦٣/١١٦٦) خليفة رجار الثانى ، ولم نعثر عليه ، ولكن لدينا مختصراً له فى مكتبة حكيم أوغلو فى استامبول برقم ٦٨٨ ، ولهذا المختصر عنوانان ، أحدهما فى أوله وهو : « أنس المُهَج وروض الفَرَج » والثانى فى آخره ، وهو : روض الفرج ونزهة المهج . ويسمى هذا المختصر بالادريسى الصغير ، تمييزاً له عن نزهة المشتاق الذى يسمى الادريسى الكبير . وكان أول من نبه إلى هذا المختصر كريستيان زايبولد فى المادة التى أدارها على الادريسى فى الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية . وكان هوروفتس قد عثر على هذه النسخة قبل ذلك وأشار إليها ، ثم عثر جابرييل فِرَّان Gabriel Ferrand على نسخة أخرى من نفس المخطوط ، وجدها فى دمشق ، ولكن هذه النسخة الثانية تنقصها الخرائط ، ويظن أنها منسوخة عن مخطوطة استامبول . وقد نشر مجموعة الخرائط الكاملة الموجودة فى مخطوطة استامبول كونراد ميلر فى أطلس الخرائط العربية الذى أشرنا إليه مراراً .

وقد عنى بدراسة هذا المخطوط نفر من الباحثين مثل توليو تالجرين وكراسوز ونالينو ويوسف كمال واهتموا بمقارنته بنزهة المشتاق وتَبَيُّن وجوه المشابهة والاختلاف بينهما فى التقسيم ورسم الأعلام وما إلى ذلك . ووردت فى آخر المخطوط عبارة : واشتمل الفراغ عليه فى العشر الأوسط من شهر صفر سنة ٥٨٨/١١٩٢ .

ومخطوطة إستامبول تقع فى ١٦٢ ورقة من القطع الكبير مسطرتها ١٦ سطراً فى الصفحة[١] .

٤ — أما الكتاب المسمى «نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» فمختصر ناقص مشوه من كتاب الإدريسى الكبير ، وقد وُجدت منه نسخة فى مكتبة آل مديتشى فى روما ونشرت نشراً سيئاً بدون مقدمة أو تعليق أو تاريخ على مطبعة آل مديتشى ، ثم قام بعمل ترجمة لاتينية لها راهبان مارونيان كانا يشتغلان مترجمين فى البلاط الفرنسى ، هما جبرائيل صهيون Gabriel Sionta ويوحنا حزرون Johannus Hesronita ، ونشرا الترجمة فى باريس سنة ١٦١٠ باسم Geographía Nubiensis أى جغرافية النوبة لأن الجزء الذى نشراه يبدأ بالكلام عن النوبة ، ووردت فيه عبارة «أرضها» فقرآها «أرضنا» ، فظنا أن المؤلف نوبى يكتب عن بلاده . ولم يُتبين أن الكتاب للادريسى إلا فيما بعد[٢] ، ويوجد من هذه الطبعة نسخة مصورة يدار

---

(١) Tuulio Tallgren, *Du Nouveau sur Idrīsī*, p. 89.
Carlo Nallino, apud Amari, *Storia dei musulmani di Sicilia*, 2ª ed., III, 3, p. 681.
Youssouf Kamal, *Monumenta Cartografica Africae et Aegypti*, Leiden, 1935, p. 106.

(٢) Cf. Casiri, *Bibliothecae Arabico-Hispanae Escurialensis*, tomus II (Matriti, 177.
وعنوان ترجمة الراهبين المارونيين :
Geographia Nubiensis, id est accuratissima totius orbis in septem climata divisi descriptio continens praesentim exactam Universiae Asiae et Africae, rerumque in iis hactenus incognitarum explicatione. Recens ex Arabico in Latinum versa a Gabriele Sionita, Siriacarum et arabicarum literarum professore atque interprete Regio, et Joanne Hesronita, earundum Regio interprete, Maronitis. Parisiis, 1619.
انظر : Geovanni Oman, *op. cit.*, p. 50-51.
وقام بعمل ترجمة إيطالية لهذا المختصر برناردينو بالدى Bernardino Baldi وجعل عنوانها :
Geografia Universali, libro intitulato Horto Delitioso de le Regione, Paesi, Provincie, Isole, Citta et Horizonti.
ولكن هذه الترجمة الايطالية لم تنشر ، وهى باقية مخطوطة فى مكتبة جامعة مونبلييه بفرنسا تحت رقم H 299
وذكر مفهرس مكتبة آل مديتشى أن نشر النسخة العربية كان فى فلورنسا سنة ١٥٩٧ ولكن الأستاذ دى شنورر أنكر ذلك التاريخ وقال إنه لم يجد ما يدل على صحته .
والرأى فى هذا المختصر أنه سىء ناقص وغير دقيق ، بل هو تشويه لكتاب نزهة المشتاق ، قال بهذا كراتشكوفسكى وليلوبل ، وقام جيوفانى أومان بمقارنته بأصل نزهة المشتاق وأمن على أقوال من سبقوه ، ثم أضاف انه لم يستطع الاهتداء إلى المنهج الذى اتبع فى عمله . Cf. Giovanni Oman, *op. cit.*, p. 51-52

الكتب المصرية تحت عنوان : « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار... الخ » (رقم ٢٦٥ جغرافيا) .

٥ — وذكر جيوفانى أومان أن كتاب « جنى الأزهار من الروض المعطار » المنسوب لتقى الدين أحمد بن على المقريزى إنما هو فى الحقيقة مختصر لـنزهة المشتاق عمله رجل يسمى شهاب الدين أحمد المقريزى ، وعلى هذا فلا علاقة له بمؤلفات تقى الدين المقريزى أو بكتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى . وقد أثبت ذلك فولرز فى مقال له ودلل على أن الكتاب مختصر لنزهة المشتاق قام به رجل من أهل النوبة[١] وذكر ذلك أيضاً بلوشيه فى فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية فى باريس[٢] ، ثم أثبت الأمر بصفة نهائية جاستون فييت فى مقال له تعليقاً على نشرة ليفى بروفنسال للأعلام الأندلسية من الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري، وقام بعد ذلك بانتقاء الأعلام المصرية من « جنى الأزهار » هذا ونشر ترجمة فرنسية لها[٢] ويلاحظ أن فى المكتبة الأهلية فى باريس مخطوطاً لذلك المختصر عنوانه « جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار »[٣] .

كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق

مخطوطات نزهة المشتاق مفرقة فى عدد عظيم من مكتبات الدنيا ، ومن الغريب أن مكتبة منها لا تجمع الكتاب كله ، حتى القطعتان الموجودتان فى المكتبة الأهلية فى باريس تحت رقمى ٢٢٢١ و ٢٢٢٢ ليستا كاملتين ، والمتفق

---

(١) K. Vollers, *Note sur un manuscrit arabe altribués à Maqrīzī*, dans *Bulletin de la Société Khediviale de Géographie*, IIIe Série, Le Caire, 1893, pp. 131-139.

(٢) E. Blochet, *Bibliothèque Nationale - Catalogue des Manuscrits Arabes des nouvelles aquisitions* (1884-1924), Paris, 1925, p. 140.

(٣) Gaston Wiet, *Un resumé d'Idrīsī*, dans *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte*, tome XX, 2a fasc., 1939, pp. 161-210.

عليه بين العلماء أن هاتين هما أحسن مخطوطات النزهة وأدقها وأولاها بالثقة ، وقد تأكدت من ذلك عند مباشرتى تحقيق الجزء الخاص بمصر من ذلك الكتاب العظيم ، وتليهما القطعة التى كانت فى مكتبة المستشرق إدوارد بوكوك . وفى مكتبات استامبول قطع أخرى وفى دار الكتب بالقاهرة مجلد مخطوط يسميه فهرس الدار بالجزء الأول وهو يشمل الفصول الأولى من الكتاب ثم الإقليمين الأول والثانى عدا الجزئين التاسع والعاشر من هذا الأخير ، وبه عشرون خريطة لبعض أجزاء الاقليمين الأول والثانى (رقم ١٥٠ جغرافيا) . ولكن الكتاب رغم هذا التفرق الشديد كامل ، ولدينا من معظم أقسامه مكررات وافرة ، وقد جمع المعهد الإيطالى للشرق الأدنى والأقصى صوراً من هذه القطع كلها وبدأ العمل فى نشر نزهة المشتاق كاملا على أيدى نفر من المتخصصين .

وهذه هى المرة الأولى فيما نعتقد تجمع فيها أشتات كتاب نزهة المشتاق فى مكان واحد وتدرس على أنها كلٌّ واحد ، ولقد نُشرت قطع كثيرة منه ، وتُرجمت كل قطعة منها إلى لغة من اللغات الأوروبية ودرست هذه الأجزاء المنشورة دراسة طيبة، وكان أول ما نشر من هذه القطع مجلداً أول في روما سنة ١٨٧٨ يضم المقدمات والجزأين الثاني والثالث من الاقلم الرابع بعناية ميكيلى أماري وتشلستينو سكيابارلى، ونشرت بعد ذلك قطع أخرى خاصة بالمغرب والاندلس والمانيا ووسط أوربا وبلاد شمال أوربا وانجلترا وروسيا وفلسطين وآسية الصغري(١) والهند، وأصدر كل باحث رأيه فيما نشر وبحث، وهذه الآراء

(١) أحصى كل ما نشر من الادريسى وعنه الأستاذ جيوفانى أومان فى دراسة قصيرة جامعة هى أحسن دراسة ببليوغرافية عن الادريسي إلى الآن :

Giovanni Oman, *Notizie bibliograpiche sul geografo arabo al-Idrīsī* (XII secolo) e sulle sue opere (Estratto dagli *Annali dell'Instituto Universitario Orientale di Napoli*. Nuova serie, volume XI. Roma, 1961.

والأستاذ أومان هو الذى يشرف مع الأستاذة Laura Veccia Vaglieri على الطبعة الكاملة لنزهة المشتاق التى تعد حالياً في روما .

تجمع بين الاعجاب الكبير بالإدريسى من ناحية ، والنقد اليسير أو الشديد لما كتب عن هذا البلد أو ذاك ؛ واعتمادنا فيما نقول هنا على هذه القطع وترجماتها وما قاله محققوها بالإضافة إلى ما تبيناه فى اعداد القسم الخاص بمصر ولكن الحكم على عمل الإدريسى كله لن يصبح سليماً إلا إذا نشر الكتاب كله ودرس ككل واحد .

واعتماداً على ما وصل إلينا من هذه الأجزاء المنشورة ومقدماتها والدراسات الخاصة بها نستطيع أن نقول ان القسم الأول من «نزهة المشتاق» الذى يشمل المقدمات العامة عن صورة الأرض وهيئتها ومقدار المسكون منها وتقسيمه إلى الأقاليم السبعة وذكر البحار ومبادئها وما تنتهى إليه وما يلى سواحلها من البلاد والأمم وما إلى ذلك ، يدل على فهم كامل لطبيعة العلم الجغرافى وموضوعه ، وقد تناولنا الفصول التمهيدية فيما سبق وأعطينا فكرة عنها ، وأتينا بقطع منها ، وربما لم يكن فيما أتى به الإدريسى فيها شىء جديد لا نجده فيما تقدمه من الكتب ، ولكن الجديد حقاً هنا هى النظرة السليمة إلى الجغرافية كعلم قائم بذاته لا يختلط بالتاريخ ولا تمتزج مادته بالأساطير ولا تتعلق حقائقه بمسائل الفلك ، والإدريسى هنا جغرافى موضوعى يذكر الحقائق كما تصورها واضحة مجردة ويصوغها فى أسلوب بسيط منطقى لا تكلف فيه ولا تظاهر بالعلم ولا دعوى برحلات طويلة أو قراءات مستبحرة .

وبعد هذه المقدمات يتحدث الادريسى عن قسمة الارض إلى الأقاليم السبعة ، ويحدد كلا منها بصفة عامة ، وتقسيمه هذا هو الذى اعتمد عليه من تناول الموضوع من الجغرافيين بعده ، وخاصة ابن سعيد وأبى الفدا وياقوت .

ثم يخصص الادريسى لكل من الاقاليم باباً ثم يقسمه إلى عشرة فصول لكل جزء من أجزاء الأقاليم فصل ، وهو يسير من الغرب إلى الشرق ،

فيبدأ فى كل إقليم من المحيط الأعظم أى الأطلسى عند الجزائر الخالدات ، ثم ينتقل إلى الجزء الذى يليه وهكذا حتى يصل إلى الجزء العاشر عند بحر الصين ، وهو عنده آخر الدنيا شرقاً ، وبحر الصين فى رأيه جزء من المحيط الأعظم الذى يحيط باليابس كله وتتصل مياهه بحراً واحداً محيطاً باليابس من كل جهاته وتتفرع منه البحار الكبرى التي توغل فى اليابس كأنها خلجان كبيرة . ولا يخالف الادريسى هذا النظام إلا فى كلامه عن الإقليم الأول جنوب خط الاستواء ، فهو عنده يبدأ من الغرب بصحار ورمال غير مسكونة لشدة الحرارة ، وهذا الطرف الغربى للاقليم الأول جنوب خط الاستواء «لا يظهر فيه البحر المحيط من المغرب الأقصى ولا فى الجنوب ، إذ أنه فسيح مترام لم يصل إلى آخره أحد» ولا يبدأ الادريسى فى الوصف الصحيح فى ذلك الإقليم إلا فى جزئه الثالث ، وهو الذى تقع فيه منابع النيل ، وكلامه فى هذا الجزء قريب من كلام بطليموس عن منابع النيل ، ولكن تصوره أقرب إلى تصور الخوارزمي . وفكرة جغرافيينا القدامى على العموم عن منابع النيل قريبة جداً من الحقيقة ، وإذا نحن استبعدنا الأساطير التى تقال عن جبل القُمُر (أو القَمَر كما ضبطه ياقوت) قلنا أن هذا الجبل يقابل ما يعرف اليوم بجبل كليمانجارو ، وكان الرأى أن النيل ينبع من هذه الجبال وأنه « ينصب عشرة أنهار . . . كل خمسة أنهار من شعبة» ، ثم تتبحر تلك العشرة أنهار فى بحيرتين ، كل خمسة أنهار تبحر بحيرة بذاتها ، ثم يخرج من البحيرة الشرقية منها بحر لطيف يأخذ شرقاً على جبل فاقولى ، ويمتد إلى مدن هناك ، ثم يصب فى البحر الهندى (المراد نهر النيجر ، وكان يعرف بنيل غانة) ثم يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار ، من كل بحيرة ثلاثة أنهار ، ثم تجتمع تلك الستة أنهار فى بحيرة متشعبة» ومن هذه الأخيرة يخرج النيل ويسير شمالا ، ويسمى الجغرافيون مجراه إلى البحر الأبيض بعمود النيل .

ويمد الإدريسى ساحل افريقية الشرقى بعد باب المندب فى اتجاه أفقى تقريباً من الغرب إلى الشرق حتى يصبح موازيا لسواحل جنوب آسيا ، والامتداد يجئ من ناحية ما يعرف الآن بالصومال وإريتريا ، وتقع على هذا الامتداد بلاد بَرْبَرة والزنج وسُفَالة ثم واق الواق وهى آخر المعمور شرقاً جنوبى خط الاستواء ، ويفصل بين آسيا وهذا الساحل الافريقى بحر الهند .

وهذا التصور الإدريسى للساحل الافريقى مشكلة من مشاكل جغرافيته وخرائطه ، لأن بطليوس — بحسب خريطته المتداولة بين الناس — رسم هذا الساحل على نحو قريب جداً مما هو عليه فى الواقع ، ثم إن المواضع التى يذكرها الإدريسى هى نفس المواضع التى يذكرها بطليوس ، بل يزيد عليه مواقع كثيرة مثل سفالة ومُمْبَسَّة ، وجبل عجرد ، ويضيف فى وصفه معلومات كثيرة أخذها عن المسعودى ، وكان من أعلم الناس بهذه النواحى . فكيف يكون تصور بطليوس أقرب إلى الحقيقة من تصور الإدريسى ، مع أن المفروض أنه نقل عنه أو عن نسخة خريطته التى عملها مرينوس الصورى ؟ الحقيقة فيما أعتقد أن خريطة بطليوس الموجودة بين أيدينا ليست هى التى رسمها بنفسه ، وإنما هى رسم جديد صنع فى القرن الخامس عشر الميلادى بعد أن ترجم يعقوب أنجيلوس دى سكاربارياJacobus Angelus de Scarparia كتاب الجغرافية من أصل غير معروف إلى اللاتينية سنة ١٤٠٦ ، وقد نشرت هذه الترجمة بعد ذلك بخمس وستين سنة (سنة ١٤٧٥) فى فيتشينزا فى إيطاليا ، أما النص اليونانى فلم يعثر عليه إلا سنة ١٥٣٣ ، وقد اكتشف فى بازل بسويسرا ، وقام على نشره إرَازْمُوس ، وهنا فقط عرف الناس اسمه الأصلى : « جيوجرافيكى هوفيجيسيس » أى المرشد إلى وصف الأرض ، ولا يضم الأصل الذى ترجم عنه يعقوب انجيلوس دى سكاربارياأى خرائط ، لأن هذه الأخيرة كانت تكوّن الجزء الثامن من الكتاب ، وقد ضاع هذا الجزء من زمن بعيد ، فلابد أن الخرائط قد وضعت فيما بين تمام

الترجمة والنشر ، رسمها الناشرون اعتماداً على الخرائط المعروفة بالبورتولية Portolani أى أدلة الموانئ وقد بدأ ظهورها وتداولها بين الناس فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى[1] . وهى خرائط تدهشنا بدقتها ومقاربتها للواقع ،

---

(١) هذا هو أصح الآراء فيما يتصل بهذه الترجمة ، أما ما يخالف ذلك من التفاصيل فوضع شك كبير لدى المحققين . ولكى يتبين القارىء مقدار الضعف فى هذه الأقوال نورد موجزاً لها : المظنون أن أقدم لمس إغريق لجغرافية بطليموس وصل إلينا يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر أو أوائل الثالث عشر الميلاديين . ومن هذا النص وجدت نسختان أو روايتان ، الأولى تعرف بالمجموعة ا تصاحبها ٢٧ خريطة والثانية تعرف بالمجموعة ب تصاحبها ٦٣ خريطة . وقد حصل على نسخة من المجموعة «ا» بالا ستروزى Palla Strozzi وعهد فى ترجمتها إلى Manuel Chrysolorus مؤسس الدراسات اليونانية فى إيطاليا ، فقام هذا بتكليف تلميذه يعقوب انجلوس دى سكاربارييا بترجمتها إلى اللاتينية ، فقام بها وأتمها سنة ١٤٠٦ وقد ادخلت على هذه الترجمة إصلاحات كثيرة بعد ذلك وأصبحت لمدة قرن من الزمن أساس الدراسات الخاصة بجغرافية بطليموس فى الغرب . وقد نشرت ترجمة المجموعة «ا» بدون خرائط فى فينشينزا سنة ١٤٧٥ ، وكان عالمان إيطاليان قد قاما بعمل نسخة من خرائطها أوائل القرن الخامس عشر وترجما اسماء الأعلام فيها إلى اللاتينية . أما خرائط المجموعة ب فلم تدرس أو تحقق ثم اختفى أصلها ، ووصلت لنا رسوم يقال إنها نسخ منها . وقد ضاعت النسخة الأصلية لترجمة دى سكاربارييا وكذلك الخرائط التى نسخها العالمان الايطاليان ، ولكن بقيت نسخ منها عملها علماء آخرون مثل نسخة الكردينال جيوم فلبستر Guillaume Fillestre سنة ١٤٢٧ وهذه النسخة تعرف اليوم بمخطوطة تانسى ، وهى تضم — إلى جانب الخرائط المنسوبة إلى بطليموس — خرائط أخرى رسمت لبلاد أخرى لم يعرفها بطليموس . وقد تعاقب على العمل فى جغرافية بطليموس هذه وخرائطها نفر من المعنيين بالجغرافية والخرائط فى أوروبا ، ولكنهم جميعاً رسموا خرائط بطليموس كما تصوروها معتمدين على النص حينا وعلى خرائط معاصرة لهم حينا آخر ، وكلهم قال ذلك صراحة ، ومثال ذلك أن Pietro del Massajo الفلورنسى قال إنه «أعاد تكوين» جغرافية بطليموس ورسم خرائطها بنفسه أكثر من مرة ، ففى النسخة التى عملها سنة ١٤٥٨ نجد ٢٧ خريطة بطلمية «مع خرائط أقاليم أخرى جديدة وغير ذلك» Cum additione provinciarum noviter repertarum et alia nonulla وكذلك خريطة إيطاليا التى أضافها الراهب باولينو معتمداً على أخرى رسمها بيترو فاسكونتى Pietro Vasconti ومثل ذلك يقال عن أحسن مخطوطات جغرافية بطليموس وخرائطها وهى التى عملها Dominicus Nicholaus Germanus فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فقد كتب بيده ١٢ نسخة من «جغرافية بطليموس» ورسم خرائطها ، وقال انه ادخل تعديلات و «تحسينات» على النص ، وأعاد رسم الخرائط فى حجم أصغر ايسر تداولا ، بل رسم الخرائط على أساس مسقط ابتكره و «صحح» خطوط الرسم وأضاف خرائط جديدة . وعلى أساس أحد مخطوطات دومينيكوس نيكولاوس جرمانوس طبعت تلك الجغرافية البطلمية المحرفة لأول مرة فى بولونيا بايطاليا سنة ١٤٧٧ ، وأعيد طبعها فى روما سنة ١٤٧٨ . وهاتان الطبعتان =

وينسب فضلها عادة إلى الملاحين الإيطاليين والقطلونيين ، وأعتقد أن الذين رسموها كانوا يعتمدون أيضاً على خرائط ملاحية عربية ، وأبسط دليل على أن هذه الخريطة المنسوبة إلى بطليموس ليست أصيلة هو أن صورة النيل فيها تطابق صورته كما رسمها ووصفها الإدريسى ، فى حين أن وصف بطليموس للنيل ومنابعه يختلف كل الاختلاف عن ذلك ، وبينما نجد جغرافية بطليموس لا تذكر شيئاً جنوب خط الاستواء ، نجد الخريطة المنسوبة إليه تضع منابع النيل جنوب ذلك الخط وعلى صورة قريبة جداً من وضعها الحالى . لقد كان اليعقوبى ثم المقدسى هما أول من وضع هذه المنابع جنوب خط الاستواء ، ولكن تلك الخرائط البطلمية الزائفة تنسب ذلك إليه ، واعتماداً على هذا يقول مؤرخو فن الخرائط إن خريطة بطليموس أدق وأحسن من خريطة الإدريسى ، وإن ما وصل إليه الجغرافى الإسكندرانى فى القرن الثانى للميلاد لم يصل إليه الإدريسى بعد قرابة عشرة قرون ، وهى عبارة يأسف الانسان إذ يقرأها لعلماء لهم قدر ومكانة .

وابتداء من الجزء الأول من الاقليم الأول شمال خط الاستواء نبدأ مع الإدريسى طريقاً أكثر وضوحاً ، فهو يتحدث عن مناطق عرفها وسكنها المسلمون وكتب بعضهم عنها ، فيما عدا الجزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى ، وليس للإدريسى مراجع محددة فيما يتصل بالأجزاء الغربية الأولى من الاقليم الأول ، فلابد أنه جمع كل ما وجده من المعلومات فى شتى الكتب العربية

= هما الأصل الذى ينقل عنه معظم الناس إلى اليوم الخرائط المنسوبة إلى بطليموس . وهذا التحريف الشديد للنص والخرائط الزائفة المنسوبة إلى بطليموس هى التى دفعت أرازموس إلى نشر النص الإغريقى الذى عثر عليه فى نازل كما قلنا . وقد نشره دون خرائط . ومن هنا فقد ظلت الخرائط التى تكلمنا عنها هى المتداولة فى الكتب على أنها خرائط بطليموس .

انظر : Almagia, R., *Monumenta Italiae Cartographica*, Firenze, 1929.

Gallios, L., *Les géographes allemands de la Renaissance*, Paris, 1903.

Lynam, E., *The first engraved atlas of the world; the Cosmographia of Claudius Ptolomaeus*, Bolonia, 1477. Jenkintown, 1941.

Stevens, H. N., *Ptolemey's «Geography»: a brief account of the printed editions to* 1730. 2.ª edition, 1908.

Crone, G. R., *Maps and their makers*, London, 1953.

ونسقها وقسمها على أجزاء ذلك الاقليم على نحو مقبول ، ومع أن ابن سعيد كتب بعده بقرنين واعتمد على كتاب ابن فاطمه الذى يبدو أنه أحسن ما كتب المسلمون عن المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، إلا أننا لا نجد مادة ابن سعيد هنا أغنى بكثير مما عند الإدريسى ، بل إن كلام الإدريسى عن غانة وملكها صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فريد فى بابه ، ولا نجده عند البكرى أو أحد ممن نقل هذا الأخير عنهم .

وتتوالى فصول « نزهة المشتاق » بعد ذلك ، لكل جزء من الأجزاء السبعين فصل ، ولكل إقليم باب يتكلم فيه عن خصائصه العامة قبل أن يدخل فى وصف الأجزاء .

والطريقة التى يجرى عليها فى وصف الأجزاء هى الاعتماد على المدن كنقط ارتكاز للوصف ، فيذكرها واحدة واحدة كأنه يسير فى رحلة فى نواحى الجزء الذى يصفه ، فيصف ما يلقاه من المدن مدينة مدينة ، ويحدد موضعها ويذكر شهرتها وما يزرع حولها وما يصنع فيها وما يتجر به منها وإليها ، وقد يذكر شيئاً عن ناسها ، ثم ينتقل إلى ما يليها حسب اتجاهه ، وفى الطريق يصف ما يلقى من المعالم الجغرافية من نهر أو جبل أو بحيرة ، ويشير إلى المناخ ، ثم يذكر المسافات بين كل مدينة وأخرى .

وهو فى ذلك كله يجرى على طريقة ثابتة لا يغيرها إلا إذا أعوزته المادة عن شىء من هذه الأشياء التى يهتم بها ، بل يستعمل مصطلحاً واحداً يتميز به عن غيره ، وقد نجد أصول ذلك المصطلح عند ابن حوقل ، ولكن الإدريسى أكمله وثبت معانيه إلا فى نقط قليلة ، فهو مثلا لا يفرق كثيراً بين المدينة والقرية ، ويستعمل اللفظين دون تمييز كبير ، ثم يضيف بعد ذلك ما يرى من الأوصاف التى تحدد أهمية الموضع كقوله مثلا : « ومدينة شرشال صغيرة القدر لكنها متحضرة » والمدينة أو القرية المتحضرة عنده هى العامرة ذات الأسواق

والأسوار والمتاجر . واتساع معارفه بالنبات يتجلى فى كل مناسبة ، فإلى جانب اهتمامه بالزروع المعروفة كالقمح والشعير وقصب السكر وحرصه على ذكر أنواعها فى كل ناحية لا يفوته ذكر الشجر وثمره ونوعه وصفته ، كقوله إن بمدينة شرشال هذه « سفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار ، وهو من الطرائف غريب فى ذاته » ولا يفوته كذلك نبات طبى إلا ذكره ، فيقول مثلا عند كلامه على جبل مجاور لمدينة بجاية المغرب : « وفى أكنافه جُمَل من النبات المنتفع به فى صناعة الطب مثل شجر الحضض والستولوقندريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والأقسنتين وغير ذلك من الحشائش » ، وهو يحرص كذلك على ذكر الماشية وأنواعها ولحومها ، والأسماك وأسمائها وخصائصها ، حتى لقد ذكر من أسماء أسماك النيل وحده ١٤ اسماً بصفاتها وخصائصها ، وهو يذكر إلى جانب ذلك « المعادن » أى المناجم وما يستخرج منها ونوعه وكميته وما إلى ذلك مما يجعل كتابه معرضاً دقيقاً للحالة الاقتصادية فى كل ناحية يتحدث عنها .

وربما كان تقسيم الكتاب إلى أقاليم وأجزاء هو أكبر صعوبات قراءة هذا الكتاب ، فإن البلد الواحد يقع وصفه فى أجزاء من أقاليم شتى ، فإن الذى يريد أن يقرأ وصف النيل عنده يجد منابعه فى الجزأين الثالث والرابع من الاقليم الأول جنوب خط الاستواء ، ثم يستتم الكلام عن هذه المنابع ويصل إلى النوبة فى الجزء الثالث من الاقليم الأول شمال خط الاستواء ومن حدود النوبة إلى قوص فى الجزء الرابع من الاقليم الثانى ، ومن قوص إلى منتصف الدلتا فى الجزء الرابع من الاقليم الثالث ، وبقية الدلتا فى الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، ولا يتأتى الالمام بهذا الوصف وضبطه إلا إذا رسم القارئ خريطة بحدود الاقاليم والأجزاء كما تصورها الادريسى ، ثم يتابع الكلام عليها جزءاً جزءاً . وربما كان وادى النيل أسهل من غيره هنا ، لانه يسير فى خط واحد من الجنوب إلى الشمال ، ولكن الامر يزداد عسراً عندما يتعلق ببلاد

تتسع شرقاً وغرباً وتقع فى أجزاء مختلفة من أقاليم كثيرة مثل ايران أو وسط أوروبا.، وقد وقع الادريسي فى أخطاء كثيرة بسبب هذا التقسيم ، ويبدو ذلك واضحاً فى كلامه عن منطقة ايرانشهر ، وقد عاب عليه بعض البحاثة المحدثين ذلك ، ولكن الخطأ أتى من محاولة الادريسى ترتيب معلومات وصلت إليه مضطربة مختلطة لا يمكن ضبطها على وجه الدقة ، ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الناحية التى يسميها الجغرافيون العرب ايرانشهر ناحية غير محدودة ولا واضحة المعالم ، وما نجده عنها فى كتابات ابن رستة وابن خرداذبة والمقدسى وابن حوقل يبدو فيه محاولتهم جمع أوصاف وتحديدات وجدوها فى كتب الفرس القديمة ووضعها فى نطاق عربى إسلامى بعد أن امحت حدودها القديمة ولم يعد من الميسور تتبعها وتحقيقها[1] .

وطبيعى ألا تتساوى أوصاف الأجزاء فى الدقة ، لأن الادريسى هنا — كأى عالم غيره — يكتب بالقدر الذى تسمح به مراجعه ومصادر معلوماته ، فهو لا يستطيع مثلا أن يقدم نفس النوع من المعلومات عن الصين ومصر وجزيرة العرب وصقلية والأندلس والمغرب ، فهو عن الصين لا يملك إلا نزراً يسيراً من المعلومات ، وهذا النزر اليسير خليط من إشارات غير محققة وجدها فيما بين يديه من الكتب وأقوال رحالة وملاحين لا يمكن التأكد من صحتها ، ومن هنا فإمكان الخطأ كبير وعملية الضبط والتنسيق عسيرة ، أما عن جزيرة العرب مثلا فالمادة بين يديه وافرة تمكنه من الموازنة والتحقيق ، ثم ان الذين يعرفون الجزيرة من حوله كانوا كثيرين ، أما عن مصر فقد اعتمد اعتماداً رئيسياً على ابن حوقل ، وهو دليل لا بأس به فى وصفها ، فى حين أن الادريسى عرف

---

(١) مثال ذلك النقد الذى يوجهه ماركارت فى بحثه عن ايرانشهر :

J. Marquart, *Ērānšahr* in *Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften zur Göttingen*, 1901.

ولنفس المؤلف عن شرق أوروبا وشرق آسيا :

Osteuropäische und Ostasiatische Streifzüge. Leipzig, 1903.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنفسه صقلية والأندلس والمغرب ، ومن هنا فإن كلامه عن هذه الأقاليم الثلاثة فى غاية من الضبط والاحاطة . ومهما وجه من النقد للادريسى فإن المسؤولية تقع آخر الأمر على مراجعه ، وما ذنب الادريسى إذا لم يملك عن كل من الصحراء الكبرى أو الهند إلا مرجعاً واحداً ؟ كيف يمكن أن يتحقق من صحة ما وجده فى ذلك المرجع الواحد ؟ وكيف يمكن أن نأخذ عليه عدم اطلاعه على رسالة ابن فضلان عن بلاد البلغار وشواطىء البحر الأسود والجزء الأدنى من وادى الفلجا ونحن أنفسنا لم نكن نعرف عن رسالة ابن فضلان إلى حين قريب إلا تلك النقول التى أخذها عنها ياقوت وأوردها فى معجم البلدان ؟ ثم ، على فرض أنه اجتهد حتى حصل على رحلة ابن فضلان ، كيف يتحقق من صدق ما فيها وعدم صدقه ؟ كيف يزن بالموازين التى كانت فى متناول يده حكاية السمكة التى يقول ابن فضلان أنها كانت تخرج إلى البر كل يوم ليقطع الناس من لحمها ما يحتاجون إليه ثم تعود إلى الماء ؟ كيف يشك فى صحة كلام سفير خليفة المفروض أنه رجل متزن مصدق فيما يروى ؟ إننا اليوم نستطيع أن نرفض مثل هذا الخبر ، ولكن ينبغى أن نذكر أن الادريسى عاش فى زمن كان الناس فيه لا يستبعدون ما يحكيه عالم موثوق فى رأيه كابى الحسن المسعودى يقول إن فى أقصى الجنوب الشرقى للعمور بـلاداً ينبت فيها شجر يخرج منه نبات كالاترنج ويولد منه جوار يتعلقن بشعورهن وتصيح الواحدة منهن « واق واق ! » ومن هنا جاء اسم هذه الناحية الأسطورية المعروفة ببلاد واق الواق ؟ لقد استبعد الادريسى مئات من هذه الأساطير وسخر منها واتجه إلى المعلومات التى يقبلها العقل ، ولو أحصينا أحاديث الخرافة فى كتبه لما بلغت قدر ما نجد فى بضع صفحات من مؤلفات أى مؤلف آخر فى ميدان الجغرافية ، وفى ذلك من الفضل ما فيه .

وقد دُرست معظم أجزاء جغرافية الادريسى على يد نفر كبير من المستشرقين قام كل منهم بدراسة الجزء الخاص ببلاده ، فيما عدا الجزء الخاص

بالمغرب والأندلس فقد قام بتحقيقه هولنديان هما دى خوية ودوزى ، وفى معظم هذه الحالات ترجم النص إلى إحدى اللغات الأوروبية ، وحققت أسماء المواضع وابعاد الطرق ومقاييس الأنهار وما إلى ذلك ، وقد اختلفت آراء هؤلاء الباحثين باختلاف حظ الادريسي من الاصابة فى الكلام عن هذا البلد أو ذاك ، واختلفت الأحكام كذلك باختلاف مزاج الباحث وموازينه فى النقد والكلام ، ولكن حتى الذين اشتدوا فى الحكم على عمل الادريسى مثل رينو Reinaud ، الذى ترجم جغرافية أبى الفدا إلى الفرنسية وقدم لها بمقدمة طويلة عن الجغرافية عند العرب ، لم يسعه آخر الأمر إلى أن يقول : « إن عمل الادريسى إذا نظرنا إليه فى مجموعة تبينا أنه — مثل عمل استرابون — أثر رفيع من آثار العلم الجغرافى »[١] وقال مالك جوكين دى سلان : « إن الادريسى قام بالعمل الضخم الذى انتصب له بكفاية واضحة كل الوضوح ، ولسنا نجد فيما تقدمه من المؤلفات قبله فى نفس الموضوع عملاً تستطيع أن نقارنه بعمله ، وحتى الآن ، وعلى الرغم من اتساع مجال العلم الجغرافى لا زالت هناك نواح كثيرة من الأرض يجد الجغرافى أو المؤرخ نفسه دون مرشد لو أن الملك رجار لم يقدم للإدريسى ما قدم من المعاونة ليقوم بعمله »[٢] ويقول إتيين كاترمير : « إن هذا الكتاب يضم قدراً عظيما من المعلومات لا يظفر بها الانسان — على نفس الصورة — فى أى كتاب آخر ألفه العرب »[٣] وبعد دراسة مسهبة — هى خير ما لدينا عن عمل الادريسى إلى الآن يقول ميكيلى أمارى : « إن عمل الادريسى يحتل مركز الصدارة بين كل ما ألف الناس فى الجغرافية فى العصور الوسطى »[٤] وقد اقتصرنا على

---

(١) M. Reinaud, *Géographie d'Aboulféda*; tome I, Introduction générale à la Géographie des Orientaux, Paris, 1848, pp. CXM- CXXII; CCCX- CCCXVI.

(٢) Mac Guckin de Slane, *Géographie d'Idrisi, traduite en français par Mr. Jaubert* dans *Journal Asiatique*, 1841, III, Série, vol. XI, pp. 372-387.

(٣) Etienne Quatremère dans *Journal des Savants*, 1848, p. 749.

(٤) Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 1ª edizione, III, 605 sqq.

آراء هؤلاء وهم من أهل القرن الماضى ، لأن المستشرقين خلال تلك الحقبة كانوا يقرأون المطولات ويصبرون على متاعبها ، فى حين أن ما يقرأ اليوم وتصدر الاحكام عليه هى الاجزاء والفصول القصار ، ولهذا فالاحكام عليها جزئية تصدق على جزء دون جزء ، ولا تعطى فكرة عامة عن عمل الادريسى ككل واحد لا يتجزأ .

ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الأجزاء وما قيل فيها ، ولهذا فسنكتفى بعرض أهم ما قاله ميكيلى أمارى مؤرخ صقلية الاسلامية ، ثم نتبع ذلك بالكلام على قسم واحد من نزهة المشتاق ، وهو الخاص بالأندلس .

يذهب أمارى إلى أننا إذا قرأنا نص نزهة المشتاق فى إمعان تبينا أن الادريسى استخدم فى كتابته مراجع أخرى كثيرة غير التى ذكرها فى فاتحة الكتاب ، ثم إننا نلاحظ أن المقياس الذى ذكره فى كلامه عن جنوب خط الاستواء هو الميل الرومانى لا الميل العربى ، وهذا الميل الرومانى هو نفسه الذى ذُكرت به الأبعاد فى صقلية ؛ وبعض الأعـلام الجغرافية الواردة فى صقلية مرسومة على صورة قديمة ترجع إلى أيام الاغريق ، بدلا من ذكر أسمائها العربية أو أسماءه التى كانت معروفة بها خـلال القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد سبق ان لاحظ ليلول أن الميل الرومانى يعدل ١٤٨١ متراً ، وأن الميل الصقلى الذى كان مستعملا إلى سنة ١٨٠٩ يعدل قريباً من ذلك : ١٤٧٧ متراً ، فى حين أن الميل الذى اعتمد عليه الادريسى فى صقلية يختلف عن كليهما ، فمن أين أخذه ؟ [1] ومن أين أتى بهذه الصور القديمة للأعلام الصقلية واليونانية وبعض الفرنسية ، مع أننا نعرف أنه كان يأخذ رسم أسماء الأعـلام الأوروبية من أفواه الرحالين والتجار ويثبتها بالصورة التى كانت

(١) Joachim Lelewel, *Géographie du Moyen - Age*, Bruxelles, 1852, chap. 60. tome I, p. 100.

مستعملة بها على أيامه فعلا ؟ وأتى أمارى ببعض الامثلة من نص الإدريسى وأصلها اليونانى أو اللاتينى والاسم الذى كانت معروفة به إن وجد ، مثلا :

الاسم كما رسمه الادريسى	الأصل اللاتينى إن وجد	الصورة الشائعة للاسم إن وجدت
نبكته	Naupactus	ليبانتو
شكله	Scylaum	
لاكدمونه	Lacedomona	
اغريش	Euripos	Negroponte
ابلخونية	Aflakhonia	Paphlakhonia
مديُلان	Mediolanum	
أرنمِنِسْ	Arinminum	
بادى	Padum	
البرنية	Alvernia	Auvergne
انقلزمه	Aequolesima	Angoulème
بُلُنْيَهْ	Bologna	
برى		Berry
الكرمنت		Clermont
ازبرج		Augsburg
انكرتره		Inghiterra
استرك		Utrecht
هستنجس		Hastings

ويحاول أمارى بعد ذلك أن يتعرف الطريقة التى رسم بها الادريسى خريطته ، وانتهى إلى شىء قريب مما ذكرناه آنفاً ، غير أنه يرى أن الذى عُمِل أول الأمر لم يكن كرة أرضية وإنما خريطة مسطحة تبيِّن وجهى الأرض

planispherio مساحتها متر أو أقل قليلا ، وأن خرائط الأجزاء التى أدرجت فى الكتاب عملت بمقياس السُّدْس أو الخُمس بالنسبة للخريطة الكبيرة ، وأن التصغير عمل دون رسم خطوط طول أو عرض ، واعتمد أولا وآخراً على كفاية الناسخ أو عدم كفايته .

ثم يضيف أمارى أن مواقع البلاد الرئيسية حُدِّدَتْ بالاستعانة بنجوم معروفة ، ثم حددت مواقع ما يقاربها بالقياس إليها مع الاستعانة بخرائط قديمة مثل تلك المنسوبة إلى الفريد الكبير أو خريطة الدنيا المحفوظة فى مكتبة الجامعة فى تورين . هكذا نستطيع تعليل أحاديث الخرافة التى ينقلها الادريسى عن بلاد يأجوج ومأجوج وتحديد موقعها ، وقد نقل الادريسى ذلك عن الجغرافى الاسكندرى (أى بطليموس) لأنه لم يحصل على أوصاف رحلات أحدث منها فى هذه النواحى ، ولو حصل عليها لاستطاع تحقيق كلام بطليموس كما فعل فى غير ذلك من النواحى . ويمكن القول بأن رجار عندما شرع فى هذا العمل لم يكن لديه خرائط ملاحية دقيقة ، لأن هذه لم تظهر إلا فى القرن الرابع عشر ، بعد شيوع استعمال البوصله .

ويلاحظ بصورة عامة أن الأجزاء التى حصل الادريسى على معلومات عنها رُسمت أكبر من تلك التى لم يجد عنها إلا شيئاً قليلا ، وذلك واضح حتى بالنسبة لخرائط إقليم واحد مثل إيطاليا ، فإن حوض التيبر وأراضيه مثلا رسمت كبيرة مفصلة ، لأن هذه النواحى كانت تحت حكم رجار ، أما وسط إيطاليا فَرُسِم مصغراً لأن المعلومات عنه كانت قليلة ، إذ كان خارجاً عن حكم رجار ، ومثل ذلك يقال عن خريطة صقلية ، فهى كبيرة مفصلة ، بل أكبر بكثير مما كان ينبغى بالنسبة لحوض البحر المتوسط، وذلك لوفرة المعلومات التى استطاع الادريسى جمعها عنها .

وأحسن أجزاء الكتاب فى رأى أمارى هو وصف البحر الأبيض والبلاد الاسلامية ثم صقلية وجنوبى إيطاليا ، ويلى ذلك — من حيث الدقة والجودة —

آسيا الصغرى واليونان ووسط أوروبا وانجترا وبلاد الشمال ، أما فيما عدا ذلك فالأخطاء والمتناقضات كثيرة ، ويعلل هذا بما ذكرناه ، ثم إن هذه الأجزاء كانت آخر ما كتب ، وكان الادريسى معجلا يريد أن يفرغ من الكتاب قبل وفاة رجار ، فأسرع بإنجاز هذه الأجزاء بما كان تحت يده من المعلومات ، وبالفعل مات رجار بعد أن نجز الكتاب بأسابيع .

ويقول أمارى أن هذا الكتاب العظيم الذى يعتبر دون شك من « مفاخر التراث العلمى الإيطالى » خرج عن نطاق التراث الثقافى الأوروبى ، لأنه لم يترجم فى حينه إلى اللاتينية ، وهو لا يستبعد أن يكون بلاط رجار قد شرع فى عمل هذه الترجمة ، ولكن الفوضى التى ضربت بجرانها على صقلية بعد وفاة رجار الثانى ثم قيام النصارى على المسلمين ، كل ذلك أوقف هذا العمل ، وقد استطاع الادريسى فى أثناء تلك الاضطرابات أن يبعث بنسخة من كتابه إلى بلد إسلامى ، وهناك لقيت الإقبال الذى ضمن للكتاب الخلود ، فقد عملت منه نسخ كثيرة . وأصبح من عمد العلم الجغرافى عند المسلمين بعد ذلك ، وانتفع به كل من جاء بعد الإدريسى من الجغرافيين المسلمين مثل ابن سعيد وأبى الفدا وياقوت . أما فى أوروبا فقد نُسِىَ الكتاب تماماً حتى عُثر على القطعة التى أشرنا إليها وترجمت إلى اللغة اللاتينية ونشرت باسم جغرافية النوبة دون اسم المؤلف ، وظل هذا هو كل ما تعلمه أوروبا عن عمل الادريسى ، حتى استطاع المسيو أسلين Aselin قنصل فرنسا فى مصر أن يحصل على قطعة كبيرة من نزهة المشتاق ضمن مخطوطات كثيرة اشتراها فى القاهرة ، وهذه القطعة هى اليوم المخطوط رقم ٢٢٢٢ فى المكتبة الأهلية فى باريس ، وهى من أحسن مخطوطات الادريسى وأدقها ، وأمارى يأسف لخروج هذا العمل من التراث الأوروبى واندراجه فى التراث العربى مع أنه تم على أيدى رجال ربما كان معظمهم إيطاليين وتحت إشراف ملك نرمانى إيطالى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصف الإدريسى لشبه جزيرة إيبيريا

يعتبر هذا القسم من أقسام نزهة المشتاق من أحسن أجزائها وأدلها على ملكة الادريسى الجغرافية وقدرته على الابتكار وجمع المعلومات ثم تنسيقها فى كلّ واحد مترابط ، ويرجع ذلك إلى أن الادريسى عرف أجزاءاً كثيرة من اسبانيا ، ثم كانت لديه وفرة من المعلومات والأصول ، وهو بنفسه يشير إلى أنه رجع إلى العذرى ، ومع أنه لا يشير إلى الرازى أو البكرى ، إلا أننا نعتقد أنه لابد أن يكون قد اطلع على جغرافية الأول ، عن طريق العذرى على الأقل .

وقد كان هذا الجزء أحسن أجزاء «النزهة» [1] حظاً ، فقد نشر دوزى و دى خوية القسم الواقع فى الجزأين الثانى والثالث من الاقليم الرابع وترجماه إلى الفرنسية وأضافا إليه تعليقات وشروحاً وافية ، ونشر قطعة منه قبل ذلك

---

(١) José Antonio Conde, *Descripción de España de Xerif Aledris, conocido por el Nubiense, con traducción y notas,* Madrid 1799.

وعنوان الجزء الذى نشره بالعربية : ذكر الأندلس تأليف الشريف الادريسى .

و R. Dozy et J. de Goeje, *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi,* Leiden 1866.

وعنوان النص العربى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الادريسى ، وهذا القسم يشمل :

الأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من الاقليم الأول
والأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ من الاقليم الثانى
والأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ من الاقليم الثالث
والجزء الأول من الاقليم الرابع

Eduardo Saavedra, *La Geografía de España del Edrisī,* en *Boletín de la Real Sociedad Geográfica de Madrid,* XVIII, 1885, pp. 224-242.

وهذا المقال يتكون من مقدمة قصيرة ثم نص الجزء الأول من الاقليم الخامس الخاص بشبه الجزيرة الايبيرية معتمداً على المخطوطات أرقام ٨٩٢ و ٨٩٣ و ٨٩٤ بالمكتبة الأهلية فى باريس (الملحق) ومخطوط أوكسفورد رقم ٨٨٧ ومخطوط رقم ١٥١ كيمبردج .

César E. Dubler, *Los Caminos a Compostela en la obra de Idrīsī,* en al-Andalus, XIV, 1949, pp. 59-122.

Ibidem, *Las Laderas del Pirineo según Idrīsī,* en al-Andalus, XVIII, pp. 337-373.

يوسف أنطونيو كوندى وحققها تحقيقاً ضعيفاً على قدر معرفته باللغة العربية وهذا القسم يشمل شمال شبه الجزيرة إلى جبال الشارات وهى المعروفة بجواداراما أو وادى الرمل ، وتقع إلى شمال مدريد بقليل ، ثم نشر إدواردو سافدرا بقية وصف الإدريسى لشبه الجزيرة أى ما يقع منها فى الجزأين الأول والثانى من الإقليم الخامس ، وقام بدراسة ذلك الوصف كله ألمانى بولوفر دراسة طيبة فى بحثه القيم عن «شبه الجزيرة الإيبرية عند الجغرافيين العرب» وفى السنوات الأخيرة عكف على دراسة بعض أجزائه المستشرق السويسرى سيزار دوبلر ونشر عنه بحثين من خير ما قرأنا عن الأبحاث الإدريسية .

وقد سبق أن ذكرنا أن الإدريسى زار الأندلس وقضى فيه ردحاً من الوقت بعد عودته من المشرق ، وأنه أقام فى قرطبة خلال هذه الزيارة وتردد على بعض نواحى الأندلس الإسلامى ، وقد عمد سيزار دوبلر إلى استعراض حوادث التاريخ الأندلسى خـلال الفترة التى قضاها الإدريسى فيه ليتعرف النواحى التى يحتمل أن يكون قد زارها ، لأن هذه الفترة كانت حقبة مد وجزر بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس ، ولا يستطيع الإدريسى أن يزور بلاداً فى أيدى النصارى أو مناطق كانت إذ ذاك ميادين قتال ، فخلال السنوات التى قضاها الادريسى فى رحلته المشرقية سقطت سرقسطة وإقليم الثغر الأعلى سنة ٥١٢/١١١٨ ، وكان المرابطون قد استعادوا الكثير من القواعد الأندلسية الكبرى قبل ذلك : استعادوا بلنسية وإقليمها سنة ٤٩٧/١١٠٢ بعد وفاة السيد القمبيطور ، وشنترين سنة ٥٠٥/١١١١ ، ولم يستطيعوا إستعادة طليطلة رغم ما بذلوا من جهود ، وإن كانوا قد استولوا على بعض الحصون الواقعة جنوبها وشرقها ، أى أن حدود الأندلس الإسلامى عندما كان الادريسى هناك كانت خطاً يبدأ فى الغرب شمالى شنترين ويسير شرقاً شمالى بطليوس ثم ماردة حتى يصل إلى البحر الأبيض شمالى مرسيطر (سجونتو الحالية) . فما وقع شمالى هذا الخط نستطيع أن نقول إن الادريسى لم يزره بنفسه ، فأخذ معلوماته

عنه من الكتب أو من أفواه التجار وأهل الرحلة ، وما وقع جنوبه نستطيع القول بأنه قد زار بعضه وعرفه بنفسه[١] .

وفى أثناء مقام الادريسي فى صقلية منصرفا إلى العمل فى كتابه تغيرت الأحوال فى الأندلس تغيراً كبيراً بعد أغسطس سنة ١١٣٧/ذى القعدة ٥٣١ أى بعد زواج بترونيلا إبنة رذمير الراهب Ramiro el Monje وإبنة أخى الفونسو المحارب Alfonso el Batallador بالكُند رامون بيرنجير الرابع صاحب قطلونية ، أى بعد اتحاد كندية قطلونية مع مملكة أرغون ، إذ أن ذلك كان تذيراً بتضعضع الجناح الشرقى من جهة الإسلام الأندلسى ، ثم اتصل التضعضع حتى شمل الجبهة كلها بسبب انشغال المرابطين بالحرب المؤسفة التى شنها الموحدون عليهم فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة فيه إلى التماسك ، فقد كان المرابطون آنذاك فى عنفوان جهادهم على طول الجبهة الأندلسية ، وقد تمكنوا بفضل ثباتهم المجيد أن يحتفظوا للاسلام بجزء يقل قليلا عن نصف شبه الجزيرة ، ولكن عند ما قام عليهم الموحدون تداعت تلك الجبهة وتوالى التراجع ، ولم يستطع الموحدون أن يستعيدوا شيئاً بعد ذلك إلا فى النادر ؛ وأظن أن شيئاً من هذا كان فى نفس الشريف الادريسى وهو يكتب ، فهو معجب بالمرابطين غير راض عن الموحدين : سقطت شنترين سنة ٥٤٢/١١٤٧ والاشبونة فى اكتوبر من نفس السنة (ربيع الثانى ٥٤٢ هـ.) ، وفى نفس الشهر سقطت المرية فى يد الفونسو السابع ملك قشتالة ثم استعادها الموحدون بعد ذلك بعشر سنوات ٥٥٢/١١٥٧ ، وسقطت طرطوشة فى رجب ٥٤٣/ديسمبر ١١٤٨ ، وفى العام التالى سقطت لاردة وإفراغة Fraga ومكناسة Mequinenza .

ولم يشر الادريسى فى النص إلى زيارته للمواضع إلا فى حالات قليلة جداً ، وفيما يتصل بالأندلس لا ينص صراحة إلا عن زيارته لموقعين : أبال (Ovejo)

---

(١) César Dubler, *Los Caminos de Compostela*, pp. 67-70

على مسيرة يوم شمال قرطبة ثم الاشبونة ، ولكن وصفه الدقيق لبعض مواضع أخرى مثل المرية يدل على أنه زارها ، فهو يصفها وصفاً دقيقاً ويتحدث عن أسوارها وأهميتها التجارية بتطويل ، بل يضيف فى سياق حديثه عنها ملاحظة تدل على أنه كانت لهذا البلد مكانة فى نفسه ، قال : « المرية فى هذا الوقت الذى ألفنا كتابنا هذا فيه صارت ملكاً بايدى الروم ، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها وخربوا ديارها وهدموا مشيد بنيانها ، ولم يبقوا على شىء منها »[1] ، وجدير بالذكر هنا أن وصف الادريسى للمرية أوفى من وصف العذرى وأحفل بالمادة النافعة ، فإذا كان العذرى هو الجغرافى الأندلسى الوحيد الذى ذكره الادريسى بين مراجعه ، استطعنا أن نستنتج أنه أخذ جزءً كبيراً مما كتبه عنها من مرجع آخر أو كتبه بناء على مشاهدة شخصية .

وقد استبعد دوبلر أن يكون الإدريسى قد زار نواحى مما كان فى يد النصارى من الأندلس فى الوقت الذى كان هو فيه هناك ، فوصفُه لطليطلة لا يصورها كما كانت فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بل فى العصور الإسلامية التى سبقت سقوطها سنة ٤٧٦/١٠٨٦[2] . ويلاحظ كذلك أن أوصافه لبلاد هامة مثل غرناطة وإشبيلية مقتضبة وغير دقيقة ، مما نستنتج منه أنه لم يزرها بنفسه ، أو مر بها مروراً سريعاً لم يسمح له بالتحقيق والتقصى كما فعل فى المرية .

أما فيما يتصل بمراجعه عن اسبانيا ، فقد رأيناه يذكر العذرى ، وقد لاحظت هنا وهناك لمحات قصيرة تؤيد انتفاعه بهذا النص ، ولكننا لا نستطيع القول بأنه اعتمد عليه اعتماداً رئيسياً ، بل سنرى أنه استخدم تقسيم العذرى للكور إلى أقاليمها واجزائها الادارية استخداما خاصاً ليقسم الأندلس تقسيما جغرافياً لا نجده عند غيره ، ولكنه اعتمد على الرازى اعتماداً رئيسياً كما سنرى

---

(١) الإدريسى : وصف المغرب وأرض السوادن ومصر والأندلس ، ص ١٩٨ .
(٢) نفس المصدر ١٨٧ — ١٨٨ .

وربما أخذ أشياء عن البكرى ، ولا نستطيع القطع بهذا لأن نص البكرى عن الأندلس لم تبق لنا منه إلا بضع أوراق كما ذكرنا ، أما اعتماده على بطليموس وهروشيش فظاهر من تصوره لهيئة شبه الجزيرة .

والحقيقة أن الادريسى عندما تعرض لوصف شبه الجزيرة الايبيرية وجد نفسه أمام مشاكل كثيرة كان عليه أن يحلها ، وقد اجتهد فى ذلك ، ولكن الحلول التى وصل إليها لم تكن موفقة دائماً ، فقد عاش وكتب فى عصر كانت الأحوال والأوضاع فى شبه الجزيرة تتغير تغيراً سريعاً ، وفرق بين شبه الجزيرة كما وجده موصوفاً فى كتابات الرازى والعذرى والبكرى ، وشبه الجزيرة الذى عاش فيه وألم ببعض مواضعه قبل ذهابه إلى صقلية ، والفرق بعيد كذلك بين هذا كله وصورة شبه الجزيرة كما وصلته وهو يكتب كتابه فى صقلية ، وينبغى أيضاً أن نذكر أنه كان يكتب لعالمين : عالَم المسلمين الذين هو منهم ويكتب بلغته ولغتهم وعالَم النصارى الذين يتعاون معهم ، ولكل من هؤلاء نواح تهمه وأشياء يحرص على أن يقرأها فى ذلك الكتاب ، فبينما كان العذرى أو البكرى يعنيان ببلاد الاسلام فحسب ويكتفيان باشارات صغيرة إلى ما وراء ذلك شمالا دون أن يضر ذلك بمجموع ما يكتبان ، كان على الإدريسى أن يوفى بلاد الشمال حقها من الوصف ، وأن يذكر المزارات المسيحية والطرق إليها ويوفيها حقها من الكلام ، ثم إن المادة الطيبة عن ذلك كله كانت وافرة عنده ، فمن حوله ملاحون وسفار كثيرون من قطلونية ونبرة وأرغون واشتريس وليون وجليقية ، وهو يريد أن يدخل هذه المعلومات كلها فى كتابه وينسق بينها وبين ما لديه فى كتب الجغرافية الإسلامية وهو كثير أيضاً .

أضف إلى ذلك أن الوضع السياسى كان له أثر بعيد فى تصوره لشبه الجزيرة ، فقد وُجد حد فاصل عريض يفصل بلاد الاسلام عن بلاد النصرانية فى شبه الجزيرة فى العصر الذى كتب فيه ، وهو لا يستطيع أن يهمل هذا الحد الفاصل ، ثم إن قرطبة لم تعد مركز شبه الجزيرة ، ولم يعد فى الامكان

حساب الطرق وابعادها منها وحدها كما كان السابقون عليه يفعلون ، وهو لا يستطيع أن يتخذ طليطلة مركزاً لأنها لم تكن قد وصلت بعد إلى هذه الدرجة من الأهمية ، ولهذا كله كان عليه أن يبتكر أسلوباً جديداً للكلام على شبه الجزيرة ، أسلوباً لا يتعارض مع تقسيمه المعروف إلى أقاليم وأجزاء . وقد ابتكر فى الحق كثيراً وجاء بصورة لشبه الجزيرة لم يسبقه إليها أحد ، وإن كان ذلك قد أوقعه فى أخطاء لا تنقص من قدر ابتكاره ، وقد كنا نتمنى لو استطاع تداركها ، خاصة وأن ذلك لم يكن عليه عسيراً .

ولكى يحل الادريسى طائفة من المشاكل التى اعترضته اتخذ أساساً لتصوره لشبه الجزيرة خطاً يسير مع سلسلة جبال وادى الرملة Guadarrama وهذا الخط يستمر من قلمرية Coimbra إلى قرب المجرى الأوسط لنهر إبره ، وهو يسمى هذه الجبال الشارات أو الشارّات ، ويقول إن الأندلس مقسومة بها من وسطها فى الطول[١] والطول هنا يراد به من الشرق إلى الغرب ، لأنه قبل ذلك يقول ان الأندلس مثلثة الشكل ، وعند كلامه عن طليطلة يقول « وعلى بعد منها فى جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات ، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم (Medinaceli) إلى أن يأتى قرب مدينة قلمرية »[٢] فهذه الجبال توازى الخط الذى رسمه فاصلا بين الإقليمين الرابع والخامس ، وإلى جنوبه يسير موازيا له الخط الفاصل بين اسبانيا الاسلامية وإسبانيا النصرانية وهو يقول بهذا الصدد : « وما خلف الجبل المسمى بالشارات فى جهة الجنوب يسمى إشبانيا ، وما خلف الجبل فى جهة الشمال يسمى قشتالة ، ومدينة طليطلة فى وقتنا هذا يسكنها سلطان الروم القشتاليين »[٣] ، وهذه هى المرة الأولى التى نلقى فيها هذا التقسيم وتلك التسميات : فشبه الجزيرة كله يسمى عنده الأندلس ، ونصفه النصرانى

---

(١) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ... ، ص ١٧٣
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٨
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٤

يسمى أندلس قشتالة ونصفه الجنوبى أندلس اشبانيا ، وهذا التقسيم فى ذاته يدل على فهم صحيح لحال شبه الجزيرة على أيامه ، ففى النصف الثانى للقرن الثانى عشر الميلادى كانت قشتالة Castilla رأس الممالك النصرانية وأكبرها ، ولا بأس لهذا فى أن يسمى الجزء النصرانى كله اندلس قشتالة . واعتماداً على هذا الخط المتوسط الذى اتخذه فاصلا بين قسمي شبه الجزيرة يقول : « وفى جنوب هذا الجبل تأتى مدينة طليطلة ، ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس ، وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب (أى إلى الجنوب الغربى) ٩ مراحل ، ومنها إلى لشبونة غرباً ٩ مراحل ، ومن طليطلة إلى شنت ياقب على بحر الأنقليشيين ٩ مراحل ، ومنها إلى جاقا شرقاً ٩ مراحل ، ومنها إلى مدينة بلنسية بين شرق وجنوب ٩ مراحل ، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامى ٩ مراحل »[1] ، ولا يمكن الحكم بدقة هذه التقديرات أو عدم دقتها ، لأن الأمر هنا يتعلق بالطرق التى كانت تسلك فى الانتقال من طليطلة إلى كل من هذه المدن ، ولكنها تعطي على أى حال فكرة عن توسط طليطلة فى شبه الجزيرة ، وهذا هو ما قصد إليه الادريسى . ويبدو غريباً أن يدقق الادريسى كل التدقيق فى تعيين مكان قرطبة بالنسبة لطليطلة : جنوباً بغرب ، ثم يقول بعد ذلك إن جاقا Jaca شرقى طليطلة وإن لشبونة إلى شرقها مع أن الأولى إلى الشمال الغربى والثانية إلى الجنوب الغربى ، ولكن تعليل ذلك واضح ، وهو أنه كان يعتقد أن شبه الجزيرة مثلث الشكل وأن جبال البرت (يسميها جبال الأبواب أو البرنيو) تسير من الشمال إلى الجنوب : وفى هذه الحالة يتغير محور شبه الجزيرة ، ويصير الخط الممتد من لشبونة إلى طليطلة ومنها إلى جاقة متجهاً من الغرب إلى الشرق بدلا من اتجاهه الطبيعى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرق .

---

(١) صفة المغرب والأندلس للادريسى ، ص ١٧٣

وقد تبع الادريسى بطاميوس وهروشيش وبقية جغرافيي العرب فى القول بأن شبه الجزيرة مثلث الشكل ، ولم يكن يستطيع تصحيح هذا الخطأ ، لأن هذا كان يقتضى منه معاينة نواحى الجزيرة وسواحلها ، وهو لم ير إلا جزءً من هذه وتلك ، ثم إن تعرف الاتجاهات على وجه الدقة لم يتم إلا بعد تجويد صناعة البوصلة وإحكام استعمالها ، وقد كانت البوصلة معروفة ولكن فن استعمالها لم يتم إلا في القرن الرابع عشر ، وعلى أى حال فقد استطاع الادريسى فى خريطته الكبيرة أن يعدل هيئة شبه الجزيرة ، فلم تظهر مثلثة الشكل فيها ، وإنما قريبة من هيئتها الحالية ، وكأنما لم يستطع وهو يرسم ويحقق المواضع والمسافات إلا أن يدخل هذا التعديل ، أما فى الكتابة فإن غرابة الشكل المثلث لشبه الجزيرة لا تكاد تلاحظ ، وعلى أى الأحوال فإن نقط الخلاف بين خريطة الادريسى ونص جغرافيته كثيرة جداً ، وأبسط ما لاحظه الباحثون من هذه النقط هو وجود أعلام كثيرة على الخريطة لا وجود لها فى النص والعكس بالعكس ، وتعليل ذلك أنه ، وهو يعمل كانت تتصل بعلمه مواضع فيثبتها على الخريطة وينسي إدخالها فى النص ، أو يصادف فى قراءته مواضع فيثبتها فى النص دون أن يوقعها فى الخريطة ، وعمله كله على أى حال كان فى حاجة إلى مراجعة دقيقة ، ولكنه كان معجلا يرجو الفراغ من النص وتقديمه لرجار ، فلم يتسع الوقت لذلك ، وكان على الحق فى إسراعه ، فقد توفى رجار بعد أن نجز الكتاب بأسابيع قليلة ، ثم لم تسمح له الظروف بالعمل الهادئ الذى تستلزمه المراجعة كما رأينا .

ويتكون كلام الادريسى عن شبه الجزيرة من ثلاثة أقسام ، الأول قصير جداً عن الهيئة العامة لشبه الجزيرة وانقسامها إلى قسمين ، إسلامى ونصرانى ، وقد تحدثنا عنه ، والثانى أطول قليلا ، وفيه يقسم شبه الجزيرة إلى أقاليم ، والثالث وهو الأكبر والأهم يتناول الوصف والكلام عن المدن والطرق والابعاد والحاصلات والسكان والصناعات والزراعات وما إلى ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقسم الثانى ، الخاص بالتقسيم إلى أقاليم يعتبر فى ذاته مشكلة من مشاكل الجغرافية الادريسية .

ذلك أن هذه الأقاليم — وعددها عنده ستة وعشرون — لا تتمشى مع أى تقسيم جغرافى أو إدارى سابق ، فلا هى إدارية سياسية مثل تقسيم الرازى إلى كور ومدن ، ولا هى جغرافية تحدد مناطق معينة ذات خصائص طبيعية واضحة ، وإنما هو فيما يبدو تقسيم خاص لجأ إليه الادريسى لتيسير الوصف الجغرافى ، وحتى هذا الفرض لا يحل المشكل ، فلو كان الأمر كذلك فلماذا اتبع هذا التقسيم فيما يتصل بالقسم الإسلامى من شبه الجزيرة دون القسم النصرانى ؟ ولماذا لم يتبع نظاماً واحداً فى التسمية ، أى يجعلها على أساس المدن فيقول مثلا إقليم إشبيلية وإقليم قرطبة وإقليم المرية ، أو على أساس الظواهر الجغرافية فيقول مثلا إقليم البحيرة وإقليم السهل وإقليم الجبل ، أو على أساس المحصولات الزراعية فيقول إقليم الزيتون وإقليم البصل وما إلى ذلك ؟ لماذا اتخذ أسماء المدن حيناً والأعلام الجغرافية الطبيعية حيناً ثانيا والمزروعات حيناً ثالثاً ثم الأقوام رابعاً ثم إذا كان هذا تقسيماً خاصاً لجأ إليه هو ، فلماذا لم يجعله تقسيماً هندسياً كالتقسيم إلى أقاليم وأجزاء ، وهو هندسى صرف هدفه تقسيم سطح المعمور إلى مستطيلات يمكن تصوير كل منها فى خريطة خاصة ؟

تلك كلها أسئلة لا نستطيع لها جواباً . لقد حاول إدواردو سافدرا فى بحث قيم أن يقرب بين هذا التقسيم وتقسيم اسبانيا الحالى إلى مديريات ولكنه لم يستطع ، لأن حدود أقاليم الادريسى لا تطابق حدود أى تقسيم آخر سياسى أو إدارى سابق أو لاحق ، وحاول قبله أوريليانو فرناندث جرا Aureliano Fernández Guerra أن يطابق بين هذا التقسيم والتقسيم الكنسى لاسبانيا على أيام القوط ، ولكنه لم يوفق رغم ما بذل من جهد ، وهذا طبيعى ، لأن الذى يطابق هذا التقسيم الكنسى هو التقسيم الإدارى العربى كما أثبته الرازى وبيناه فى موضعه من هذا البحث ، وأخيراً تعرض للموضوع — دون

بحث أصوله — خوسيه المانى بولوفر José Alemany Bolufer فى مقال معروف عن وصف اسبانيا عند الجغرافيين العرب ، وكان هذا فى سنة ١٩١٩ ، وبعد هذا لم يعد أحد إلى الموضوع (١)

وقد يبدو لنا أن جغرافية العذرى تعيننا على حل هذه المشكلة ، لأن معظم « الأقاليم » التى قسم الإدريسى الأندلس إليها هى أقاليم من كور بحسب تقسيم العذرى ، ولكننا لا نفهم السبب الذى حدا بالادريسى إلى اختيار أسماء أقاليم صغيرة من كور وإطلاقها على مساحات واسعة تعدل الكور فى المساحات ، خاصة إذا لاحظنا أن أقاليمه تلك تضم مدناً أهم وأكبر من أسماء تلك التى أطلقها عليها ، فاقليم شذونة مثلا يضم إشبيلية ، وإقليم البيرة يضم غرناطة ، وإشبيلية أكبر وأهم من شذونة مرات ، والبيرة لم تكن شيئاً إلى جانب غرناطة .

ولا نستطيع القول لذلك إن هذه الأقاليم تعين التقسيم الإدارى على عهد المرابطين أو أوائل أيام الموحدين ، لأننا لم نسمع بأن أياً من الدولتين أعادت تقسيم الأندلس إدارياً وأطلقت أسماء جديدة على الوحدات الجديدة ، ثم إنه من الثابت أن كورتى إشبيلية وغرناطة ظلتا بهذا الاسم على أيامهما ، ومن ثم فتسميتهما بإقليمى شذونة والبيرة لا علاقة لها بتقسيم إدارى .

بقى فرض واحد نعرضه وننتظر به ما عسى أن يجدّ من النصوص التى يمكن أن تكشف لنا وجه الحق فى هذا الموضوع ، وهو أن هذه الأقاليم وأسماءها كانت مصطلحات شعبية جرى الناس عليها فيما بينهم ، كما نقول فى مصر مثلا الوجه القبلى والوجه البحرى ، فهذان مصطلحان لا نجدهما فى أى كتاب من كتب الجغرافية حتى العصر التركى على الأقل ، ولم يدخلا فى

---

(١) Eduardo Saavedra, *La España del Edrisi*, (Madrid 1881).
وقد ضمن سافدرا فى كتابه هذا آراء أوريليانو فرناندث جيرا
José Alemany Bolofer, *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores Arabes* (Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino) tomo IX, mans. 3-4, 1919.

الاستعمال الرسمى إلا فى العصر الحديث ، ومع هذا فقد كانا هما اللذان يطلقهما الناس فيما بينهم على قسمي مصر الكبيرين ، بينما كانت لهما فى المصطلح الإدارى والجغرافى لمصر أسماء أخرى ، وقد أخذها الادريسى من أفواه الناس : التجار وأهل الرحلة والفلاحين ومن إليهم ، فالأغلب أن الناس لم يكونوا يقولون « كورة الجزيرة الخضراء » وإنما إقليم البحيرة ، ولم يكونوا يقولون كورة إشبيلية وإنما إقليم شذونة وكذلك كانت كورة قرطبة عندهم الكنبانية ، ولم يكونوا يقولون كورة المرية وإنما إقليم بجانة ، وكذلك إقليم البيرة بدلا من كورة غرناطة ، وكذلك إقليم القواطم بدلا من كونكة ، وهكذا ، وهذه كلها مصطلحات شعبية تعارف الناس عليها فيما بينهم ، وحدود هذه الأقاليم لا تتمشى مع أى تقسيم إدارى أو جغرافى ، إنما هى نواح أو جهات ، والكثير من هذه التسميات قديم كان معروفاً قبل أيام العرب وربما قبل أيام القوط ، وربما كان الكثير منها إيبيريا قديماً أو بربريا مثل براميرة والوجة ومرمرية . وإلى هذا الأصل الشعبى ترجع الصور العربية الغريبة لبعض الألفاظ مثل البلالطة جمع لبلوط ، ثم الصيغ الهجينة التى تورد ألفاظاً غير عربية مجموعة جمعاً عربياً مثل الشارات والبشارات ، والعكس : ألفاظ عربية معاملة على نحو غير عربى وأمثلته كثيرة كما سنرى .

ومن أدلة المصدر الشعبى لهذه الأسماء أنها لا تستوفى الأندلس الإسلامى كله ، فليس فيها ذكر لمرسية أو بلنسية أو المرية ، بل تدخل فيه نواح خارجة عنه مثل برشلونة ، ثم إن الإدريسى فى كلامه المفصل بعد ذلك يذكر ما أهمله فى ذلك التقسيم من المدن الأندلسية ، ثم يقول فى نهاية كلامه عن هذه الأقاليم : « فهذه كلها أقاليم اشبانيا المسمى جملتها الأندلس » وهذا يناقض ما نص عليه قبلا من أن شبه الجزيرة كله يسمى الأندلس ، وأن ما شمال جبال الشارات يسمى قشتالة ، وما جنوبه يسمى اشبانيا . وربما جاز لنا هنا أن نقول إن هذا التقسم أخذه الإدريسى من رجل غير أندلسى : من واحد من تجار القطلونيين أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرغونيين مثلا ممن تصادف مرورهم بصقلية ، سأله الادريسى عن تقسيم الأندلس كما رآه فذكر له ذلك ، فاثبته كما هو قبل أن يأتى بالوصف المفصل لشبه الجزيرة ، وكان ينبغى أن يعيد الادريسى النظر فيه ويصوبه على أساس فهمه الأساسى لتقسيم شبه الجزيرة كما ذكره أولا ثم على أساس المعلومات الواقية التى أتى بها بعد ذلك . ولكن الإدريسى لم يراجع ولم يصوب ، إذ أعجلته الأيام عن ذلك ، فبقيت أجزاء هذا الوصف وكأنها مسودة تنتظر المراجعة والتصويب والتنسيق . ودليلنا على ذلك قول الادريسى بعد إيراد هذه الأقاليم : «والأندلس المسماة اشبانيا أقاليم عدة ورساتيق جملة ، وفى كل إقليم منها عدة مدن ، نريد أن نأتى بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى» وليس فى هذه العبارة إشارة إلى الأقاليم التى ذكرها قبل ذلك ، والاشارة إليها قليلة فى الوصف المفصل ، مما يدل على أن الفقرة الخاصة بالأقاليم وضعت بين التقديم العام عن هيئة شبه الجزيرة وأقسامها والوصف المفصل ، وقد وضعها الادريسى هنا لتكون أشبه بخط السير الذى سيتبعه فى وصفه المطول للأندلس . والواقع أنه يتخذ هذا التقسيم طريقاً للوصف بعد ذلك دون أن يشير ولو مرة واحدة إلى أصله أو طبيعته ، إنما هو عنده مجرد طريقة لتيسير الوصف ؛ وعدد هذه الأقاليم ستة وعشرون ، منها اثنان يسميان كورتين وهما تدمير وكونكة ، وأسماؤها وحدودها والأعلام الواردة فيها حافلة بالتفصيلات ، وقد تناولها البحاثون السابق ذكرهم بالبحث والتعليق ، وكذلك فعل دوزى و دى خوية فى الترجمة الفرنسية لهذا الجزء من جغرافية الإدريسى ، وليس هنا مجال عرض هذه الأقاليم ومناقشة أسمائها وأصولها وحل معضلاتها ، فهذا مكانه دراسة خاصة عن جغرافية شبه الجزيرة عند العرب .

وبعد ذكر هذه الأقاليم يبدأ الجزء الأهم — والأكبر أيضاً — من صفة الادريسى للأندلس ، وهو وصف عام يعتمد على المدن دون الأقاليم أو الكور ، فيذكر المدينة ويصف هيأتها العامة وموقعها على بحر أو نهر أو سفح جبل ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا كانت ميناء نهرياً أو بحرياً وصف مرفأها وبيّن أهميته وأنواع السفن التى تلم به ومن أى البلاد تجئ وإلى أيها تذهب ، وعدّد أصناف المتاجر التى تحمل إليه ومنه ، ثم يذكر إذا كان للمدينة سور أو كانت غير مسورة ، وحالة ذلك السور ، ومن أى المواد بنى وهل لها قصبة أو ليس لها «سور ولا حظيرة» ثم سقياها ومن أين تكون : من نهر أو عيون ، وما نوع هذا الماء ، ثم الاقليم من حولها وما يزرع فيه ، وإذا كان فيه معدن ذكره وبيّن قدره ودرجته من الجودة وما يصنع منه ، ويذكر ما فى ناحية المدينة من أعلام جغرافية ذات أهمية كالجبال والأنهار والسهول أو الملاحات أو الأراضى المنتجة أو المقفرة ، ويذكر أسماء هذه كلها إذا استطاع ، ثم يذكر بعد ذلك الطرق من هذه المدينة إلى ما يجاورها ويليها من المدن والقرى ، ويقدر الطريق بالأميال أو المراحل ، أو بهما معاً ، وربما أراد التدقيق فيذكر أن طول المسافة كذا «مرحلة خفيفة» ، ولا يفوته أن يذكر القناطر والآثار الهامة والمشاهد الفريدة مع وصف قصير ، وقد يفسر أسماء بعض الأعلام كشرف إشبيلية وقصر أبى دانس وجزيرة أم حكيم وما إلى ذلك ، وهو يذكر فى الغالب شيئاً عن أهل المدينة وناحيتها ويصف حالهم من الفقر والغنى والنشاط والخمول ، ونادراً ما يستطرد مع التاريخ أو مع ذكر العجائب والغرائب .

ومعنى ذلك أن الادريسى حشد فى أصغر حيز أكبر قدر من المعلومات الجغرافية ، بحيث يدهش الإنسان لكثرة المادة التى يقدمها فى سطور قليلة . وإذا تأملنا هذه المادة وجدنا بعضها من الرازى وبعضها الآخر من العذرى أو هروشيش ، وهناك معلومات كثيرة لابد أنه استقاها بنفسه من المشاهدة المباشرة أو من العارفين بهذه النواحى ؛ أى أن الذى لدينا هو خلاصة طيبة لمعظم المادة الجغرافية السابقة وكثير من المعلومات الجديدة مجموعة جمعاً سليماً قائماً على علم وفهم بما ينبغى للوصف الجغرافى وما يدخل فيه وما لا يدخل .

ووصف الادريسى للأندلس فى معظم نواحيه يدل على أنه يعرف ما يتكلم عنه ، فبينما نراه فى وصف مصر مثلا يعتمد فى الغالب على ابن خرداذبة وابن حوقل دون أن يراجع ما ينقله أو يحققه ، نجده فى الأندلس ينقل عن هذين وغيرهما ممن ذكرنا ولكنه يراجع ويدقق ويقيس بحيث لا نكاد نستدرك عليه خطأ يستحق الذكر فى أوضاع المدن والأعلام الجغرافية أو خصائصها . وعرضه لهذه الجغرافية أشبه برحلة ينتقل الانسان فيها من موضع إلى موضع ومن ناحية لناحية ، وخط سير الرحلة هو هذا التقسيم إلى أقاليم الذى أشرنا إليه ، فهى تبدأ من الجنوب عند جزيرة طريف Tarifa ثم تتجه إلى الغرب فتصف إشبيلية وإقليمها وشَرَفِها ، ثم تستطرد مع الشرف إلى المحيط الأطلسى فتصف ما يعرف اليوم بجنوبى البرتغال وما فيه من مدن ومواضع ، ثم تعود إلى قرطبة وإقليمها الذى يسميه الكنبانية ، ويمتد هذا الاقليم جنوباً حتى استجة وقبره ، ثم يمر بما فاته من النواحى جنوبى نهر الوادى الكبير ، فيصف أشونة Osuna ولورة Lora ، ويستمر إلى شاطئ البحر الأبيض عند مالقة ، ويهبط مع هذا الساحل إلى مربله Marbella ، ويلم بذكر ما يقابل ذلك فى الداخل مثل أرشذونه Archidona وبيشتر Bobastro ، ويصف إقليم جيان Jaén الذى يسميه إقليم البشارات Las Alpujarras ، ثم يعود إلى ساحل البحر الأبيض فيلم بالمرية وإقليمها وهو يسميه إقليم بجانة Pechina ، ويستطرد إلى الغرب فيصف غرناطة وما حولها ، ومن غرناطة يصعد إلى الشمال فيذكر إقليم فريرة Ferreira وهو الذى يعرف فى جغرافية الرازى بمدينة فريش Firrix ، ومن هناك يعوج إلى الشرق مرة أخرى ليتحدث عن تدمير أى مرسية واقليمها ، ويتجه شمالا بغرب ليصف إقليم كونكة Cuenca ، ويصعد بعد ذلك شمالا بغرب ليصف إقليم شاطبة ودانية ، وهو يسميه إقليم أرغيرة Enguiera ، ويستطرد منه إلى بلنسية وإقليمها مسمياً إياه إقليم مرباطر Murviedro ، ثم يذكر إلى جنوبه الغربى إقليماً يسميه إقليم القواطم ، وهى تسمية غريبة حيرت الباحثين

ويرى دوزى أن القراءة الصحيحة للاسم هى القواسم ، وهم بيت بنى القاسم احفاد عبد الملك بن قطن الفهرى عامل الأندلس على عهد الولاة ، وهو يؤيد رأيه بأن الإدريسى يذكر فى هذا الاقليم مدينة القُنْت Alpuente وكان بنو القاسم قد انتزوا بها أيام الطوائف ، ولا زلنا نجد إلى الآن قرب القُنت بلداً صغيراً يسمى بنى قاسم Beni Cásin [١] .

ويُتبع الإدريسى ذلك بالكلام على إقليم يسمى الوَجَة وهو لفظ حار العلماء فى أمره حتى أزال اللبس إلياس تيريس سادابا فى دراسة له قال فيها إن الوجة مشتق من فعل وَلَجَ يلج وهى تستعمل بمعنى الأرض الواقعة فى منعطفات الأنهار ، فتكون مثل شبه الجزيرة فتعتصم بها الجيوش لحصانتها ، وأتى إلياس تيريس بأمثلة عند ياقوت تؤيد ذلك ، ثم رجع إلى لسان العرب فى مادة وَلَجَ فوجد ابن الأعرابىّ يقول : « ولَاج الوادى معاطفه ، واحدتها ولجة » . وقال اننا نجد فى المغرب موضعين على الأقل يحملان اسم الوجة ، وقد استعمل اللفظ — ومصغره الوُلَيْجَة — فى الأندلس بمعنى الأرض الواقعة فى منعطف الوادى أو الأرض الخصبة الواسعة على شاطىء النهر ، وقال إن إقليم الوجة الوارد عند الإدريسى يقابل على وجه التقريب ناحية قلعة رباح المسماة Campo de Calatrava فى محافظة ثيوداد ريال الحالية [٢] . والإدريسى يذكر فى ذلك الاقليم ثلاث مدن هى سُرِيّه Almonacid de Zurita وفِتَه Hita وقلعة رباح .

ويلى ذلك إقليم البلالطة ، وهى كما قلنا تسمية محيرة ، لأن الاسم المعروف لهذه الناحية عند جغرافيى العرب هو فحص البلوط Valle de los Pedroches ، وجمع بلوط على بلالطة جمع دارج . وكان اسم فحص البلوط يطلق على مساحة من الأرض شمال قرطبة تقع اليوم فى الجزء الجنوبى من مديريتى ثيوداد ريال Ciudad Real

---

(١) الترجمة الفرنسية لوصف الأندلس للادريسى ، ص ٢١٠ هامش ٣

(٢) ألقى الأستاذ إلياس تيريس هذه المحـــاضرة فى الدورة الخامسة للجلسات العلمية الأندلسية فى مالقة فى ديسمبر ١٩٦٦

والبسيط Albacete بين مدينتى إينوخوسا دل دوك Hinojosa del Duque وجبل المعدن Sierra de Almadén ، وكان الجزء الجنوبى من فحص البلوط يسمى المدور Almodóvar نسبة إلى حصن المدور ، ولم يذكر الإدريسى هنا حصن المدور ، بل ذكر بطروش Pedroche وغافق وحصن ابن هارون el Castillo de Aznarón[1].

ثم يستطرد بعد ذلك غرباً إلى إقليم يسميه القفر[2] ، والمراد به إقليم الجوف الممتد فى غرب اسبانيا ووسط البرتغال ، وهو الذى سماه البكرى بالمفازة ، ويجعل الإدريسى فيه من البلاد شنت مارية Santa María de Algarve ومارتله Mertola وشلب Silves (وثلاثتها فى البرتغال حالياً) وحصونا أخرى .

وإلى الشمال الشرق من هذا الاقليم يذكر إقليم القصر ، وقد سمّى هذه المساحة باسم المدينة التى كانت تحمل اسم قصر أبى دانس Alcocer do Sal وذكر كذلك يابوره Evora (كلاهما فى البرتغال أيضاً) وبطليوس Badajoz وشريشة Jerez de los Caballeros وماردة Mérida وقنطرة السيف Alcántara (فى مديرية قصريش أو قصر إش أو قِصرِش Cáceres) وقورية Coria .

ثم يذكر إقليماً إلى الشمال والغرب من هذا يسميه إقليم البلاط نسبة إلى مدينة صغيرة تسمى البلاط لا زالت موجودة إلى الآن بنفس الاسم Albalate ، ويظهر أن الإقليم كان يسمى بإقليم البلاط ، لأن مادوث يذكر هنا ناحية تسمى Campana de Albalat ، ويذكر الإدريسى فيه أيضاً مدينة مدلين Medellín الحالية ، وكل هذه مواضع فى غربى مديرية قصرش الحالية .

---

(١) انظر : Eduardo Saavedra, *La Geografía de España del Edrisi*, Madrid, 1881. وفى هذا الكتاب يجد القارىء تحقيقاً دقيقاً جداً لكثير من أسماء الأعلام الواردة فى صورة مبهمة عند الادريسى ، وعافق قرية كانت إلى شمال قرطبة ، انظر عنها الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ١٨٧

(٢) فى النص المطبوع تحقيق دوزى ودى خوية (ص ١٧٥) : إقليم الفقر ، وفى نسخة أخرى الصقر ، ويلاحظ أن نقط الحروف فى الأصل غير واضحة ، ولعتقد أن قراءتنا له أقرب إلى المعقول .

وفيما بين هذا الإقليم والمحيط يذكر الادريسى إقليماً يسميه بلاطه يضع فيه ما يقابل وسط البرتغال الحالية فيما بين قلمرية Coimbra ولشبونة ويذكر فيه شنترين Santarem ولشبونة وشنترة Cintra .

وشمالى هذه الأقاليم الخمسة الأخيرة (البلالطة ، والقفر والقصر والبلاط وبلاطة) يذكر الإدريسى إقليم الشارات ، وهو عنده إقليم يمتد من جنوبى نهر تاجه إلى شمالى سلسلة الجبال المعروفة بوادى الرملة Guadarrama فى تصوره شرقاً (والحقيقة شمالا بشرق) حتى أقصى مديرية وادى الحجارة Guadalajara وربما جزء من مديرية سوريا Soria الحاليتين ، ويذكر فيه طلبيرة Talavera de la Reina وطليطلة Toledo ومجريط Madrid والفهمين Alfamín ووادى الحجارة وأقليش Uclés ووبذة Huete .

ويستمر بعد ذلك شرقاً (فى تصوره ، والحقيقة شمالا بشرق) فيتحدث عما كان يعرف بكورة سرقسطة مسمياً إياه إقليم أرنيط Arnedo وهى بلدة صغيرة فى مديرية لجرونيو Logroño الحالية فى منتصف المسافة بين قاعدتها (بنفس الاسم) وتطيلة Tudela ، ويذكر فيه من البلاد قلعة أيوب Calatayud وقلعة دروقة Daroca ومدينة سرقسطة Zaragoza ووشقة Huesca وتطيلة .

ويضع بعد ذلك — فى طريقه إلى جبال البرت — إقليما صغيراً يسميه إقليم الزيتون ، واسمه فى الغالب مشتق من نهر الزيتون المعروف الآن باسم el Cinca وهو نهير صغير يصب فى السيجر el Segre أحد فروع نهر إبره ويذكر فيه من المدن جاقة Jaca ولاردة Lérida ومكناسة Mequinenza وإفراغة Fraga .

ويتحدث بعد ذلك عن إقليم قطلونية مسمياً إياه إقليم البرتات والمراد بها جبال البرينيوس (التى تعرب خطأ باسم البرانس) ويذكر فيه طرطوشة Tortosa وطركونة Tarragona وبرشلونة Barcelona .

ويختم الوصف بإقليم يسميه مرسرية أو مرمريرة ، ولا نستطيع تحقيقه لأنه يكتفى بالقول بأن فيه حصونا خالية . ويقول بعد ذلك : ومما يلى البحر حصن طشكر Tiscar وكشطالى ، وهى ليست Castellón de la Plana وإنما Castello de Chiver كما رجح دوزى ،[١] وكتندة Cutanda[٢] .

وواضح أن خط السير هذا ليس بالأمثل ولا الأقرب إلى التقسيم الجغرافى ، فهو يسير شمالا ثم غربا ثم شرقا ثم غربا مرة أخرى وهكذا ، ولو أنه تابع الرازى أو العذرى لكان أقرب إلى المنهج الصحيح ، نعم إن الإدريسى استوفى فى الوصف المفصل ذكر المدن الرئيسية والأعلام الجغرافية الهامة على أحسن صورة ممكنة حتى عصره ، ولكن تتبع خط السير عسير بحيث لا يتيسر العثور على الفقرات الخاصة بالمدن والأعلام الجغرافية إلا بالاستعانة بكشاف مفصل ، ثم إننا لا نجد أى إشارة إلى تقسيم إدارى أو مالى ، ولكنها رحلة طويلة حافلة بالتفاصيل ، وفى غضون التفاصيل يضيع التصور العـام ، ولو أنه عنى بالاستفادة من جغرافية العذرى لاستكمل هذه الناحية أيضاً .

والادريسى حريص فى هذه الجغرافية على ذكر المسافات بين المدن أو الأبعاد الخاصة بالجبال والشواطىء والأنهار ومسافات ما بينها ، ومرجعه فيما يذكر منها كتب الجغرافية أولا ثم أقوال الرحالة وأهل البلاد ، وفيما يتصل باسبانيا يمكن القول إنه كان يعتمد على نفر من المستعربين أى من الأندلسيين النصارى ، وفى العصر الذى كان الإدريسى يكتب فيه ، كانت المستعربية كتسمية لطائفة معينة من أهل اسبانيا تعيش تحت السيادة الاسلامية ، قد أخذت تفقد طابعها المميز نتيجة لزوال هذه السيادة الاسلامية نفسها عن كثير من النواحى وتخلخلها فيما بقى للاسلام من نواحى الأندلس ، فقد أثبت سيزار

---

(١) انظر الترجمة الفرنسية لنص الادريسى ، ص ٢١٢ هامش ١

(٢) الادريسي ، المغرب وأرض السودان . . . الخ ، ص ١٧٧ — ١٧٩